مع العدد ملحق

مجلة إسلامية شهرية جامعة

البيان

AL BAYAN

السنة الخامسة والعشرون . العدد ٢٧١ . ربيع الأول ١٤٣١ هـ . مارس ٢٠١٠ م

د. عبد الحي يوسف: واجب على المسلمين المشاركة في الانتخابات

كيف نواجه الحزبية؟

مأزق العملية السياسية في العراق

مواجهة المجتمع فيما يخالف الدين

ولا تعثوا في الأرض مفسدين

الاستغلال السياسي لبدعة المولد النبوي

سعر العدد:السعودية ١٠ ريالات . الكويت ٨٠٠ فلس . مصر ٥ جنيهات . المغرب ١٢ درهماً . قطر ١٠ ريالات . اليمن ٢٠٠ ريالاً . السودان ٣٠٠ دينار . سلطنة عُمان ٨٠٠ بيزة . الأردن ٧٥ فلسً . الإمارات العربية ١٠ دراهم . البحرين دينار واحد . فلسطين نصف دولار أمريكي

مستشفى أبها الخاص
ABHA PRIVATE HOSPITAL

توفير عناء السفر إلى الخارج

وحدات متخصصة في خدمتكم

- وحدة طب وجراحة المخ والأعصاب
- وحدة جراحة العظام والعمود الفقري
- وحدة جراحة التجميل وشفط الدهون
- وحدة جراحة الكلى والمسالك البولية
- وحدة الجراحة العامة والمناظير
- وحدة الأنف والأذن والحنجرة
- وحدة الأمراض الباطنية والمناظير
- وحدة طب وجراحة العيون
- وحدة النساء والولادة
- وحدة الأطفال وحديثي الولادة
- وحدة جراحة الأطفال
- وحدة الجلدية والتناسلية
- وحدة الأمراض الصدرية
- وحدة العلاج الطبيعي والتأهيل
- وحدة أمراض الكلى
- وحدة السمنة والسكري
- وحدة الطب النفسي
- وحدة أمراض القلب والشرايين
- وحدة علاج الروماتيزم والمفاصل
- وحدة طب وجراحة الأسنان
- وحدة العناية المركزة
- وحدة أمراض الشرج والمستقيم

جهاز الليزر الأخضر KTP
لإستئصال تضخم البروستاتا

جهاز الموجات الصوتية
رباعي الأبعاد

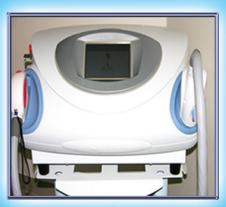
أحدث أجهزة الأمراض الجلدية

جهاز ديناميكية التبول

جهاز ديكسا DEXA لقياس هشاشة العظام

جهاز قياس جهد القلب

جهاز الأشعه تحت الحمراء لعلاج البواسير

وحدة الطوارئ واستقبال الحوادث والأشعة التشخيصية والمختبرات الطبية
على مدار ٢٤ ساعة

www.aph.med.sa

أبها – شمال الخطوط السعودية هاتف : ٢٢٩٢٢٢٢ فاكس : ٢٢٤٤٨٠١ ص ب : ١٧٩٤

مجلة
البيان
إسلامية . شهرية . جامعة

الافتتاحية

٤ اقـــدروا الله فـي فـتـيـاكـم عـنـه حقَّ قَدْره — التحرير

العقيدة والشريعة

٨ الاستغلال السياسي لبدعة المولد النبوي — رأفت صلاح الدين
١٦ هـــل يُـســتـعـان بـالـجـن؟ — د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف

قضايا دعوية

١٨ بـيـن حـتـمـيـة الـواقـع وتـغـيـيـر المـنـكـر — عبد العزيز آل محجوب
٢٠ مـواجـهـة المـجـتـمـع فـيـمـا يـخـالـف الـديـن — د. أحمد إبراهيم خضر

قراءة عقدية

٢٢ «أتـــدعـــون بـــعـــلًا؟!» — فيصل بن علي الكاملي

قضايا تربوية

٢٤ تكبيرة (الانـتـقـال).. ودلالاتـهـا التربوية — حسين بن علي الزومي

النجاح: إدارة

٢٧ فـي الـعـمـل الـخـيـري... الـسـمـعـة تـأتـي أولًا! — إبراهيم بن سليمان الحيدري

معركة النَّص

٢٨ الانـــقـــيـــاد الـــمـــشـــروط — فهد بن صالح العجلان

حوار

٣٠ حـــوار مـع الـدكـتـور عـبـد الـحـي يـوسـف — حاوره في الخرطوم: وليد الطيب

خدمة العملاء

السعودية
ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
هـاتف خدمة العملاء مباشـــر: ٢٢٥١٩٦٧
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير
editors@albayan.co.uk
خدمة العملاء
sub@albayan.co.uk
التسويق
sales@albayan.co.uk

المـوزعـــون

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٢٧٧٣٣.
الإمارات العربية المتحدة : شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩ هاتف : ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦ .
سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠ .
البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ **المنامة:** ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
السعودية : الشركة الوطنية للتوزيع: هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.
قـطـر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ – ٤٥٥٧٨١١ – ٤٥٥٧٨١٢ – فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.
المغـرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
اليمـن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء : ص.ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجـامعة القـديمة، هـــاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥

رئيس التحرير
أحمد بن عبد الرحمن الصويان
alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير
د. عبد الله بن سليمان الفراج

هيئة التحرير
أحمد بن عبد العزيز العامر
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
د. يوسف بن صالح الصغير
فهد بن صالح العجلان
أحمد بن عبد المحسن العساف
فيصل بن علي أحمد الكاملي

سكرتير التحرير
إسلام السيد علي

الإخراج الفني
خالد حسن عمارة

عنوان المجلة على الشبكة العالمية
www.albayan-magazine.com

الحسابات

السعودية: مصرف الراجحي
آي بان: SA١٣٨٠٠٠٠٢٩٦٦٠٨٠١٠٠٢١٠٠٧

الاشتراكات

السعودية ودول الخليج	١٢٠	ريال سعودي
بريطانيا وايرلندا	٤٧	يورو
أوروبا	٥٥	يورو
البلاد العربية وإفريقيا	٤٥	يورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥	يورو
المؤسسات الرسمية	٦٠	يورو

نص شعري

٣٤ دمـــــــــاء الـــشـــهـــداء
عماد علي قطري

المسلمون والعالم

٣٦ النموذج العراقي... خطر يتهدد النظام العربي (١ - ٢)
أحمد فهمي

٤٢ مـأزق الـعـمـلـيـة الـسـيـاسـيـة فـي الـعـراق الانتخابات القادمة وأوهام (الديمقراطية)
د. مثنى الضاري

٤٦ مستقبل السودان... بين يدي الانتخابات والاستفتاء
وليد الطيب

٥٤ مـآذن سويسرا والديمقراطية العنصرية
د. عبد العزيز بن فوزان بن صالح الفوزان

٦٠ مـرصـد الأحـــداث
جلال الشايب

قصة قصيرة

٦٦ شـــهـــيـــق الـــعـــصـــفـــور
بسام الطعان

عين على العدو

٦٨ «انتكاسة» صهيونية بعد أزمة «المقعد التركي المنخفض»
د. عدنان أبو عامر

فكرية

٧٠ إخـــوان الـصـفـا جـنـاح فـكـري للباطنية
أ. د. محمد أمحزون

منتدى القرّاء

٧٤ عدَّة كتَّاب

الورقة الأخيرة

٧٦ كـيـف نـــواجـــه الـــحـــزبـــيـــة...؟
أحمد بن عبد الرحمن الصويان

[كلمة صغيرة]

ولا تعثوا في الأرض مفسدين

(الفساد الإداري) ظاهرة من الظواهر السائدة في عالمنا العربي والإسلامي بصورة صارخة ومستفزة، وهو نوعان:

الأول: فساد ناتج عن تولية غير الأكفياء، وبعض هؤلاء قد لا يتقصد الإفساد، لكنه بسبب عجزه وضعف قدرته وتأهيله يتخبط ويضطرب؛ فيفسد بذلك أكثر مما يصلح.

الآخر: فساد ناتج عن سوء استغلال السلطة بسبب تصدير بعض المغرضين وأهل الأهواء وأصحاب المصالح والتطلعات الشخصية.

والمحصلة من ذلك - في كلا النوعين - تنعكس سلباً على استقرار المجتمع وتنميته وتقدُّمه (التقني والحضاري).

فعندما يضرب الفساد بأطنابه في أعماق المجتمع دون رقيب أو نكير، تتوالى المفاسد في شتى مناحي الحياة، ويصبح الفاسدون هم وحدهم الممسكون بزمام المجتمع!

إن الفساد الإداري بيئة خصبة لظهور (الفساد المالي) والاعتداء على الحقوق العامة والخاصة.

ومن أهم العوامل التي ساعدت على تفشِّي هذه الظاهرة وتجذُّرها:

غياب أو ضَعْف الاحتساب وفقه الإنكار في الأمة:

إنَّ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) من أعظم ما يطهِّر المجتمع من أهل الأهواء والمفسدين. قال - تعالى -: ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ﴾ [هود: ١١٦].

وتأمَّل دعوة النبي شعيب ﷺ؛ فقد كان أعظم ما جاء به - بعد تقرير التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له - مواجهة الفساد المالي. قال الله - تعالى -: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٤ - ٨٦].

وسيرة نبينا محمد ﷺ عامرة بالتحذير من الفساد والغلول والتعدي على حقوق الناس، وقد تواترت النصوص من الكتاب والسنَّة في تقرير ذلك، وقبل نزول كثير من الشرائع، تَنَزَّل قول الله - عز وجل -: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ١ - ٦].

وإذا كان الملأ من المفسدين قد نجحوا في بعض الدول في تطبيع الفساد، فإن الواجب على المصلحين وأهل الرأي أن يؤصِّلوا لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على يد المفسد والاحتساب عليه. وتقصيرهم في ذلك سيكون سبباً لتولي غيرهم لهذه المهمة، وسيؤدي إلى تضييع واجب شرعي أمر الله - عز وجل - بإقامته.

اقدروا الله في فتياكم عنه حقَ قَدْره

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على محمدٍ وعلى آله وصحبه وأزواجه ومَنْ سار على نهجه إلى يوم الدين، أما بعد: فإن الحديث حول موضوعٍ ما، يُفقده أهميتـه ويُضعف تأثيره؛ حين يزيد الكلام فيه عن مستوى الحاجة؛ إلا أن ثَّمة موضوعات مهما كثر الكلام فيها أو زاد حيِّزُ الاهتمام بها فإنها تبقى بحاجة إلى المزيد؛ نظراً لِمَا لها من أهمية وحاجة ملحَّة تَمَسُّ عموم الناس في كل أزمنتهم وأمكنتهم؛ فكيف حين يكون حالها مما يمسُّ حاجة كل (أحد) يتردد النفس في صدره، وهي معه في كل شؤونه منذ تخلُّقِه في بطن أمه وحتى يرحل عن دنياه ويلاقي ربه، ووجودها ضروري لكل مجتمع في شؤون حياته كلها. كل هذا ينبئك عن خطر (الفتيا) وعِظَم أثرها، وسموِّ مكانتها؛ فهي نُطْق بمراد الله ومراد رسوله ﷺ في النوازل والأحكام المتعلقة بدين الناس ودنياهم، وهي (توقيع) و (إمضاء) عن رب العالمين، وحين يتأمَّل العاقل البصير واقع بعض الفتاوى المعاصرة، فإن غيرته وصدق إيمانه لا بد أن تُسِيل الدمع من عينيه لتعصر الألم في قلبه؛ لِمَا آل إليه حال جزء من الفتيا المعاصرة وما طرأ عليها من عوارض وتغيرات؛ حيث:

١ - تلاحقت الفتاوى التي تسعى إلى اختيار (رخصة) يتخلص بها المستفتي من الحكم الشرعي، وبدلاً من أن يكون الترجيح معتمداً على قواعد وأصول شرعية منطلقة من البحث عن مراد الشارع، أصبحت كثير من الفتاوى تعتمد على اختيار الترخيص كأساس وأصل للاختيار الفقهي.

٢ - تسابقت وسائل الإعلام في إظهار شخصيات معينة لم يكن ظهورها نابعاً من مكانتهم العلمية ولا حضورهم الشعبي ولا من أي اعتبار سوى موافقة فتاويهم واختياراتهم للأهواء والرغبات الشخصية.

٣ - برزت الفتاوى التي يطير بها المنحرفون والمستهترون بالأحكام الشرعية، ويذيعونها في كل مكان، ويتخذونها ستاراً لتمرير الانحرافات الفكرية والسلوكية.

٤ - لم تسلم الأصول الشرعية الضرورية في الروابط الأخوية التي تجمع بين المسلمين من شَقٍّ وتخريق بعض الفتاوى لسياجها، وتحويرها لما حقيقته عدوان وبغي وقطيعة رحم؛ ليبدو حقاً شرعياً مصاناً، وبدلاً من أن تصيح تلك الفتاوى بأغراض السوء التي تحرِّك هذه الأعمال الظالمة جعلتها غايات شرعية نبيلة.

كل هـذا وغيره أحـدث حالة من الاضطـراب والحيرة والشتات لدى فئة ليسـت بالقليلة من عامة الناس؛ فأخذوا يتسـاءلون في قلق عن سبب معقول لما يرونه من اختلال في أمـر الفتيا، وتفاوتـت مواقفهم تجاه هـذا الأمر، ولئن بقي أكثرهم على تعظيمه للفتيا واحتياطه لدينه؛ إلا أن الانحراف ما زال مؤثراً في غيرهم وفي ازدياد.

إن الفتيا في الأحكام الشرعية وإن كانت في الحقيقة (رأياً) و (اختيـاراً) من المفتي؛ إلا أنها ليسـت مجرد رأي ووجهة نظر واختيـار محض، بل هـي: كلام في دين اللـه، وتوقيع عن رب العالمين، ودلالة يقول بها المفتي للناس: إن الله – تعالى – يرضا لكـم أن تفعلوا كذا وتتركوا كذا. وسـيقف المفتي بين يدي رب العالمين ليُسائله عن ذلك؛ فهو مقام رهيب؛ لو استحضره المفتي لارتجـف قلبه فَرَقاً وخوفاً من رب العالمين، ولخشـي أن يكون مشمولاً بقول الله – تعالى –: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعـراف: ٣٣]؛ حيث قرن الله القول عليه بغير علم بالشـرك والفواحش والبغي التي هي من الجرائم الكبرى؛ ليعلم القائل في دين الله أي خطر يقتحمه حين يفتي في دين الله؛ حذراً من وقوعه في هذا النهي العظيم.

ولعظمـة هذا الباب وشـناعة الانحراف فيه كان سـبباً لإحجام سلف هذه الأمة عن الفتيا وتدافعهم لها واستعمالهم لأقصى غايات الحَيطَة والحـذر في موضوعات الفتيا. يقول عبد الرحمـن بن أبي ليلى: (لقد أدركت عشـرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ من الأنصار ما منهم أحد يحدث بحديث إلا ودَّ أنَّ أخاه كفاه الفتيا)[1].

بل كانوا يستشـعرون الخوف من الله وعذابه والنار؛ حتى في المسائل الاجتهادية التي ليس فيها نص شرعي ظاهر. يقول علي – رضي الله عنه –: (من سرَّه أن يقتحم جراثيم[2] جهنم، فَلْيقض بين الجـد و الإخوة)[3]، وقـال ابن عمر – رضي الله عنهما –: (أجرأكم على جراثيم جهنم أجرأكم على الجد)[4].

يقولون هذا مع كونهم أعلم الناس بشأن الحلال والحرام، وأقربهـم لإصابة مراد الله فـي القضايا مع ما هم عليه من ورع وتقى وديانة، ومـا ذاك إلا لإدراكهم لخطورة هذا الباب واستشعارهم لمقام المفتي متحدثاً عن رب العالمين.

إن اختلال الفتيا أو اعتراءها بالضعف والفساد، خسارة لجميـع الناس (حكاماً ومحكومين، علمـاء ومتعلمين، مفتين ومستفتين)، ولن يسـتفيد منها أحد إلا ذوو المناهج الفكرية المنحرفة التي يسـوؤها بقاء الحكم الشرعي وبيانه، وأما من عداهم فبقاء الفتيا في شـرفها وعِزِّها وصيانتها عن العبث والاستغلال ضرورة لنا جميعاً، ومسؤولية علينا جميعاً، يجب أن نتواصى بها ويذكِّر بعضنا بعضاً فيها، ولعلنا استشعاراً منَّا لهذه الأهمية نضع بعض الإشارات والتوصيات المهمة:

١ – تذكيـر المسـتفتي بواجبه الشـرعي فـي موضوع الاسـتفتاء، وأن الحكم على الحادثة المسـؤول عنها لا ينتهي بصـدور فتيا من أحد بجواز أو منع، بـل يجب أن يتذكر أن المسـؤولية والحسـاب يوم القيامة سـيكون عليه؛ فعليه أن يحتاط لدينه ويختار في اسـتفتائه من يثق بدينه وعلمه، وأن يراعـي اطمئنان قلبه لأمر هـذه الفتيا؛ فهو أعلم الناس بما يَجْتفُّ بمسـألته من قرائن وأحوال وقد قال النبي ﷺ: «الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلَّع عليه الناس»[5].

وَلْيتذكـر المسـتفتي أن أَخْذه للفتاوى بطريـق الانتقاء والاختيار يكشـف عن نقصٍ وضَعْف يُخشَـى أن ينحدر فيه المستفتي إلى ما حذَّر منه سليمان التيمي – رحمه الله – حين قال: (إنك إن أخذت برخصة كل عالم أو زلة كل عالم اجتمع فيك الشر كله)[6].

ونعتقـد أن تعظيـم أمر الاسـتفتاء في نفـوس الناس وتذكيرَهم بواجبهم الشـرعي في أمـر الفتيا هو من أعظم الضمانات الشرعية الكفيلة بصيانة باب الفتيا من الانحراف للغلو أو الجفـاء؛ فالناس يعون ويدركـون كثيراً من العوامل والأسباب التي تؤثر في مسيرة الفتيا وتحرف بها ذات اليمين وذات الشمال.

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه، باب: من هاب الفتيا وكره التنطع والتبدع (١/ ٦٥) وابن المبارك في الزهد باب: من طلب العلم لعرض في الدنيا ( ) وابن سعد في الطبقات الكبرى (٦/ ١١٠)..

(٢) الجراثيم جمع جرثومة، وهي: التراب الذي تَسْفيه الريح.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى في باب تشديد الكلام في مسألة الجد مع الإخوة للأب والأم أو للأب من غير اجتهاد وكثرة الاختلاف فيها: (٦/ ٢٤٥)، وعبد الرزاق في مصنفه في باب: فرض الجد: (١٠/ ٢٦٢)، والمقصود بها: المسألة الفرضية الشهيرة في حال اجتماع الجد مع الإخوة الأشقاء أو الإخوة لأب، هل يسقطهم كالأب؛ فلا يرثون معه أو يرثون معه على تفصيل؟ وإلى كلا القولين ذهب جِلَّة من علماء الصحابة والسلف.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه في باب: فرض الجد: (١٠/ ٢٦٢)

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، باب: تفسير البر والإثم برقم ٢٥٥٣: (٤/ ١٩٨٠).

(٦) أخرجه الخلال في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في باب: ذكر الغناء وإنكاره: (١/ ٢٠٧).

٢ – تذكيـــر المفتي بالواجب الشـــرعي والأمانة العظمى في عنقه في القيام بنصرة أحكام الشـــريعة والأمر بالمعروف والنهـــي عن المنكـــر، وأن دوره لا يصـــح أن يقف على مجرد انتظار ســـائل له ليجيب عنه، بل تكليف الأمانة يوجب عليه أن يصـــدع بالحق ويجلِّي الحكم في النـــوازل والقضايا التي يحتاجها الناس ويبحثـــون عن الإجابـــة عنهـــا، وهـــذا واجـــب الجميـــع غيـــر أنـــه في حـــق العـــالم المفتي أعظـــم وجوباً وأقوى إلزاماً.

٣ – التحذير من استغلال الفتاوى واتخاذها جسراً تُمرَّر على ظهره حالات التفريط في الواجبات الشـــرعية، وشيوع الانحرافـــات الســـلوكية والفكرية التي يســـعى لها كثير من المنحرفين في عالمنا الإسلامي. ومن العقل والديانة والواجب الشرعي أن يكون المفتي فَطِناً لتلك المحاولات، يقظاً لئلا يكون – من حيث يشعر أو لا يشعر – سبباً لمرور كثير من المحرمات الشرعية من خلال فتيا قد تكون مقبولة أو لها وجه شرعي؛ غير أن صحة الفتيا بشـــيء لا تجيز القول به مطلقاً من غير اعتبار لحـــال الزمان والمكان، ومـــن دون مراعاة منه لكيفية التعامل مع هذه الفتيا، ومن المؤســـف أن يتمكن المفسدون من نَشْر فسادهم الفكري والسلوكي من خلال تصديرهم لبعض المفتين الذي يعطون من خلال آرائهم الفقهية ســـتراً وحفظاً لمرور هذا الانحراف والفساد.

٤ – تربية أجيال المسلمين على تعظيم الفتيا في دين الله، وترهيبهـــم من الخوض فيه بغير علم، وتجلية منهج الســـلف الصالـــح في أمر الفتيـــا وخطرها، والتركيز فـــي هذا المقام على الناشـــئة المتعلمة: من طلاب العلم الشـــرعي في المعاهد والكليات والجامعات الشـــرعية؛ حتى ينشأ طالب العلم منذ صغره علـــى إقدار الفتيا حق قَدْرها والرهبة من ولوجها، ولو بحـــق؛ فضـــلاً عـــن التهـــاون بهـــا أو تحقيـــق أغـــراض ســـيئة مـــن خـــلالها.

٥ – ضرورة تكاتف العلماء والفقهاء والمختصين في العلوم الشرعية على القيام بواجبهم تجاه موضوع الفتيا، والاجتهاد في بذل الوسائل والأســـباب الـمُعِينَة على حفظ مقام الفتيا والرفع من قَدْرها وضبط مســـيرها من الانزلاق والاستغلال. والفتيا في هذا العصـــر أحوج ما تكون إلى الجهد الجماعي

> إن الفتيـا في الأحكام الشـرعية وإن كانت في الحقيقة (رأياً) و(اختياراً) من المفتي؛ إلا أنها ليسـت مجرد رأي ووجهة نظـر واختيار محـض، بل هي كلام في ديـن الله، وتوقيـع عـن رب العالمـين، ودلالـة يقول بهـا المفتي للنـاس: إن الله – تعـالى – يرضـى لكم أن تفعلـوا كـذا وتتركوا كذا. وسـيقف المفتـي بـين يـدي رب العالمـين ليسـائله عن ذلك؛ فهـو مقام رهيب لـو اسـتحضره المفتي لارتجـف قلبه فَرَقـاً وخوفـاً مـن رب العالمـين.

والمؤسســـاتي الذي تجتمع فيه كلمة فقهاء المســـلمين في كل بقاع العالم الإسلامي على كلمة سواء وقول بيِّن ينصر أحكام الشـــريعة ويُظهِر الحق لعموم الناس، ولعلنا نشـــيد في هذه المناسبة بالجهد المشكور والعمل الطيب المبرور الذي أثمر عنه قيام رابطة (علماء المسلمين) التي أُعلِن عنها في الكويت في اليوم الرابع من شهر صفر عام ١٤٣١، بعضوية عدد كبير من علماء الأمة، من أربع وعشـــرين دولة. وسرَّنا أن هذه الرابطة ســـتكون متممة للجهود العلمية والدعوية، وأنها ســـتتكامل وتتعاون مع جميع الهيئات الرسمية وغير الرسمية التي تخدم تطلعات الأمة.

إننـــا نُشـــيد بهذه البادرة الحســـنة، ونشـــدُّ على يدها، ونُشـــيد بما ظهر قَبْـلها أو يظهـــر بعـــدها مـــن الروابط العلـــميـــة التي تجمع علماء المســـلمـين، وتقـــرِّر الأحكـام الشـــرعية فـــي كافة النـوازل، ونرجو مـــن الله أن يتحـــقق على يدهـــا الخيـــر، وأن يجـــزي القـــائمين عليـــها خيراً وأن يسدِّد خُطاهـــم ويكلل جهـــودهم بالتوفيق والسداد، حتى تصـــان الفتيـــا ونَقْـــدر الله فيهـــا حـــق قَـــدْره.

تسجيلات الراية الإسلامية

تعلن عن صدور الجديد من

أشرطة الدروس والمحاضرات العلمية

الراية

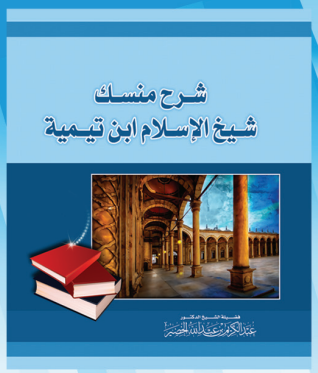

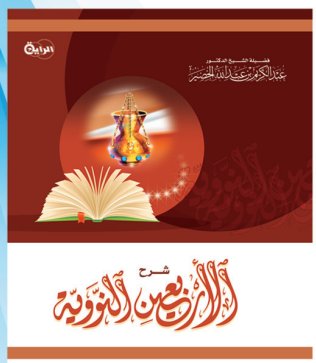

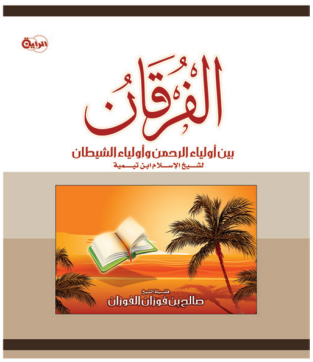

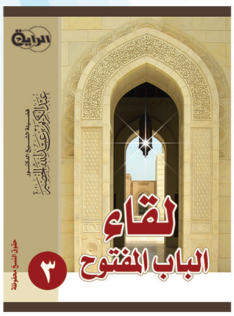

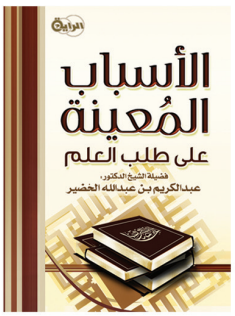

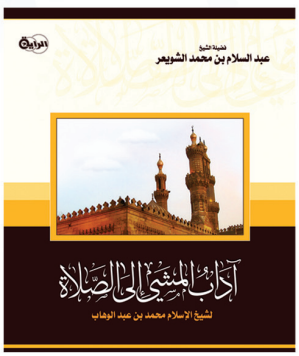

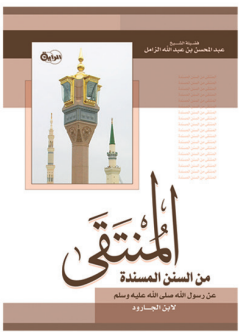

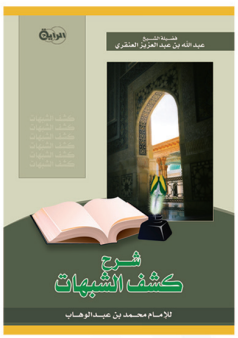

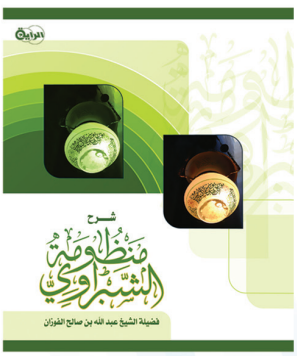

وترقبوا..
الجديد والمفيد من أشرطة
الدروس والمحاضرات العلمية

تسجيلات الراية الإسلامية
الرياض ـ الربوة ـ شارع عمر بن عبد العزيز ـ ص.ب ٤٠١٢٤
الرمز ١١٤٩٩ ـ هاتف ٤٩١١٩٨٥ ـ ٤٩٢١٣٩٣ فاكس ٤٩٣١٨٦٩

الاستغلال السياسي لبدعة المولد النبوي

رأفـــت صـــلاح الـديـن
rafat110@hotmail.com

اتفق المحققون[1] على أن أول من احتفل بهذه البدعة هم العبيديون المنتسبون زوراً وبهتاناً لفاطمة - رضي الله عنها - وذلك في سنة ٣٦١هـ على يد المعز لدين الله، وهم في الحقيقة من المؤسسين لدعوة الباطنية؛ فجدهم هو ابن ديصان المعروف بالقداح، وكان مولى لجعفر بن محمد الصادق، وكان من الأهواز وأحد مؤسسي مذهب الباطنية، وذلك بالعراق، ثم رحل إلى المغرب، وانتسب في تلك الناحية إلى عقيل بن أبي طالب، وزعم أنه من نَسْله، فلما دخل في دعوته قوم من غلاة الرافضة، ادَّعى أنه مِنْ ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، فقبلوا ذلك منه؛ مع أن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق مات ولم يُعْقِب ذرية، وممن تبعه: حمدان قرمط، وإليه تُنسَب القرامطة، ثم لما تمادت بهم الأيام، ظهر المعروف منهم بسعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون بن ديصان القداح، فغيَّر اسمه ونسبه وقال لأتباعه: أنا عبيد الله بن الحسن بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق؛ فظهرت فتنته بالمغرب. ودولة العبيديين قامت سنة ٢٩٨هـ وقد مهَّد لقيامها داعية إسماعيلي يُدعَى: أبو عبد الله الشيعي. وحشد لنصرتها قبيلة (كتامة).

(١) راجع المقريزي في خططه: (١/ ٤٩٠)، والقلقشندي في صبح الأعشى: (٣/ ٤٩٨)، والسندوبي في تاريخ الاحتفال بالمولد النبوي:(٦٩)، ومحمد بخيت في أحسن الكلام: (٤٤)، وعلي فكري في محاضراته:(٨٤)، وعلي محفوظ في الإبداع:(١٢٦).

وظلت هذه الموالد عند بني عُبَيد في مصر وبعض الشام، إلى أن انتهت دولتهم، وورثها من كانوا بعدهم، ولا يعرفها بقية المسلمين في شتى البقاع، بل أنكروها ولم يقبلوها تكملة القرن الرابع وطيلة القرنين: الخامس والسادس؛ إذ انتقلت عدوى هذه الاحتفالات في أوائل القرن السابع من مصر إلى أهل إربل في العراق، نقلها شيخ صوفي يُدْعى عمر بن محمد الملا، وأقنع بها ملك إربل في العراق أبا سعيد كوكبري، ثم انتشرت بعد ذلك في سائر بلدان المسلمين، بسبب الجهل والتقليد الأعمى؛ حتى وصلت إلى ما نشاهده في العصر الحاضر من مظاهر احتفالية كبيرة ومتنوعة في سائر أرجاء العالم الإسلامي. إذاً كان الهدف الرئيس من إحداث هذه الموالد هدفاً سياسياً؛ لتثبيت حكم بني عُبَيد، ولم يكن لمحبة النبي «ولا لمحبة آل بيته فيه أي نصيب»[1].

مظاهر الاحتفال وإطارها السياسي:

مع مرور الزمن بدأت تُقَنَّن هذه الطقوس حتى وصلت إلينا مظاهرَ متكاملةً، تشمل الأمور العبادية – طبعاً المبتدَعة – كما تشمل الدنيوية: من أكل وشرب ولهو... إلخ.

يقول الأستاذ محمد رشيد رضا تعليقاً على هذه الطقوس: (إن المسلمين رغبوا عما شَرَع الله إلى ما توهموا أنه يُرضِي غيره ممن اتخذوهم أنداداً وصاروا كالإباحيين في الغالب؛ فلاعجب إذا عمَّ فيهم الجهل واستحوذ عليهم الضعف وحُرمُوا ما وعد الله المؤمنين من النصر؛ لأنهم انسلخوا من مجموع ما وصف الله به المؤمنين ولم يكن في القرن الأول شيء من هذه التقاليد والأعمال التي نحن عليها، بل ولا في الثاني ولا يشهد لهذه البدع كتاب ولا سُنة وإنما سرت إلينا بالتقليد أو العدوى من الأمم الأخرى؛ إذ رأى قومنا عندهم أمثال هذه الاحتفالات، فظنوا أنهم إذا عملوا مثلها يكون لدينهم عظمة وشأن في نفوس تلك الأمم؛ فهذا النوع من اتخاذ الأنداد كان من أهم أسباب تأخُّر المسلمين وسقوطهم فيما سقطوا فيه). ا هـ[2].

ولعل المظاهر التي تفشو في كل الموالد – ولم يسلم منها المولد النبوي – تؤكد أن الحدث إنما هو سياسي بامتياز؛ إذ يراد منه تحقيق الرضا الشعبي، والظهور بمظهر المحب للنبي ﷺ دون أن يكون في ذلك المشهد – من أوله إلى آخره – تعبير شرعي صحيح ومقبول عن ذلك الحب؛ إذ وجد أرباب الطرق في ترك مثل هذه المنكرات أو السكوت عنها أو ربما تشجيع البعض عليها، نوعاً من إضفاء قدر من الشعبوية على المحتفلين؛ حتى وإن كان في ذلك إسقاط بعض الشعائر، مثل: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو الوقوع في المحرمات وانتهاك الحدود الشرعية المرعية من جانب المؤمنين الصادقين؛ ولهذا لو فتشنا في الأسباب، فسنجد أنه نوع من الاستغلال السياسي الذي يشترك فيه الجميع.

ومن هنا تُلاحَظ الأهمية السياسية لإبقاء هذه الاحتفالات على صورتها تلك والنفخ فيها حتى تكون أكثر زخماً ولهواً وإلهاءً للشعوب، وأكثر ظهوراً بمظهر الاحتفاء بشعائر الإسلام وهيهات!

المراحل التاريخية التي مرَّ بها الاستغلال السياسي للمولد:

أولاً: العبيديون واستغلال المولد:

سبب ابتداعهم هذه البدعة أن المسلمين في مصر والشام لم يرتضوا سيرتهم في الحكم، وطريقتهم في إدارة شؤون الناس؛ لا سيما وقد انتشرت البدع، بل الشركيات على أيديهم؛ فخاف بنو عبيد من ثورة الناس عليهم؛ فحاولوا استمالة قلوبهم، وكَسْب عواطفهم بإحداث الاحتفالات البدعية؛ فاخترع حاكمهم آنذاك المعز لدين الله العبيدي، مولد النبي وموالد أخرى غيره.

ومعلوم ما اكتنف نَسَب العبيديين من الغموض؛ لذا حاولوا – عن طريق هذه الاحتفالات – التشغيب على الناس وإلهاءهم؛ فلا يفكرون في أنساب هؤلاء الدخلاء وأصولهم.

وهذا مما يؤكد أن هذه البدعة منذ ظهورها إلى اليوم كان الهدف من ورائها هدفاً سياسياً؛ إذ لولا الساسة لَمَا قامت لها قائمة.

قال المقريزي: (كان الأفضل بن أمير الجيوش قد أبطل أمر الموالد الأربعة: النبوي، والعلوي، والفاطمي، والإمام الحاضر، وما يهتم بها، وقَدُم العهد بها حتى نُسِي ذكرها؛ فأخذ الأستاذون يجددون ذِكْرَها للخليفة الآمر بأحكام الله ويرددون الحديث معه فيها ويحسِّنون له معارضة الوزير

(١) تأصيلات عقدية، مجلة الجندي المسلم، العدد ١١٥ بتاريخ: ١/ ٥/ ٢٠٠٤.
(٢) تفسير المنار: (٢/ ٧٤ – ٧٦).

بســـببها وإعادتها وإقامة الجواري والرسوم فيها، فأجاب إلى ذلك وعمل ما ذُكِر). أهـ[1].

ثانياً: بعد عصر العبيديين:

لقد استمر الهدف من إقامة المولد الأسباب السياسية في عصر الأيوبيين والمماليك؛ رغم اختلاف الظروف الاجتماعية. ولكن يبدو أن إدراك الأيوبيين لأهمية هذا العنصر في الترويج للفاطميين دعاهم إلى إدخال تغيير نوعي في هذه الاحتفالات، وهذا ما دعا الباحث (عرفه عبده علي) إلى القول: (في عصر الدولة الأيوبية، أُبطِلَت كل مظاهر الاحتفالات الدينية؛ فقد كان السلطان صلاح الدين يُوسُـــف يهدف إلى توطيد أركان دولته؛ لمواجهة ما يتهددها من أخطار خارجية، واقتلاع المذهب الشيعي بمحو كافة المظاهر الاجتماعيـــة التي ميزت العصر الفاطمي، ولا شـــك أن هذا السبب السياسي هو أحد الأسباب التي دعت صـــلاح الدين إلى محاربة هذه البدع. واســـتمر هذا التوظيف حتى من حكام وسياسيين غير منتسبين للإسلام)[2].

ثالثاً: الدولة العثمانية واستغلال المولد:

العلاقة بين الخلفاء العثمانيـــين والتصوف علاقة قوية؛ فالعثمانيون اعتنقوا الإســـلام على يد مشايخ الطرق الصوفية من قَبْل استقرارهم في آسيا الصغرى؛ حيث إن جُلَّ السلاطين كانوا صوفيين، بل إن الخلافة العثمانية رغم ما قدمته للإسلام وجهـودها فـي حماية بيضـة الإســـلام قـروناً طوالاً؛ إلا أنها – للأســـف الشـــديد – كانت غارقة فى الخرافـــة، وهذا هو الســـبب الرئيســـي فى محاربتهم لحركة الإصلاح التي قادها الشـــيخ محمد بن عبـــد الوهاب ومحاولتهـــم القضاء عليها، والسلطان عبد الحميد الثاني أشـهر خلفـاء بني عثمان – على جلالـــة قَدْرِه – كان صوفياً قحاً، ورغـم جهـوده المشـــكورة في الحفاظ على أراضي المسلمين ومحاولاته لوقف انهيار الخلافة الإســـلامية، كان له من الخرافة نصيـــب، و كان قد قَرَّب إليه ثلاثة من كبار المتصوفة في ذلك العصر، وكان لهم مقاماً سامياً في السلطنة يومئذٍ مع نفوذهم في جميع الدوائر، وهم: الشيخ محمد ظافر المدني الشـــاذلي (ت ١٣٢١ هـ) والشـــيخ أحمد أســـعد المدني (ت سنة ١٣١٤ هـ) والشيخ أبو الهدى الصيادي (ت سنة ١٣٢٨ هـ).

ولأن الســـلطان عبد الحميد تولى عرش الســـلطنة في ظروف عصيبة، والمؤامرات تحـــاك للأمة، والكوارث والمحن تحيط بها مـــن كل مكان، ودعـــاة القوميـــة والتفرقة يبثون دعواتهـــم في ســـائر البلاد، فقد دعا – كمـــا هو معروف – إلى الجامعة الإســـلامية، والرابطة الدينية، لكن كان اعتماده على الصوفية في دعوته إلى الجامعة الإسلامية؛ لِـمَا رآه من انتشـــارها ونفوذها بين الناس، كما أن ذلك الاعتماد والتبنِّي قد زاد من انتشار الصوفية وتغلغلها في أوساط المسلمين.

وكان من أهم المظاهر التى تبيَّن صوفية الدولة العثمانية هي احتفالاتهم بالمولد النبوي؛ ففي القرون الأخيرة كان يحتفل بالمولد حكام من المســـلمين ليس لهم من الإســـلام إلا اسمه؛ لأن الاحتفال بالمولد صار عند الجماهير المســـلمة من أعظم الواجبـــات التي لا يجوز التهـــاون فيها. كما كان يعتقد هؤلاء الحكام أنهم يستمدون مشروعيتهم من مثل هذه الاحتفالات.

يذكـــر الجبرتي (أنـــه نودي يوم الثلاثـــاء ١١ ربيع الأول سنة ١٢٣٠ هـ بزينة البلد ووقود القناديل، والسهر ثلاثة أيام بلياليهـــا ...، ويذكر أن الســـلاطين العثمانيين كانوا يحتفلون بالمولد النبوي في أحد الجوامع الكبيرة بالأســـتانة حســـب اختيار الســـلطان، فلما تولى السلطان عبد الحميد في سنة ١٢٩٣ هـــ – ١٨٧٦ م، قَصَر حفلاتـــه التقليدية على الجامع الحميدي؛ فعندما تحين الليلة الثانية عشـــرة من ربيع الأول يحضـــر إلى الجامع عظمـــاء الدولة وكبراؤهـــا من الأمراء والعلماء والوزراء، وجميعهم بالملابس الرســـمية والكســـاوي التشـــريفية وعلى صدورهم النياشـــين بأنواعها، ثم يقفون في صفوف متراصة، ونظام تام، انتظاراً لتشـــريف السلطان، وفي هذه الليلة يخرج السلطان من قصر يلديز ممتطياً جواداً مطهماً بســـرج مـــن الذهب الخالص؛ وقد حـــفَّ الموكب به، ورفعت على رأسه الأعلام، ويسير وسط الجماهير المحتشدة، حتى يصل إلى الجامع؛ فيبدأ في رسوم المولد وفِقْراته، حتى تنتهي فيعود إلى قصره.

وكذلك كان ينـــادى للاحتفال بالمولد كل ســـنة فى عهد محمد علي وأولاده وأحفاده الذين استمروا على رعاية شؤون المولد، وإحياء الاحتفال به طوال سِنِيِّ حكمهم، مع أن غالبهم كان حرباً على الإســـلام، وكان الواجب عليهم وعلى من حام

(١) خطط المقريزي: (١/٤٣٢).
(٢) دمعة على التوحيد: ص ١٧٨.

حولهـــم من العلماء العمل على رفع رايـــة الدين وأن يحكموا بمـــا أنزل الله، وأن يعلنوا الجهاد والاســـتنفار ضد الاحتلال الإنجليزي لتحرير البلاد والعباد.

يذكر صاحب (الخطط التوفيقية) اهتمام الدولة المصرية في عهد خديويها توفيق بالمولد النبوي وبالأسرة البكرية المعنية بشؤون المولد، والمختصة بإقامته، فيقول: وللسادة البكرية في ظـــل الدولة المحمـدية العلـوية مـــن العناية به في كل عـام ما تتحدث بزائد شـــرفه الركبان ويفتخر به أهل الزمان على غيره من ســـائر الأزمان، لا سيما في عهد الحضرة الفخيمة الخديوية، وعصر الطلعـــة المهيبة التوفيقية؛ فإنه وصل فيها الاحتفال بأمر المولد النبوي الشـــريف إلى حدِّه الأعلى، وبلغ الاعتناء بعلوِّ شـــأنه المبلغ الأعلى؛ وذلك أنه في أوائل العشرة الأخيرة من شـــهر صفر الخير من كل عـــام تُصنَع بمنزلهم مأدبة فاخرة يدعـــى إليها كافة مشـــايخ الطرق والأضرحة والتكايا والوجوه والأعيان والذوات...)[1].

رابعاً: الاحتلال واستغلال المولد:

من الملاحظـــات الجديرة بأن نقف أمامهـــا كثيراً، هي حالة الانتعاش الكبير التـــى تصيب الفِرَق المنحرفة فى ظل الاحتـــلال: كالصوفية والشـــيعة، ولا يختلـــف اثنان في أن هذه الفـــرق هي المرتع الخصب الذي يرتـــع فيه الاحتلال، والذي يستطيع من خلاله أن يتمكن من البلاد والعباد؛ ولقد ســـاهمت هذه الطرق بمنتهى الإخلاص فـــي هذا المجال. لقـــد أدرك الإنجليز أن الطرق الصوفية تلعـــب دوراً مهماً من خلال مزاولة أنشـــطتها بين الطبقة العامة من الشعب؛ فالصوفية بدعوتها الظاهرية إلى الزهد وترك مباهج الحياة والانصراف عن الدنيا، يمكن أن تضفي الصبغة الدينية على موقف الخنوع والخضوع للمحتـــل الأجنبي بخلفيات قَدَرية اتكالية استســـلامية؛ ولهذا حرصت سلطات الاحتلال في مصر وغيرها على إطلاق يد الطرق الصوفية في ممارســـة أنشطتها، وقد ســـاعد على ذلك سيطرة سلطات الاحتلال على وزارة الداخلية مما مكَّنها من السيطرة على تلك الطرق ومعرفة تحركاتها وأســـاليبها وتوجيهها إلـــى الوجهة التي تضمن للمحتل خدمات أكثر.

(١) الانحرافات العقدية والعلمية: (ص ٣٨٧).

(استـــمر هذا حتى بعد ســـقوط الدولة العثمانية؛ حيث احتضنت ســـلطات الاحتلال الأجنبي الطـــرق الصوفية في البلاد التي بســـطت سلطانها عليها. وعمل بعض أولئك على رد الجميل للمحتلين؛ فكانوا يضفون الشـــرعية على وجودهم ويســـوِّغون للناس بقاءهم، ووصل الأمر إلى أن بعض مشايخ الصوفية في مصر قاموا بجمـــع توقيعات أثناء ثورة ١٩١٩م تطالب ببقاء الإنجليز في مصر! وكان من هؤلاء شيخ الطريقة السمانية: محمد إبراهيم الجمل)[2].

يذكر الجبرتي أن نابليون بونابرت سأل الشيخ البكري عن عـــدم إقامة المولد النبوي بعد احتلال القاهرة، فاعتذر الشـــيخ البكري بتعطيل الأمور، وتوقف الأحوال، فلم يقبل نابليـــون بذلك، وقال: لا بد من ذلك، وأعطاه ثلاثمائة ريال فرنسي معاونة منه في إقامة هذا المولد، وأمر بتزيين البلد كالعادة، واجتمع الفرنســـيون يوم المولـــد، ولعبوا ميداينهم، وضربـــوا طبولهم ودبادبهم. وقـــد كان نابليون يواظب على حضور المولد النبوي بنفســـه. وكما أمر الفرنسيون بإقامة المولـــد النبوي، بل كانـــوا يجبرون النـــاس ويقهرونهم على الاحتفـــال بهذه الموالد، ويغرِّمون من يأبـــى أن يحتفل بها، ويسمِّرون دكانه.

إن المرء ليتساءل عن اهتمام الفرنسيين بإعادة هذه الموالد المبتدَعة، وقَهْـــر الناس على الاحتفال بهـــا، ودعمِها بالمال. يجيبنا الجبرتي على هذا التســـاؤل بما رآه الفرنســـيون في هذه الموالد (من الخروج عن الشرائع، واجتماع النساء، واتباع الشهوات والتلاهي وفِعْل المحرمات... لقد أدرك الفرنسيون ما يقع بسبب هذه الموالد من سلبيات، وما تستنفده من جهود وأموال، وتشـــغله من أوقات وتفكير، وما في ذلك من صَرْف للناس عن جهاد المحتلين ومقاومتهم، وهو ما لم يدركه الكثير من العلماء ممن شـــجعوا تلك الموالد، أو حتى غضوا الطرف عنها... وكذلك أدركوا ما لتلك الموالد من مكانة عظيمة في حياة الناس؛ لذا ســـارعوا بإعادتها؛ حتـــى يلهوا الناس بها، وتعود الأمور إلى مجاريها، وكأن شيئاً لم يحدث، ويغلقوا على أنفسهم باباً واسعاً من أبواب الثورة)[3].

(٢) دمعة على التوحيد: ص ٢٠٤.

(٣) الإنحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين: (ص ٣٧٩ - ٣٨٢).

خامساً: استغلال المولد في العصر الحاضر:

تمثل قضية المولد النبوي أحد أهم المرتكزات التي تركِّز عليها الصوفية في الترويج لأفكارها على المستوى الشعبي وتكتسب بها زَخَماً إعلامياً وسياسياً، ومن هنا كان الاحتفال بها لوناً من ألوان الظهور بالمظهر الشرعي المتلبِّس بمحبة النبي ﷺ، خاصة بعد أن نجحت الاتجاهات التجديدية في الحد من ظاهرة الاحتفال بموالد أصحاب الأضرحة، وانصراف قِطاع من الناس عن تلك الموالد بعد توفُّر ما يرغبون فيه من متع وشهوات بوسائل عديدة ومتاحة. من هنا يأتي التركيز على الاحتفال بالمولد النبوي كمدخل للاحتفال بموالد الأولياء المنسوبين - حقيقة أو زوراً - إلى آل البيت.

وإذا كانت العلاقة بين الصوفية والساسة هي علاقة تبادل منفعة، ففي الوقت الذي تحاول فيه الحكومات استغلال الصوفية لتحقيق مآربها، تحاول الصوفية أيضاً أن تتكسب من هذه العلاقة، بل هي المستفيد الأكبر من هذه العلاقة.

يقول الدكتور عمار حسن: «الفترة الأخيرة في مصر ظهر جلياً تقرُّب الحكومة من المتصوفة وتقرُّب المتصوفة من الحكومة، بل السعي من الطرفين للتقارب؛ فقد وفَّرت الظروف الملائمة للتحالف ضد الجماعات الإسلامية أمام الرأي العام؛ باعتبارها طرحاً دينياً له مكانته عند المصريين؛ بينما هي تحتمي بالنظام ضد ممارسات الجماعات السلفية التي ترى تحريم رَفْع القباب على القبور وتحريم الطواف بها وعبادتها، والتي تتعيش الجماعات الصوفية على بثِّها بين الناس، والتي لولاها لتقوَّض ركن ركين من أركان التصوف، ومن هنا فقد حرصت السلطة السياسية على حضور الموالد والاحتفالات الصوفية، بل صار شيخ مشايخ الصوفية (أبو الوفا التفتازاني) عضواً في الحزب الحاكم ورئيساً لعدة لجان داخل جهاز الدولة، بل حرص رئيس الدولة بنفسه على الصلاة في مساجد الأولياء، مثل: الحسين والسيد البدوي»[1].

ويظهر هذا الاستغلال في الاحتفال بالمولد النبوي؛ حيث كانت وزارة الأوقاف ترعى الاحتفال السنوي الذي كان يحضره الملك في أيام الملكية، ثم أصبح يحضره الرؤساء في عهد الجمهورية، وفي العادة؛ فإن الملوك والرؤساء يلقون في هذا اليوم خطبة، كما يحضره شيخ الأزهر وعدد من الوزراء والشخصيات العامة، وتوزَّع فيه جوائز على الفائزين في (مسابقة تقام احتفالاً بالمولد النبوي) كما توزَّع فيه الجوائز التقديرية على بعض الحضور باسم: تكريم العلم والعلماء، كما تقام احتفالات في كافة المدن، ترعاها فِرَق من الشرطة. كما تحتفل إذاعة القرآن الكريم في مصر بالمولد على مدى شهر كامل، هو ربيع الأول. ومع أن كثيراً من البرامج لا غبار عليها إلا أن ارتباطها بموسم لم يُقِرُّه الشرع يبقى نقطة مؤاخذة، إضافة إلى بعض البرامج والفقرات التي لا تخلو من غلوٍّ في شخصه ﷺ[2].

أسباب الاستغلال السياسي لبدعة المولد:

من خلال العرض السابق لمظاهر وتاريخ الاحتفال بالمولد النبوي نلخِّص سريعاً الأسباب التي أدت إلى سعي الأطراف المختلفة لاستغلال هذا الاحتفال سياسياً:

أولاً: بالنسبة للشيعة العبيديين:

١ - نَشْر العقائد الشيعية من خلال التذرع بحب آل البيت والارتباط بهم. وهذا ما صنعه العبيديون من قَبْل، ويفعله أحفادهم والمتأثرون بهم في كثير من البلاد اليوم.

٢ - كَسْب ولاء الناس، والتعمية على تصرفاتهم القبيحة وكفرهم الشنيع.

٣ - نَشْر الفرقة بين صفوف المسلمين، وإبعادهم عن العقيدة الصافية.

٤ - إضعاف المسلمين باستنزاف خيراتهم، ونَشْر المنكرات والفواحش بينهم.

٥ - إشغال المسلمين عن مقاومة أعدائهم، وإلهائهم عن الجهاد في سبيل الله.

ثانياً: بالنسبة للعثمانيين:

١ - التقرب إلى الشعوب وضمان ولائهم.

٢ - إلهاء الناس عن التفكر في المظالم التي كان يمارسها الولاة الأتراك.

٣ - إضعاف شوكة المعارضين والمنافسين، كالمماليك في بعض الأوقات؛ فالاحتفال بهذه البدع يساعد على التفاف الشعب حول هؤلاء الولاة، وهو ما يزهدهم في المعارضين لهم، لا سيما إذا كانوا لا يهتمون بهذه الخرافات.

(١) نقض العرى.. رؤية في البديل الغربي للتيار السلفي، محمد بن عبد الله المقدي، مجلة البيان: عدد ٢٢٣.

(٢) حقوق النبي: ص ١٦٨.

٤ – إلقاء طابع الهيبة والتدين على الدولة العثمانية

ثالثاً: بالنسبة للأنظمة المعاصرة:

١ – تخدير الشعوب، والسيطرة عليها، وإشغالهم عن تنحية شرع الله عن الحكم والمطالبة به.

٢ – الدعاية السياسية والتأثير على الجماهير، وإعطاء انطباع بتدين الأنظمة وعدم عدائها للدين.

٣ – التعمية على بعض الممارسات والمظالم والفساد والإنحراف الغارقة فيه هذه الأنظمة؛ فبدلاً من أن ينشغل الإنسان المصري بالتفكير في ظروفه الاجتماعية والاقتصادية السيئة، وبدلاً من أن يفكر في فقره وبلائه، وبدلاً من أن يفكر في طريقة للخلاص من وضعه السيئ بالثورة على الحاكم؛ فإن الحاكم نفسه يعمل على شغل فكره من خلال تشجيعه للبدع والخرافات؛ فيجد عالمه وخلاصه في رحاب هذه الطقوس؛ وهكذا انشغل المصريون كلهم في هذه الحقبة من الزمن بالطرق الصوفية وتَرْكِهم الحكام)[١].

٤ – قتل روح الجهاد في الأمة، وتقديم البديل عن الدين الصحيح.

٥ – إرضاء أعداء الإسلام؛ حيث يقدمون لهم إسلاماً لا يعادي أحداً؛ ففي صيف (٢٠٠١م) شنت الحكومة اليمنية هجمة شرسة على جميع المعاهد الدينية؛ بحجة مكافحة الإرهاب؛ فقامت بإغلاقها عدا (دار المصطفى) بـ (تريم) وهي تتبنَّى النهج الصوفي.

٦ – كسب ودِّ الطرقيين واستمالتهم؛ حيث إنهم حَشْد قوي في أي انتخابات. يقول الباحث عمار علي حسن: (كانت الصوفية على رأس القوى الدينية التي استخدمها النظام المصري في تبرير وتدعيم سياساته؛ فحرص المسؤولون على حضور موالد الصوفية واحتفالاتها، وخاصة المولد النبوي ومولد الحسين والسيدة زينب والسيد البدوي[٢].

٧ – إعطاء الشرعية لهذه الأنظمة. ولا شك أن الشرعية الدينية للدول والأنظمة – مثلها مثل الشرعيات الأخرى (الشرعية التاريخية والدستورية والثورية) – تُعَدُّ إحدى أهم الدعائم التي تقوم عليها نُظُم الحكم، لا بد أن يدعمها؛ حتى ولو شكلاً وظاهراً، وهذا ما يستغله القبوريون.

٨ – ضرب الاتجاهات الدينية المعارضة لهم؛ فرغم إعلان السياسيين العلمانيين أن لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين؛ إلا أننا رأيناهم يدعمون القبوريين بانتهازية واضحة، باعتبارها مظهراً من مظاهر الدين، يمكن ضرب الصحوة الإسلامية به، وذلك بسحب البساط من تحت أرجلها باعتبار الدين أرضيتها التي تنطلق منها.

رابعاً: بالنسبة للمحتل الأجنبي: (بريطانيا وفرنسا من قَبْل وأمريكا حالياً): فبعد أن ورثت أمريكا الإمبراطورية البريطانية حاولت جاهدة أن تسيطر على العالم، وأن تكون هي القوة القطبية الوحيدة؛ لذا عملت على إسقاط وتفكيك الاتحاد السوفييتي، فلم يبقَ أمامها من عدو غير الإسلام؛ لذا هي تحاول جاهدة احتواء هذا المارد، لا سيما أن هناك اتجاهات تمثل نسبة كبيرة من المسلمين يسهل استمالتها، اتجاهات لها مشاريع سياسية خاصة، كالشيعة – مثلاً – حيث حاولت أمريكا تقديم الإسلام الشيعي كبديل عن الإسلام السُّني. وهناك اتجاهات ليس لها أي مشروع سياسي، بل العكس: إن تاريخها في تدعيم قوى الاحتلال ونصرته غير خافية على أحد وهي الصوفية، كما أسلفنا.

يظهر ذلك جلياً بعد صدور تقرير مركز (راند)[٣] الأخير عام (٢٠٠٧م)، والذي يحمل عنوان: (بناء شبكات من المسلمين المعتدلين في العالم الإسلامي)، والذي دعا إلى إعطاء الطرق الصوفية مساحة متزايدة من الأهمية، كما احتفظ للصوفية بأهميتها الاستراتيجية في التخطيط الأمريكي، باعتبارها أحد البدائل المتاحة أمام المخطط الأمريكي؛ لإزاحة التيارات الإسلامية وإحلال الصوفية محلها.

لذا سعت أمريكا وبكل جِدٍّ لكسب ولاء هذه الطرق، ومثال ذلك حِرْص سيدي العارف بالله (فرانسيس ريتشاردوني) السفير الأمريكي السابق في القاهرة على حضور الموالد

(١) نقض العرى.. رؤية في البديل الغربي للتيار السلفي، محمد بن عبد الله المقدي، مجلة البيان: عدد ٢٢٣ = بتصرف.

(٢) دمعة على التوحيد: ص ١٨٦.

(٣) هو تقرير يصدر عن مؤسسة راند RAND Corporation، وهي من المؤسسات التي تشارك في صناعة القرار السياسي الأمريكي. وتقاريرها التي تُصدرها ترسم خطةً للسياسة الأمريكية في التعامل مع الأحداث في العالم أجمع، ومنها منطقة ما يسمونها بـ: (الشرق الأوسط)، ومقرها في الولايات المتحدة، وبتمويل من مؤسسة (سميث ريتشاردسون) المحافِظَة. التقرير خرج في٢١٧ صفحة وقُسِّم إلى: ملخَّص للتقرير ومقدمة وتسعة فصول. واستغرق إعداده ٣ سنوات، وعُنْوِن للتقرير بـ: (بناء شبكات مسلمة معتدلة)، Building Moderate Muslim Networks، وهو عنوان يحملُ في ثناياه خططاً خطيرة جداً.

الدينية، وخصوصاً مولد البدوي.

واستقبال محافظ الغربية للسفير بالأناشيد الدينية، ومنها: طلع البدر... وهذا الأمر له دلالات ينبغي إمعان النظر فيها. ولا يعني ذلك: أن كل الطرق الصوفية على درجة واحدة من الولاء للمحتل، وزاد الحرص بعد ١١ سبتمبر؛ حيث ظهرت التيارات الجهادية كعدو حقيقي يمكن أن يقوِّض هيبة أمريكا، وكانت أهداف أمريكا من وراء استغلال المولد، كالتالي:

١ - إبراز الصوفية كبديل عن التيارات الأخرى، وأنها تمثِّل الإسلام الصحيح: ترتكز فكرة الاستبدال على وجود رغبة عامة وعارمة لدى الجماهير في التدين. وكان الحل أن ندع المسلمين يتدينون كما يريدون، لكن فَلْنقدم لهم نحن (التوليفة) المناسبة للتدين. وهذا الحل يكمن في: (المتصوفة الجدد) أمثال: علي الجفري وهشام القباني... وغيرهم.

٢ - محاربة فكرة الجهاد الإسلامي: والتي تُعَدُّ في رأيي أكبر ما يقضُّ مضاجع الأمريكان؛ عندما يرون انبعاث حركات المقاومة والجهاد في كل مكان؛ لذا يسعون إلى القضاء على حركات المقاومة في كل مكان، كما يحدث في فلسطين والعراق وأفغانستان والصومال وفي غيرها.

٣ - تمييع قضايا الولاء والبراء لدى المسلمين، وإبراز الأمريكان كمحبين للسلام، ومدافعين عن الإسلام الصحيح الذي يمثله الطرقيون.

٤ - استمالة الجهلاء وضعاف النفوس ليدوروا في فلك المخططات الأمريكية للسيطرة على العالم الإسلامي، والقضاء على أي محاولة للنهوض مرة أخرى.

٥ - تحييد أكبر عدد من المسلمين في قضايا الصراع المعاصر، والإيحاء بأن صراعهم مع الإرهاب وليس الإسلام، ولِمَ لا وهي تساعد التيارات الأكثر عدداً من المسلمين.

٦ - محاربة التيارات السياسية الإسلامية وإفشال مشاريعها للوصول إلى الحكم، وتدمير المنهج السياسي في الإسلام، وبيان أن الإسلام لا يصلح: لا للحكم ولا للسياسة، وأن المنهج الصحيح، هو في الانكباب على الموالد والشطح والخرافة التي تمثلها الصوفية.

وصلي اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

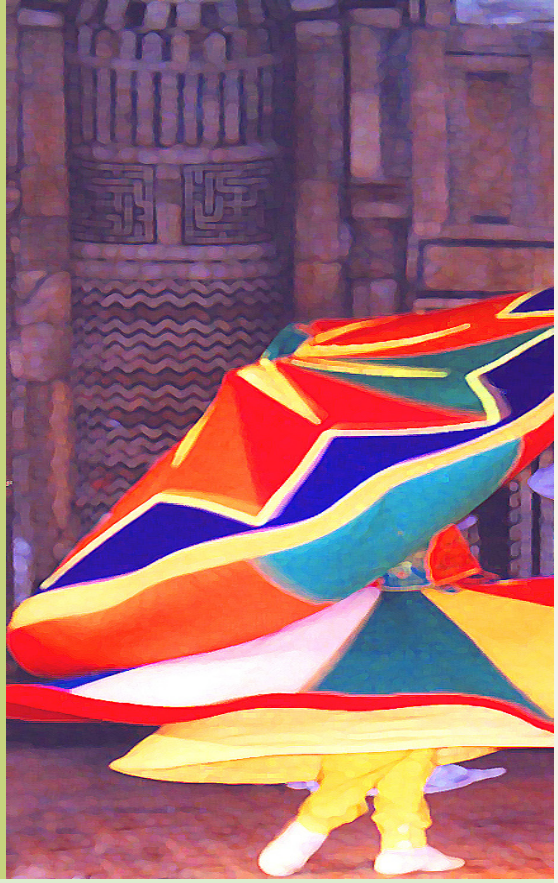

تمثل تمثل قضية المولد النبوي أحد أهم المرتكزات التي تركِّز عليها الصوفية في الترويج لأفكارها على المستوى الشعبي وتكتسب بها زَخَماً إعلامياً وسياسياً، ومن هنا كان الاحتفال بها لوناً من ألوان الظهور بالمظهر الشرعي المتلبِّس بمحبة النبي ﷺ، خاصة بعد أن نجحت الاتجاهات التجديدية في الحد من ظاهرة الاحتفال بموالد أصحاب الأضرحة، وانصراف قطاع من الناس عن تلك الموالد بعد توفُّر ما يرغبون فيه من متع وشهوات بوسائل عديدة ومتاحة. من هنا يأتي التركيز على الاحتفال بالمولد النبوي كمدخل للاحتفال بموالد الأولياء المنسوبين - حقيقة أو زوراً - إلى آل البيت.

المملكة العربية السعودية
وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد
الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم
بمحافظة المندق
ترخيص رقم (١٢/ ٢)

مشروع وقف القرآن بمكة المكرمة
الصدقة الجارية

رؤيتنا

نموذج متميز لحفظ كتاب الله من خلال
برامج احترافية وشراكات إستراتيجية فاعلة

قيم الجمعية

١- القدوة الحسنة
٢- الإبداع والإبتكار
٣- إتقان العمل
٤- العمل بروح الفريق
٥- القران منهج هداية

صدقة لك ولوالديك
ولشخص عزيز عليك

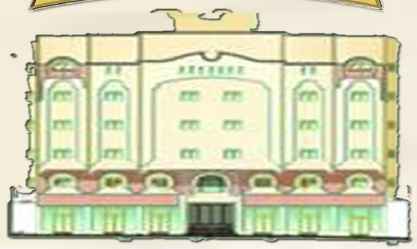

للاستفسار ٠٥٠٥٧٨٢٩٠٣ ٠٧٧٥١١٩٧٢

توجه التبرعات على حساب الصدقة الجارية | مصرف الراجحي بالمندق ٣٥٣٦٠٨١٠١٩٩٩٩٣ | البنك الأهلي بالمندق ٣٠٨٤٨١٨٢٠٠٠٣٠٤

برعاية العلي لصيانة السيارات

رقم الهاتف : الباحة ٧٢٥٧٣٣٣ ـ الخميس ٢٣٨٣٠١٠

هل يُستعان بالجن؟

د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف(*)
www.alabdulltif.net

ساق القاضي عياض ترجمة لأبي خارجة عنبسة الغافقي (ت ٢١٠هـ)، وحكى عجائبه وأخباره، ومنها أنه قيل عن عنبسة: «كان عنده عِلْم الزجر[١]، وبعضهم يقول: بل من خدمة الجن، ومنهم من يزعم أنه كان صالحاً يُجري الله الحق على لسانه؛ فينطق به»[٢] ثم تعقَّب ذلك القاضي قائلاً: «وأنا بريء من عُهدة هذه التأويلات إلا الأخيرة؛ فالحديث الصريح يحتج لها»[٣]؛ فالقاضي عياض يبرأ من عِلْم بخدمة الجان، كما يبرأ من زَجْر الطير على سبيل التشاؤم.

ولما ترجم الحافظ ابن رجب لأحمد بن عبد الرحمن المقدسي (ت ٦٩٧هـ) وما لديه من غرائب، فقال: «برع في معرفة تعبير الرؤيا، وانفرد بذلك؛ بحيث لم يشارَك فيه، وكان الناس يتحيَّرون منه إذا عَبَر الرؤيا، وله في ذلك حكايات كثيرة غريبة مشهورة، وهي من أعجب العجب، وكان جماعة من العلماء يقولون: إن له رئيّاً من الجن، وكان مع ذلك كثير العبادة، لكن يقال: إنه كان يتعبَّد على وجوه غير مشروعة، كالصلاة في وقت النهي! وذكر عنه بعض أقاربه أنه رأى عنده شيئاً من آثار الجن»[٤].

وأورد الشوكاني عجائب العباس المغربي الذي قَدِم صنعاء اليمن سنة ١٢٠٠هـ؛ فكان إذا احتاج إلى دراهم، أخذ بياضاً، وقطَّعه على حجم تلك الدراهم، ثم يجعلها في وعاء، ويتلو عليها (!) فتنقلب دراهم! وذلك بواسطة «خادم من الجن»[٥].

هذه الغرائب لو علم بها بعض الرقاة لتشبثوا بها في هذا التوسع المريب في الاستعانة بالجن في التداوي وحَلِّ السحر والعين وأشباهه، إضافة إلى تعويلهم على بعض فتاوى للمعاصرين، وما قد يفهمونه من كلام لابن تيمية في كتابه: «النبوات» وغيره.

إن هذه النازلة تستدعي جملة من الوقفات، منها:

- أن الاستعانة بالجن لم تكن من هدي النبي ﷺ، ولا سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، رضي الله عنهم.

قال ابن تيمية: «لم يستخدم (النبي ﷺ) الجن أصلاً، لكن دعاهم إلى الإيمان بالله، وقرأ عليهم القرآن، وبلَّغهم الرسالة، وبايعهم، كما فعل بالإنس»[٦].

كما أنه لم يُنقل عن جمهور الصحابة (الاستعانة بالجن في التداوي وحَلِّ السحر والعين) وهم أدرى الناس وأعمق هذه الأمة علماً وأتمِّها إيماناً؛ ولو أنهم فعلوا ذلك أو قالوه لنُقِل عنهم؛ إذ إن ذلك مما تتوفر الدواعي لنقله؛ فدلَّ ذلك على أن مجانبة الاستعانة بالجن هو السُّنة والصراط المستقيم.

- أن نبينا محمداً ﷺ كان يتصرف في الجن كتصرفه في الإنس، تصرُّف عبدٍ رسولٍ، والواجب على المسلم أن يستعمل في الجن ما يستعمله في الإنس: من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله كما شرع الله ورسوله... ولم يتصرَّف فيهم كتصرف سليمان بن داود - عليهما السلام - إذ تصرُّف سليمان بالجن هو تصرف ملكي؛ إذ كان رسولاً مَلِكاً، وكان نبينا محمد ﷺ عبداً رسولاً؛ والعبد الرسول أفضل من الملِك الرسول[٧]

والجن لا تخضع بإطلاق لأحد من الناس، ولو خدمتْ أحداً؛ فلا يكون إلا بمعاوضة واستمتاع، كما بيَّنه ابن تيمية بقوله: «وليس أحد من الناس تطيعه الجن طاعة مطلقة، كما كانت تطيع سليمان بتسخير من الله وأَمْرٍ منه من غير معاوضة. قال - تعالى -: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٢ - ١٣].

والذي أعطاه الله لسليمان - عليه السلام - خارج عن

(*) أستاذ مشارك في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.

(١) الزجر: هو ضرب من التطير والتشاؤم.

(٢) ترتيب المدارك: ١/ ٢٨٢.

(٣) ترتيب المدارك: ١/ ٢٨٢.

(٤) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٣٦، ٣٣٧ = باختصار.

(٥) انظر البدر الطالع: ١/ ٣١٤.

(٦) الفرقان بين الحق والباطل، (مجموع الفتاوى: ١٣/ ٨٩).

(٧) انظر إيضاح الدلالة لابن تيمية، (مجموع الفتاوى: ١٩/ ٣٩، ٥١).

الجن لا تخضع بإطلاق لأحد من الناس، ولو خدمتْ أحداً؛ فلا يكون إلا بمعاوضة واستمتاع، كما بيَّنه ابن تيمية بقوله: (وليس أحد من الناس تطيعه الجن طاعة مطلقة، كما كانت تطيع سليمان بتسخير من الله وأمرٍ منه من غير معاوضة)

قدرة الجن والإنس؛ فإنه لا يستطيع أحد أن يُسخِّر الجن مطلقاً لطاعته، ولا يستخدم أحداً منهم؛ إلا بمعاوضة: إما عمل مذموم تحبُّه الجن، وإما قول تخضع له الشياطين، كالعزائم[1]؛ فإن كل جني فوقه من هو أعلى منه؛ فقد يخدمون بعض الناس طاعة لمن فوقهم»[2].

والمقصود أن الاستعانة بالجن واستخدامهم مطلقاً ليست من الشرع المحمدي، ولا من التصرف القدري الذي كان آية لسليمان، عليه السلام؛ فلا هي مشروعة ولا مقدورة.

- إذا كان الأصل في سؤال الناس التحريم، والأحاديث في النهي عن ذلك متواترة عن رسول الله ﷺ؛ لما فيه من التفات إلى غير الله - تعالى - وافتقار إلى البشر، وهذا نوع شرك[3]؛ فكيف بسؤال الجن الذي لا ينفك عن مفاسد متحققة ومتوقَّعة؟ ولا سيما أن للجن من القدرات والتصرفات ما ليس للبشر، وهو ما يزيد البلاء، ويُعظِم الفتنة، «والجن أعظم شيطنة، وأقل عقلاً، وأكثر جهلاً»[4] و «والإنس أعقل وأصدق وأعدل وأوفى بالعهد، والجن أجهل وأكذب وأظلم وأغدر»[5].

- أن الاستعانة بالجن ليست سبباً ظاهراً في حصول المطلوب؛ ولذا أمر الإمام أحمد بن حنبل بترك ذلك، كما جاء في آخر كتاب الأحكام السلطانية للقاضي أبي يعلي: «وقد قال أحمد في رواية الفرج بن علي الصباح البرزاطي: في الرجل يزعم أنه يعالج المجنون من الصراع بالرقى والعزائم، ويزعم أنه يخاطب الجن ويكلِّمهم، ومنهم من يخدمه ويحدِّثه، فقال أحمد: «ما أحبُّ لأحد أن يفعله، وتَرْكه أحبُّ إليَّ»[6].

ولو كان سبباً، فإن مفاسده تربو على مصالحه، ومضرته أعظم من نفعه.

والاستعانة بهم هي التفات إلى من لا تُعرَف أحوالهم، ولا تُعرف أشخاصهم ولا عدالتهم؛ فهم مجهولو العين والحال، كما أن الاستعانة بالجن تفتح أبواباً من الشرور والبلايا، والشريعة قد جاءت بسدِّ الذرائع وحماية جَنَاب التوحيد، ومَنْع كل طريق يوصل إلى الشرك.

وقد جاءت فتوى اللجنة الدائمة بالسعودية بمنع الاستعانة بالجن مطلقاً[7]، وكذا منعه الشيخ ابن باز - رحمه الله - والشيخ صالح الفوزان، وغيرهما.

كما أن الاستعانة بالجن هي استعانة بالغائبين، والاستعانة الجائزة إنما تكون بحاضر حي قادر، بل إن هذه الاستعانة تحاكي الاستعاذة بالجن، وخاصة أن الاستعاذة والاستعانة متقاربة المعنى.

أورد الحافظ ابن كثير حكاية كروم الأنصار - رضي الله عنه - وفيها: أنه خرج مع أبيه من المدينة في حاجةٍ، وذلك أول ما ذُكِر رسول الله ﷺ بمكة، فآوانا المبيت إلى راعي غنم، فلما انتصف الليل جاء ذئب، فأخذ حَمَلاً من الغنم، فوثب الراعي، فقال: يا عامر الوادي جارك! فنادى منادٍ لا نراه يقول: يا سِرْحان[8] أرسله! فأتى الحَمَلُ يشتد[9] حتى دخل في الغنم لم تُصبه كدمة؛ فأنزل الله على رسوله ﷺ بمكة: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

قال ابن كثير: «وقد يكون هذا الذئب الذي أخذ الحَمَلَ (وهو ولد الشاة) كان جنيّاً حتى يُرْهب الإنسي ويخاف منه، ثم ردَّه عليه لما استجار به؛ ليضلَّه ويهينه ويخرجه عن دينه، والله أعلم»[10].

ونخلص إلى أن الاستعانة بالجن ليست سُنة مأثورة، ولا سبيل سلف الأمة الأوائل؛ فهي لا تنفك عن تعلُّقٍ والتفاتٍ ينافي تحقيق التوحيد، بل ربما أفضى إلى الشرك الصراح، إضافة إلى أن الاستعانة بالجن ليست سبباً ظاهراً معقولاً، وإنما هي تعويل على مجهول، وتشبث بمن لا يدري عن عدالته وصدقه؛ فهل بعد هذا يسوغ تقرير الاستعانة بالجن؟

(١) العزائم: من أنواع السحر.
(٢) النبوات: ٢/ ١٠١٤.
(٣) انظر: قاعدة جليلة لابن تيمية، ص ٥١، ٦٦، ومجموع الفتاوى: ٨/ ٥٣٨، ١٠/ ١٨٢، والرد على البكري لابن تيمية، ص ٣٤١.
(٤) إيضاح الدلالة، (مجموع الفتاوى: ١٩/ ٤٦).
(٥) النبوات: ٢/ ١٠١٥.
(٦) الأحكام السلطانية، ص ٣٠٨
(٧) انظر مجلة البيان، عدد (١٤١).
(٨) السِرْحان: الذئب.
(٩) يشتد: يُسرع.
(١٠) تفسير ابن كثير: ٨/ ٢٦٧، (ط دار الشعب).

بين حتمية الواقع وتغيير المنكر

عبد العزيز آل محبوب

لا شك أن معالم الدين اليوم تأخذ في الغربة، تلك الغربة التي نبأنا عنها النبي ﷺ؛ حيث قال: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء»(١). والغرباء هم: «الذين يَصلُحون عند فساد الناس»(٢). وهم: «الذين يُصلِحون ما أفسد الناس (من بعدي) من سنتي»(٣).

ومن أنباء الغربة أن طائفة من المؤمنين يظهرون وينتصرون، قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله». فما داموا على الحق فسيظهرون، وما داموا على الحق فلن يضرّهم من خذلهم ولا من خالفهم، بل يُعَدُّ كونهم على الحق من أبرز معطيات هذا الحديث.

(١-٢) حديث واحد رواه الطبراني.
(٣) رواه الترمذي (جامع الأصول لابن الأثير).

ولا يكون فرد أو طائفة من الأمة على الحق في جهادهم ودعوتهم؛ إلا باتباع سبيل رسول الله ﷺ في ذلك: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، وسبيل صالح سلف الأمة من الصحابة والتابعين ومَنْ تبعهم بإحسان: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

ومن أهم معالم المنهج النبوي في الدعوة إلى الله: تغيير المنكر. ولا يُعذَر أحدٌ في ذلك؛ كما جاء في الحديث: «من رأى منكم منكراً، فليغيره». وإنما الإعذار يكون في النزول عن مرتبة من مراتب الإنكار إلى مرتبة أقل منها لتعذُّر الاستطاعة. روى مسلم في صحيحه، فقال: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا وَكِيعٌ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ قَيْسِ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ: أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالْخُطْبَةِ يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلَاةِ مَرْوَانُ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ، فَقَالَ الصَّلَاةُ قَبْلَ الْخُطْبَةِ. فَقَالَ: قَدْ تُرِكَ مَا هُنَالِكَ. فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ: أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ. سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ. وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ».

هذه الحادثة حوت مرتبة الإنكار باللسان من الرجل ومن أبي سعيد؛ حيث لم يَقْدِرا على التغيير باليد. وَفِقْه المسألة أن التغيير باليد واللسان واجب على من قَدَر عليهما؛ أما التغيير بالقلب فواجب عينيٌّ، «وذلك أضعف الإيمان».

لقد بُلينا في هذه الحقبة من الزمان بتعليل تَرْك التغيير والإنكار بكون هذا المنكر أصبح واقعاً وأنه موجود شئنا أم أَبَينا... وهذه لغة المهزومين من الأمة، ويظهر عليها جلياً الصبغة اللغوية التي يؤمن بها الضعفاء من الساسة. والناس على دين ملوكهم.

وهذه الطريقة هي خلاف منهج الرسول ﷺ؛ فلقد بُعث الرسول ﷺ وفي المسجد الحرام الكثير من الأصنام التي اتخذها الناس أنداداً من دون الله (رؤساؤهم وعوامهم)؛ ولم يتعامل معها الرسول ﷺ على أنها أمر واقع، ولم يكن ﷺ يؤمن بحتمية الواقع، بل صدع بالتوحيد ونَبْذِ الأصنام ونَبْذِ كل ما يخالف أمر الله. وكان هذا الأمر من الوضوح بمكان لدى السفراء والرسل الذين يحدِّثون الناس عن طبيعة دعوتهم. وما هي إلا سنوات قليلة في عمر الأمم، وإذا ببوصلة التمكين يتغير اتجاهها، وإذا بالواقع (الحتمي) يتغير، بل ينقلب رأساً على عقب، وتصبح الجزيرة العربية جزيرةَ الإسلام.

إن لدينا رصيداً، هو أعمق من كل معطيات الأحداث، وهو: رصيد الإيمان والثقة بتأييد الله. يقول - تعالى -: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]، ويقول - سبحانه -: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢]، ويقول أيضاً: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، ويقول كذلك: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، ويقول: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]. إن التغيير عمل دؤوب يَعْقُبه فتح من الله.

في القرن الثالث الهجري حلَّت على الأمة واقعة القول بخلق القرآن، وامتُحن الناس في ذلك بَلْهَ العلماءَ؛ حتى ترخَّص مَن ترخَّص وتأوَّل مَن تأوَّل. حينها كان الواقع بئيساً؛ فلم يكن ذلك ليبرر لأحمد بن حنبل الشيباني أن يرضى بالأمر الواقع وأن يتكيف معه ويترخَّص؛ كلاَّ! وهو السلفي الصرف، بل صدع بتغيير هذا المنكر بلسانه أمام أعلى سلطة وقال: القرآن كلام الله مَنَزَّل ليس بمخلوق.

إن المهزومين من الأمة مسكونون بـ (حتمية الواقع). وأهل المنهج الحق لا يرضون بغير: «من رأى منكم منكراً فليغيره».

إن المهزومين يحدِّثون الناس عن وَهْم ينعتونه بـ: (ثقافة المناعة) وأهل المنهج الحق يسيرون بخطىً واثقة في طريق المدافعة.

لقد ضُرب وجُلد وحُمل على الدواب تنكيلاً، وأهدر أئمةُ المعتزلة دمه... وما كان ذلك ليصده عن التغيير، وتوالى على تعذيبه ومحاولة ثنيه عن قوله ثلاثة خلفاء: المأمون والمعتصم والواثق؛ فصبر على (فتواه) حتى فتح الله عليه بتولِّي الخليفة المتوكل؛ حيث نصر السُّنة وأهلها وقمع البدعة ورأسها.

يا تُرى! ماذا لو رضي أحمد بن حنبل بالواقع؟ كم سيكون من الوبال الذي سيجرُّه على الأمة؟ حاشاه. وهل تُراه سيكون إماماً لأهل السُّنة والجماعة؟

وفي القرن الثاني عشر الهجري بلغت الجزيرة مَبْلغها من الشرك العظيم ألواناً وأشكالاً، تسنده قوىً طاغية: من رؤساء العشائر والقبائل، ومن إقرار العلماء له؛ غير أن ذلك لم يكن ليثني محمد بن عبد الوهاب التميمي عن الصدع بالتوحيد وتجديد معالم الدين، وهو ما أوقعه في نزاعات طويلة وحروب ومعارك... أَمَا كان يسعه ما وسع العلماء في زمانه من الصمت على الشركيات؟ أَرَضي بالأمر الواقع؟

ما ذا لو قال: ينبغي أن نعزز لدينا ثقافة المناعة دون أن نهدم معالم الشرك من الأضرحة والمشاهد وغيرها؟

كل ذلك يُعدُّ لدى الإمام المجدد جبرية مُزجَت بإرجاء، عياذاً بالله؛ لذلك ما كان له إلا أن يسعى للتغيير الجذري بخطىً متدرجة، جمعت بين التعليم والتربية والجهاد والسياسة؛ فرحمه الله رحمة واسعة.

وهكذا دَأْب المجددين والمصلحين. ولا يكون النصر والتمكين حليفين إلا لمن: ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١] ولم يخضعوا للواقع ويعتقدوا بالجبر في مسائل الإنكار.

إن المهزومين من الأمة مسكونون بـ (حتمية الواقع). وأهل المنهج الحق لا يرضون بغير: «من رأى منكم منكراً فليغيره».

إن المهزومين يحدِّثون الناس عن وَهْم ينعتونه بـ: (ثقافة المناعة) وأهل المنهج الحق يسيرون بخطىً واثقة في طريق المدافعة.

وإلى الله المشتكى.

مواجهة المجتمع فيما يخالف الدين

د. أحمد إبراهيم خضر(*)

يعود فساد جانب كبير من حياتنا الاجتماعية اليوم إلى فكرة ليست بالجديدة، بل أُعيد بَذْرها من جديد مع الاحتكاك بالثقافة الغربية، ولكن في ثوب علمي؛ فآتت ثمارها على امتداد الزمان والمكان.

وقِوام هذه الفكرة: «أنّ على المجتمع أن يضع أخلاقاً لنفسه، وأن ينطلق من معطيات الحاضر؛ فالمجتمع هو غاية السلوك الأخلاقي، وهو الكائن الأخلاقي الأعظم، والسلطة الأخلاقية تصدر من المجتمع، والخير الأسمى لسائر الناس هو المجتمع؛ فالمجتمع هو غاية الغايات، وهو المشرِّع الوحيد للقيم الذي يخلقها، وهو الذي يحافظ عليها، وهو الحارس الأمين لخير وفضائل الناس».

الهدف الأساس لهذه الفكرة، هو: إحلال «المجتمع» محل «الله». وبمعنى واضح وصريح: التأكيد على أن: «الله هو المجتمع»، وأن: «الله والمجتمع شيء واحد».

ولكن: أين مكان الدين والحقائق الدينية مع هذه الفكرة؟ يقول عالم الاجتماع اليهودي الشهير «إيميل دوركايم» في ذلك: «المجتمع هو الكائن المطلق، والله نفسه يتجلى في روح الجماعة؛ لأنه قوة متسامية، وقيمة متعالية تُحقِّق غايات إنسانية ومُثُلاً جمعية. أما حقائق الدين فسوف تصدر من المجتمع، على اعتبار أنها مسائل اجتماعية؛ فالمجتمع هو الذي يفرز الدين وليس هناك من كائن له سموٌّ، أو خلود، أو قداسة؛ فكل ذلك ورد إلينا من العالَم الاجتماعي».

ويحلل «دوركايم» فكرته هذه، فيقول: «ما دمنا قد حرَّمنا على أنفسنا الاستعانة بالأفكار الدينية، فلن نجد كائناً معنوياً يسمو على الأفراد ويمكن ملاحظته تجريبياً؛ سوى ذلك الذي يكوِّن الأفراد عند اجتماعهم، وأعني به: «المجتمع».

إن الكائن الذي تُوجِّه الأخلاقُ إرادتنا نحوه، ونجعل منه هدفاً أسمى لسلوكياتنا لن يتعدى واحداً من اثنين: إما الكائن الإلهي أو الكائن الاجتماعي.

أما الفَرْض الأول، فنستبعده على أساس أنه بعيد عن متناول العلم. ولن يبقى لنا إلا الكائن الثاني، وهو: الكائن الاجتماعي؛ فهو الذي يفي بكل احتياجاتنا ويحقق لنا كل أمانينا؛ فما من شيء يصلح هدفاً للنشاط الأخلاقي سوى المجتمع، إنه النموذج، وهو المصدر لكل سلطة أخلاقية».

إن «تأليه المجتمع وإحلالَه محل الله»، هو الغاية التي يسعى إليها هذا العالم اليهودي، الذي هام مثقفونا به وأعطوه من القداسة والتأليه ما لم يعطوه لغيره، وكُتِبَت فيه العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه، وما زالت أفكاره وآراؤه تدرَّس في مدارسنا وجامعاتنا (بما فيها الإسلامية) حتى يومنا هذا.

لقد أثمرت هذه الفكرة بالفعل؛ فأصبح الناس يخشون ويهابون ويرجون المجتمع أكثر من رجائهم وخوفهم وخشيتهم من الله، تعالى.

لنأخذ مظهراً واحداً من مظاهر حياتنا الاجتماعية، لنرى كيف أن «المجتمع» قد أصبح الحاكم المطلق في توجيه مسار سلوكياتنا وليس الدين.

الزواج مثلاً، بغضِّ النظر عن مظاهره الشكلية، مثل: عقد الأنكحة في المساجد، والقيام ببعض المراسم التي توهم بأنها ذات طابع ديني: كافتتاح حفلات العرس بإنشاد آيات الله الحسنى مع استخدام المعازف أو بدونها، هذا الزواج تحكمه عادات المجتمع وتقاليده التي تخالف في معظمها

(*) دكتوراه في علم الاجتماع العسكري، أستاذ مشارك سابق بجامعات: القاهرة، وأم درمان الإسلامية، والأزهر، والملك عبد العزيز.

أحكام الشرع؛ فمن ذلك:

- اختيار العريس لعروسه أو العكس، لا تحكمه قواعد الدين؛ إنما تحكمه قواعد المجتمع.

- تساهل الناس في الخطبة على خطبة الآخرين، أصبح أمراً عادياً يقرُّه المجتمع وَفْق مبدأ المصلحة والمنفعة، ولكن الدين لا يقرُّه.

- الاعتقاد بضرورة الحب قبل الزواج، أمر شائع بين الناس وتؤيده الأسرة. وذلك في الوقت الذي قيد فيه الدين العلاقة بين الجنسين قبل الزواج.

- تتساهل الأسرة كثيراً في مجريات العلاقة بين الخطيب وخطيبته؛ حتى ولو وصلت إلى حد أبعد من النظر المسموح به: كاللمس والتقبيل.

- الاختلاط بين الأهل والأقارب والأصدقاء (رجالاً ونساءً)، أصبح أمراً ليس بالمستهجن بين الناس؛ رغم أن الدين وضع له ضوابط دقيقة وحذَّر منه، وبصفة خاصة بين الأقارب، كما جاء في قوله ﷺ: «الحَمُوُ الموت»[1].

- حفلات العرس المختلطة واستخدام المعازف وآلات الموسيقى وخروج العروس على الحاضرين في قمة زينتها وثوب زفافها الملتصق بجسدها، أصبح من لوازم الحياة الاجتماعية اليوم؛ رغم أن الدين لا يقر ذلك.

وهناك العديد من الأمثلة الأخرى التي لا حصر لها تبيِّن أن اليد الطولى في الحياة الاجتماعية هي للمجتمع وليس للدين.

هذا هو الحال في مظهر واحد من مظاهر الحياة الاجتماعية، ناهيك عن مختلف المظاهر الأخرى التي تحكم العلاقات الاجتماعية في مختلف المجالات.

السؤال الوارد هنا: كيف يمكن مواجهة المجتمع في الأمور التي فيها مخالفة للدين؟

وضع الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه: (الفوائد) قاعدة جليلة في هذا الشأن. خلاصتها: «لا تستصعب مخالفة الناس والتحيز إلى الله ورسوله، ولو كنت وحدك؛ فإن الله معك، وأنت بعينه وحفظه لك. وهو - تعالى - يمتحن يقينك وصبرك». وتفاصيل هذه القاعدة كما تصورناها على النحو التالي:

١ - إذا كان الله ورسوله ﷺ في جانب، فاحذر أن تكون أنت في الجانب الآخر؛ فإن ذلك يُفْضِي إلى (المشاقَّة)، وهي: أن يكون الله ورسوله ﷺ في شِق وتختار أنت الشق الآخر. كما يُفْضِي ذلك أيضاً إلى (المحادَّة) وهي: أن يكون الله ورسوله ﷺ في حَدٍ، وتختار أنت الحد الآخر.

٢ - عليك ألا تستسهل المشاقة والمحادَّة في ذات الله، تعالى؛ فإن البدء فيها يجر إلى المزيد منها حتى يستفحل الأمر؛ فالقليل من الأمر يدعو إلى الكثير منه.

٣ - لِتعلَم أنك إذا اخترت الجانب الذي فيه الله ورسوله ﷺ؛ فإنك ستكون اخترت ما ينفعك في الدنيا والآخرة.

٤ - لا يهمك رؤية الناس لمن اختار ما يخالف جانبهم من أنه ناقص العقل، سيئ الاختيار لنفسه، أو حتى اتهامهم له بالجنون، وليكن عزاؤك في ذلك: أن هذا هو ميراث أعداء الرسل، وأنهم - صلوات الله وسلامه عليهم - اتُّهِموا بالسحر والكهانة والجنون.

٥ - إذا وطَّنت نفسك على اختيار جانب الله ورسوله ﷺ، فعليك أن تُسلِّح نفسك بالعلم الراسخ الذي جاء به الرسول ﷺ، وأن تعتبره يقيناً لا ريب فيه، وعليك أيضاً أن تتسلح بالصبر التام على من لامك وعاداك في ذلك.

٦ - عليك أن تعلم أن اختيارك لجانب الله ورسوله ﷺ صعب في بدايته، وأن تتوقع الصد والحرب من نفسك، وهواك، وطبعك، وشيطانك، وأهلك، وإخوانك، ومَنْ يعاشرونك؛ فإذا صبرت عليهم جميعاً جاءك العون من الله، وصار الصعب سهلاً، وتحوَّل من مشقة إلى لذة.

٧ - لا يستطيع الإقدام على هذا الأمر إلا من كانت لديه رغبة قوية في الله والدار الآخرة؛ بحيث تكون الآخرة أحب إليه من الدنيا، ويكون الله ورسوله ﷺ أحب إليه من سواهما.

٨ - لِتعلَم أن الله «رب شكور» وأنه لا بد من أن يذيقك لذة تحيُّزك إلى جانبه وجانب رسوله ﷺ؛ فيريك ـ تعالى ـ كرامة ذلك؛ فيشتد فرحك وسرورك وغبطتك، ويبتهج قلبك؛ فتفرح بتعويض الله لك ما تحملته من أَجْله. وسيقوي الله - تعالى - جندك، ويُضعِف عدوك، وسترى تحولاً في موقف من كان محارباً لك؛ فتراه يهابك، أو يسالمك، أو يساعدك، وعلى أقل الأحوال سيتركك وشأنك.

٩ - يلزمك في الثبات على هذا الأمر أن تتحرر من الطمع والفزع؛ فإذا اشتد هاجسهما، فلا تحدِّث نفسك بهما، وليكن سلاحك في مواجهة هذين العدوَّين (الطمع، والفزع): التوحيد، والتوكل، والثقة بالله، والإيمان بأنه لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يُذهِب السيئات إلا هو. وأن الأمر كله بيده، وليس لأحد معه شيء[2].

(١) رواه مسلم.

(٢) انظر كتابنا: «علماء الإجتماع وموقفهم من الإسلام»، المنتدى الإسلامي، لندن، ١٩٩٣م.

«أتدعون بعلاً؟!»

فيصل بن علي الكاملي

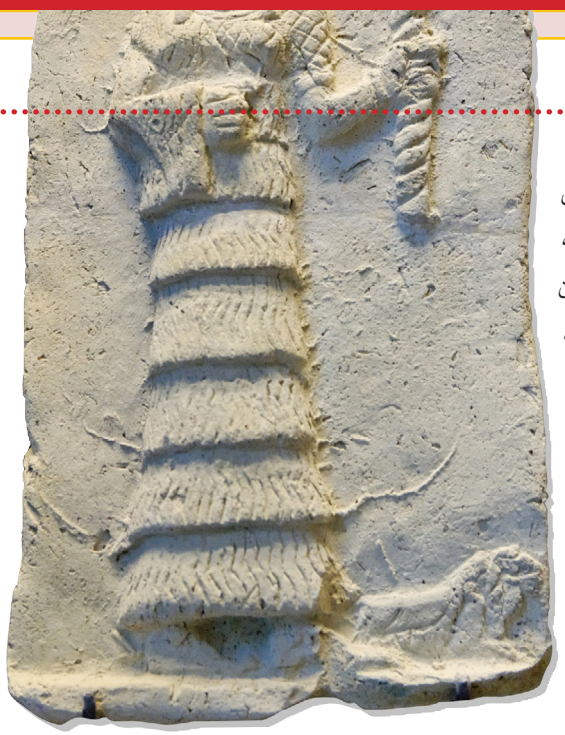

تعود عبادة «بعل» إلى حضارة من أقدم الحضارات في بلاد الرافدين، وهي: حضارة السومريين الذين عرفوه باسم: «تَمُّوز». وأصل هذه العبادة: أن الوثنيين منهم لَمَّا رأوا سلطان الشمس على بقية الأجرام وأن شعاعها يُكسِب الحياة دفأها والنباتات نماءها، كان ذلك داعياً لهم إلى عبادتها، لكن الشمس لا تبقى على حال؛ فهي تبدو وتغيب، كما أن سناها لا يلبث أن يهِنَ في نهاية «يونيو» (الانقلاب الصيفي)؛ ولا يبدأ يستعيد قواه إلا في نهاية «ديسمبر» (الانقلاب الشتوي)، فابتدعوا أسطورة «عشتار» و«بعل».

فعشتار «ملكة السماء» ترسل في منتصف الصيف ابنها وخليلها الإله الشمس «بعلاً» لخلاص الأرض من جدبها، لكن آلهة «العالم السفلي» تحبسه؛ فيندب بعلاً عَبَدَتُه في الشهر الذي يعقب موته (شهر يوليو «تموز») وتنزل الأم «عشتار» لتخلِّصه من أيديهم في الخامس والعشرين من شهر ديسمبر. وهكذا يعيد «بعلٌ» للأرض زينتها؛ فضعف الشمس هو موت بعل، واستعادتها بهاءها هو ميلاده.

لقيت هذه العبادة رواجاً بين الأمم؛ فامتدت إلى البابليين والفرس والكنعانيين والمصريين، بل حتى العرب؛ فقد عُرِف «بعل» بين العرب باسمه. أما عشتار فعُرِفت باسم: «عَشتر». ولا يُستبعَد أن تكون الجزيرة العربية منشأ هذه العبادة؛ فاسم «بعل» عربي أصيل بمعنى الرب والمالك كما أن في قصة الهدهد في القرآن الكريم إشارة صريحة إلى شيوع عبادة الشمس في قوم سبأ.

وهنا لطيفة ذكرها بعض العلماء، وهي: أن الهدهد لَمَّا كان رزقه متوقفاً على ما يخرجه الله من خبيء الأرض قال: ﴿**أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ**﴾ [النمل: ٢٥]. لكن عُبَّاد «بعل» (الشمس) – كما أشرت آنفاً – كانوا يؤمنون بأنه: هو الذي يُخرِج الخبء في الأرض بعد أن حُبس فيها، فيسحب وراءه خضرة الربيع؛ فهل كان استنكار الهدهد ردّاً على هذا المعتقد؟ الله أعلم.

انتقلت عبادة عشتار وبعل إلى بني إسرائيل من طريق الكنعانيين. «وَعَوَوْا وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى مِنْ أَوْثَانِ الشُّعُوبِ الْمُحِيطَةِ بِهِمْ، ... **وَعَبَدُوا الْبَعْلَ وَعَشْتَارُوثَ**» [سفر القضاة ٢: ١٠-١٣]. وتقدَّم إلياسُ – عليه السلام – يدعو إلى توحيد الله أمام ملك إسرائيل «أَخآب» و «أَنْبِيَاء (أي: كهنة) الْبَعْلِ الأَرْبَعِ مِئَةٍ وَالْخَمْسِينَ، وَأَنْبِيَاء عَشْتَارُوثَ الأَرْبَعِ مِئَةٍ» [الملوك الأول ١٨]، فكذبوه. قال – تعالى –: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٣ – ١٢٧].

استمرت عبادة بعل في بني إسرائيل، بل صارت هي العبادة الرسمية في الهيكل الثاني الذي بناه الفرس بفلسطين

برعاية من الملك الفارسي المجوسي «كورش» بعد أن دمَّره «بُختنَصَّر». وهكذا أصبح دين اليهود مزيجاً من وثنية البابليين والكنعانيين ووثنية المجوس؛ حتى إن كهنة الهيكل الثاني أصبحوا يُعرفون باسم: «الفريسيين» أي الفارسيين. وقد انتقلت طقوس عبادة «بعل» إلى بعض الفرق المنتسبة إلى الإسلام في فارس. في وصف هذه الطقوس يقول سِفر الملوك الأول: «وَظَلُّوا يَدْعُونَ بِاسْمِ الْبَعْلِ مِنَ الصَّبَاحِ إِلَى الظُّهْرِ قَائِلِينَ: «يَا بَعْلُ اسْتَجِبْ لَنَا»... وَيُمَزِّقُونَ أَجْسَادَهُمْ بِالسُّيُوفِ وَالرِّمَاحِ كَعَادَتِهِمْ، حَتَّى سَالَ مِنْهُمُ الدَّمُ» [الملوك الأول ١٨: ٢٦-٢٨].

من سدنة الهيكل الفريسيين نشأت اليهودية الحاخامية التي ابتدعت عقيدة القبَّالاه القائمة على عبادة الكواكب والتنجيم والسحر. وأصبح «بعل» يسمى «لوسيفر»؛ أي: مانح النور، ثم أصبح هذا الاسم مطابقاً للشيطان. وهذا الترادف بين عبادة الشمس (بعل) وعبادة الشيطان (لوسيفر) يذكِّرنا بقول النبي ﷺ كما في صحيح مسلم: «... فَإِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ فَأَمْسِكْ عَنِ الصَّلاَةِ، فَإِنَّهَا تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ»[1]. قال الإمام النووي معلقاً: ...، **وقيل: القرنان ناحيتا الرأس، وأنه على ظاهره. وهذا هو الأقوى. قالوا: ومعناه: أنه يدني رأسه إلى الشمس في هذه الأوقات؛ ليكون الساجدون لها من الكفار كالساجدين له في الصورة**»[2].

ثم من حنادس اليهودية الفريسية (الفارسية) ظهر في القرن الأول الميلادي «شاول الطرسوسي» الباطني الذي تَسمَّى باسم: (بولس) وأفسد دين النصارى. كان هذا الرجل فريسي الشريعة، كما قال عن نفسه رُومِيَّ الولاء؛ فأدخل عبادة «بعل» بصورة أكثر تعقيداً من صورته البدائية؛ فأصبح «بعل» - الذي أسماه المخلِّص «يسوع» - يموت فيذهب إلى العالم السفلي ثم يقوم من بين الأموات ليخلِّص البشر من خطاياهم؛ كما كان «بعل» يخلِّص البشر بخلاص زروعهم. وبهذه الخلفية ينبغي أن يُفهَم كلام يوحنا الذي نَسَبه إلى المسيح - عليه السلام - كذباً وزوراً: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مُوسَى لَمْ يُعْطِكُمُ خُبْزاً مِنَ السَّمَاءِ، وَإِنَّمَا أَبِي هُوَ الَّذِي يُعْطِيكُمُ الآنَ خُبْزَ السَّمَاءِ الْحَقِيقِيَّ، فَخُبْزُ الله هُوَ النَّازِلُ مِنَ السَّمَاءِ الْوَاهِبُ حَيَاةً لِلْعَالَمِ» ... «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِذَا

لَمْ تَأْكُلُوا جَسَدَ ابْنِ الإِنْسَانِ وَتَشْرَبُوا دَمَهُ، فَلاَ حَيَاةَ لَكُمْ فِي دَاخِلِكُمْ. مَنْ يَأْكُلْ جَسَدِي وَيَشْرَبْ دَمِي، فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ، وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ، لأَنَّ جَسَدِي هُوَ الطَّعَامُ الْحَقِيقِيُّ، وَدَمِي هُوَ الشَّرَابُ الْحَقِيقِيُّ» [يوحنا ٦]. وطقس «القربان المقدس» هذا الذي يؤديه النصارى: من أَكْل «جسد» المسيح وشُرْب «دمه»، هو ما كان يصنعه عُباد «بعل» عبر القرون.

وفي مستهل القرن الرابع الميلادي ظهر الإمبراطور الرومي قسطنطين الذي كان يعبد «بعلاً» باسم: Sol Invictus أي: «الشمس التي لا تقهر». فنصر عُبَّاد الصليب الوثنيين وجعل يوم الأحد Sun-day عيداً للنصارى، ومعناه - كما هو ظاهر - «يوم الشمس». وأصبح يوم ميلاد «بعل» (٢٥ ديسمبر) يوم ميلاد المسيح. وفي هذه الحقبة نشأت الكنيسة الكاثوليكية الرومية التي قامت على عبادة الأم (العذراء) والابن الفادي (يسوع)، وإن شئت فقل: «عشتار وبعل»، وعلى نهج قسطنطين يسير باباواتها إلى يومنا هذا. يقول - تعالى - في إشارة إلى هذه العبادة الوثنية: ﴿**وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ**﴾ [المائدة: ١١٦].

إن فَهْم هذا المشترك الوثني بين الباطنيين من يهود ونصارى ومجوس؛ والمتمثِل في عبادة «بعل» وأمه (أو زوجه)، يُعَدُّ مفتاحاً لأسرار تنظيمات ومؤسسات وجمعيات لا يخطر بالبال أن ثمة رابطاً عقدياً يربطها. ومعرفة هذه التنظيمات وحقيقتها يجلِّي كثيراً من المؤامرات التي طالما حارت بشأنها العقول؛ فلجأت إلى إنكارها باعتبارها وَهْماً. ولعل الحديث حول هذه التنظيمات يكون - بمشيئة الله - في عدد من المقالات تتناول نشأتها وأهم شخصياتها ومدى نفوذها. والله الموفق.

---

(١) رواه أحمد: (حديث ٦٩٦٦)، ومسلم: (حديث ١٤١٩).

(٢) أبو زكريا النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢ هـ)، ٦/ ١١٢ (وَفْقاً لترقيم المكتبة الشاملة).

تكبيرة (الانتقال).. ودلالاتها التربوية

حسين بن علي الزومي

وقع في خاطري كيف أن كثيراً من عباد الله الخاشعين يهتم بتدبُّر المعاني العظيمة في صلاته، في قيامه وركوعه وسجوده...إلخ، ولا يلتفت إلى ما يقوله في انتقاله بين الأركان من (التكبير)؛ فانداحت الدلالات العميقة في رُوعي لهذه التكبيرة العجيبة (تكبيرة الانتقال). وما دام أن (الخشوع) هو روح الصلاة، فإني أحسب أن معرفة المعاني والدلالات للصلاة، هي: (روح الروح).

لقد أطلق الفقهاء عبارة: (تكبيرة الانتقال) أو (تكبيرة النقل) على التكبير الذي يكون في التحول من ركن إلى ركن في الصلاة، عدا الانتقال من الركوع للقيام؛ فقد شُرِع فيه: (سمع الله لمن حَمِده)، ولعل حكمة ذلك أن هذا القيام القصير إنما هو إكمال لما بدأه المصلي من القيام قبل الركوع، والذي كان أساسه سورة الحمد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]؛ فناسب في الإكمال بعد الركوع استجابة الحمد.

إن المسلم يردد (تكبيرة النقل) في صلواته الخمس المكتوبة تسعاً وثمانين مرة يومياً عدا تكبيرة الإحرام، وقد سميت بذلك للتفريق بينها وبين (تكبيرة الإحرام) التي تكون في ابتداء الصلاة؛ فتكبيرة الإحرام ركن من أركان الصلاة وتَرْكها مبطل للصلاة (ولو ناسياً)، بينما تكبيرة الانتقال واجبة على أرجح الأقوال، كما هو عند الحنابلة، وإن كان الجمهور يرون استحبابها.

وكل ذلك يجعلنا نتساءل: لماذا اختار الله التكبير في النقل بدلاً من التسبيح أو الحمد أو التهليل؟ وهل نحتاج في الانتقال إلى ذِكْر أصلاً؟

ولعلِّي أقف هنا مع عشر دلالات تربوية:

١ - ملء الفراغ: حياة المسلم ليس فيها فراغ عبثي؛ فما بالك إذا كان في ذات العبادة؟ ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧ - ٨]؛ فحتى الوقت الذي يُعَدُّ بالثواني أو أقل في الانتقال بين الركن والركن (بين السجود والجلوس) و (بين القيام والركوع)...إلخ، حتى هذا الوقت الضئيل لا بد أن يُملأ بالطاعة والعبادة؛ وإن كان هو في عبادة. حتى قال بعض العلماء: إنه يُستحَب إطالة التكبير بالمد بمقدار وقت الانتقال لئلا يخلو جزء من الذكر.

ومقصودهم: مدُّ اللام في لفظ الجلالة (الله)، ولو زاد عن حد المد الطبيعي فلا بأس به، أو أُدخِل فيه ما يسمى في علم (المقامات) بـ (القرار) أو (الجواب)؛ فلا بأس به أيضاً والأمر في ذلك واسع، لكن نحذِّر من مدِّ (أكبر) إلى (أكبار) أو مدِّ الألف في بداية اللفظين؛ فإنها تُحيل المعنى، وإن كانت لا تبطل صلاة من لم يقصد إحالة المعنى.

إنه درس رباني للحفاظ على أوقاتنا المهدرة وأزمنتنا المضاعة خارج الصلاة؛ فيا لله كم مرت علينا من لحظات، بل ساعات وأيام، طارت منا سدى!

٢ - الاقتران بين الحركة والكلام: تأمَّل كيف أن القول ها هنا جاء مقترناً بالعمل؛ فهذا الالتصاق جاء ليؤكد أن شريعتنا قائمة على الحركة الدائبة بالدين. إن ديننا يمقت كثرة الكلام بلا عمل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ - ٣]. وإن من عجيب تكبيرة الانتقال أنها تكون مصاحبة وموافقة

للحركة حتى إن بعض الفقهاء رأى أنه: إن قالها وهو مستقر سواء قبل انتقاله أو بعد انتقاله، فإنها لا تجزئه. ولو جزءاً منها، بل ربما بطلت صلاته. وألزموه بقولها في حال انتقاله بين الركنين. هذا وإن كان فيه نوع تعسير (والراجح أن في هذا الأمر سَعة)، إلا أنه يدل على اتفاق الفقهاء على أن محلها هو وقت الحركة للانتقال. ومن غرائب اجتهاد بعض الأئمة الجهلة - أعني: في إمامتهم في الصلاة - تأخيرهم التكبير حتى يدخلوا في الركن التالي؛ حرصاً منهم على حماية صلاة المأمومين من المسابقة للإمام، ثم هم لا يخشون على صلاته!

٣ - الاستعانة والاستقواء: والمقصود ههنا هو الاستعانة بذكر الله من (التكبير) على حركة الانتقال، وذلك أن السكوت وقت الانتقال قد يُضعِف الحركة، ولكن صوت (التكبير) يبعث حيوية وقوة في الحركة: ألم ترَ أن كثيراً من العُجَّز إذا أرادوا القيام من قعود طويل قالوا بصوت: (بسم الله) استعانة بهذا اللفظ على الحركة، بل حتى لاعبو الرياضات القتالية إذا أرادوا استجماع قوَّتهم صاحوا بصوت يثير اندفاعاً لحركتهم... لا شك أن التفاعل بين (التكبير) و (الانتقال) يساعد النفس المؤمنة في خفة الحركة العبادية، وهو نوع من الاستقواء بالذكر على العبادة.

كما أن من أسرار التكبير أن يشعر المصلي أنه يأوي إلى ركن شديد، ويستعين بـ (الكبير) الذي قهر كل شيء بكبريائه وعظمته؛ فلا يركن إلى سواه، ولا يستعين إلا به؛ وما الدين إلا عبادة واستعانة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، كما أن الاستعانة بالصبر لا تكتمل إلا بالاستعانة بروح الصلاة: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

٤ - الاستحضار والاستحياء: إن في النوايا خفايا وأسراراً، و(تكبيرة الانتقال) تحيي استحضار الوقوف بين يدي الكبير الجبار، حين تأخذ المصلي الوساوسُ وتهيم به الأفكار؛ فيقوم بالقلب الحياء من غفلته عن ذكر القهار.

ولذلك ذكر بعض الفقهاء أنه ينبغي للمصلي استحضار قَصْد الذكر حين (تكبيرة النقل) حتى لا يظن ظانٌّ أنها ليست من عبادة الأذكار، بل هي كالتشهد والتسبيح والاستغفار. ومن نوى أن (تكبيرة الانتقال) لإعلام المأمومين من خلفه فقط دون قَصْد الذكر، لم تجزئه عند جمهور علماء الأمصار.

ومَنْ تدبَّر لفظ (التكبير) علم بشاعة الغفلة والذهول بتوافه النسيان، وهو يهتف باسم الله الأكبر، وقد قال الإمام ابن القيم: (إن العبد إذا وقف بين يدي الله - عز وجل - وقد علم أن لا شيء أكبر منه وتحقَّق قلبُه ذلك، وأُشرِبَه سِرُّه، استحيا من الله ومَنَعه وقاره وكبرياؤه أن ينشغل قلبه بغيره؛ وما لم يستحضر هذا المعنى فهو واقف بين يديه بجسمه).

٥ - التعظيم: وأي شيء أعظم من لفظة: (الله أكبر) التي كان يرددها المصطفى ﷺ إذا صعد مرتفَعاً أو جبلاً، في إشارة منه ﷺ إلى استشعار عظمة الله عند رؤية عظيم في الدنيا، بل إن التكبير (مشروع في المواضع الكبار؛ لكثرة الجَمْع أو لعظمة الفعل أو لقوة الحال أو نحو ذلك من الأمور الكبيرة) كما قال الإمام ابن تيمية.

إنها عبارة العظمة والكبرياء التي تبتدئ باسم الله الأعظم (الله) بما في هذه اللفظة من التفخيم للاَّم الممتدة، ثم لاحِظ معي نبع هذا الاسم من أقصى الجوف (الألف)، ثم هو يملأ الفم ليسير مسرعاً إلى طرف اللسان (اللام)، ثم ارتداده بقوة إلى أقصى الجوف مرة أخرى (الهاء)؛ إنه شيء عجيب والله! حين تجلجل تلك الفخامة في كل أرجاء المخارج الصوتية؛ وإذا اقترن هذا الاسم الجليل (الله) بلفظة الصفة (أكبر)، فإنك تشعر أن (همزة القطع) قد قطعت عنك التفكير فيما سوى (الله) لينتظر ذهنك استنطاق الصفة، ثم لتفاجئ النفس بضخامة الصفة (أكبر) بما فيها من شِدة (الكاف) الساكنة المدوِّية، ثم إقفالها بـ (راء) الفخامة المتكررة، حاملةً معها صوت الرنين الضارب في أعماق النفس. ثم يحار العقل: أكبر من ماذا؟ ماذا بعد (أفعل التفضيل)؟ أين المجرور بـ (من)؟ لماذا حُذِف؟ ويأتي الجواب ببساطة: لأن لله الكبرياء المطلق الذي لا ينازعه شيء فيه، وما هو الشيء الذي يستحق أن يوضع بعد (أفعل التفضيل) ولو كان (كل شيء)؟

ألم ترَ أن السيفَ ينقصُ قَدْرُهُ
إذا قيل: إن السيفَ أمْضَى من العصا

ومن حيث المعنى؛ فإن (الكبرياء) أكمل من (العظمة)؛ ولذلك لا يصح للمصلي أن يقول: (الله أعظم) بدلاً من (الله أكبر) خلافاً للأحناف؛ فيصبح التكبير في مجمله في غاية العظمة بقوة لَفْظه وجَرْسه، ورِفْعة معناه ودلالته.

وهذا ما يفسر خوف أعداء الله في المعارك من سماع هذه العبارة؛ حتى ولو لم يفهموا معناها.

إنها تربية للنفس على معرفة قَدْر الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]؛ فكل الأفكار والمفاهيم الساذجة ينبغي أن تتصاغر أمام المصلي (المكبِّر) في الصلاة، وهو تعظيم لقَدْر الصلاة أيضاً؛ فالله أكبر وأعلى وأجلُّ من تضييع الصلاة بملهيات الدنيا.

٦ - طَرْد الشيطان: كم يحرص الشيطان وتتحرك ألويته لإضاعة روح الصلاة؛ حتى لا يُكتَب للمرء إلا جزء منها بقَدْر ما عقل، ويأتي (التكبير) أثناء الصلاة ليكون أحد أقوى الأسلحة لدحر الشيطان ووسوسته.

ألم يعلِّمنا الأمين ﷺ أن الشيطان ينفر حين سماع الأذان؛ فالتكبير هو مقدمة الأذان وهو أُسُّ ندائه.

فإذا ما سمع الشيطان: (الله أكبر) هرب بعيداً عن المصلي، بل يتصاغر ويتحاقر حتى تنطفئ وسوسته؛ فإن كبرياء الرب - عز وجل - يقمع الشيطان وفِعْله.

ولكن كل ذلك لا يحصل إلا إذا نطق المصلي التكبير وهو يفقه معناه، وهو قاصد لمبتغاه. أما إذا سيطر الشيطان عليه حتى لم يعد يُحسِن استخدام سلاحه، بل هو يحمله بلا فقه ولا دراية، فقل: على الصلاة العفاء، لا روح فيها ولا حياة، وكان أحق أن يُصلَّى على هذه الصلاة صلاة الميت.

٧ - التجدد والتغيير: إن (تكبيرة الانتقال) تنقلنا من حال إلى حال، ومن عبادة الله بالقيام في الصلاة، إلى عبادته بالركوع ، ثم السجود والجلوس... إلخ.

بل إنك تلحظ أن صلاة أصحاب الأديان الفاسدة تقتصر على حركة أو حركتين؛ فبعضهم يصلي وهو قائم فقط، وبعضهم وهو جالس، وبعضهم وهو ساجد، وبعض الديانات الفاسدة، صلاتهم بالكلام فقط. أما هذا التنوع في حركات الانتقال فلا يوجد إلا في شرع محمد ﷺ.

إن (تكبيرة الانتقال) تدفع المسلم في صلاته إلى تغيير حركة عبادته في الصلاة؛ ليعيش في روضة من الحركة الدائبة، وفي جو من التجدد الدائم.

وهذا التنوع داخل عبادة (الصلاة) يعطينا انطباعاً مهماً بأن هذا الدين يطلب منا أن نعبد الله بطرق مشروعة شتى، وأن لا نقتصر على نمط واحد، حتى لا يصاب (العابد) بالملل؛ «فإن الله لا يمل حتى تملُّوا»[1]، ولذلك ينبغي للمسلم أن ينوِّع في حياته وسائل التقرب لربه، وذلك - بالطبع - وَفْق ما جاء مرغِّباً به في شريعتنا.

٨ - الفاصل الذهني: هذا (التكبير) أيضاً يضع فاصلاً ذهنياً ومساحة زمنية للسباحة في ذِكْر آخر.

ولو افترضنا أن هذه الانتقالات في الأذكار كانت بدون فاصل (التكبير) فإننا سنلاحظ تداخل الأذكار بعضها في بعض، وقد يختلط على المصلي، فيقول الذكر الخاص بالسجود في جلوسه، وهكذا...

فهذا التكبير الفاصل بينها يضع حدّاً لانتهاء الذكر القَبْلي؛ أي: قبل التكبير، وابتداء الذكر البعدي؛ أي: بعد التكبير ومع أن (تكبيرة الانتقال) هي ذِكْر بحد ذاتها إلا أنها تصبح مثل (اللازمة) التي تقطع وتبدأ.

٩ - الاستعداد: تكون (تكبيرة النقل) كأداة للتنبيه لما يليها؛ فتُشعِر المصلي بأهمية الاستعداد لما هو آتٍ، وأنه باستطاعته أن يستمر في صلاته ويقوِّي صِلَته بربه، فـ (الله أكبر) تعطي اندفاعة نفسية للمواصلة والتهيؤ، كما يستخدمها المجاهد في سبيل الله في ساح الوغى؛ فيشعر بنشوة تعتريه للثبات والاستعداد والاستمداد من رب السماء.

أما إذا كان المصلون في جماعة، فقد اتفق العلماء على أن الإمام يجهر بالتكبير ولو كانت الصلاة سرية، وشذ فيه الخلاف، وأنكر الصحابة على بعض بني أمية الذين تركوا الجهر بالتكبير؛ لأن تكبير الإمام ههنا فيه استدعاء لحركة المأمومين بالاستعداد للانتقال: «فإذا كبَّر فكبِّروا، ولا تكبِّروا حتى يكبِّر»[2] في متابعة دقيقة وانتظام عجيب لا تجد مثله في الدنيا.

بل أجاز الإسلام أيضاً (المسمِّع)، وهو الذي يرفع صوته بالتكبير بعد تكبير الإمام إذا لم يسمعوا؛ حتى يستعد المأمومون جميعاً للانتقال في لحظة واحدة، وقد أسهمت (مكبرات الصوت) في زمننا في تغطية هذه المهمة.

فيا لله! لو أن الإمام لم يُشْرَع له الجهر بالتكبير، فكيف سيكون الخبط والمناوشة في الصلاة؟

١٠ - التفاؤل: إن في التكبير معنى الرفعة والنصر والعلو والتمكين، ومن عجيب التكبير أن فيه تفاؤلاً بتحقق الهداية التي طلبها المصلي بقوله: «اهدنا الصراط المستقيم» وقد قال الله في آيتين بالكتاب: «لتكبروا الله على ما هداكم»، وهما وإن كانتا في الصيام والحج، إلا أن في ذلك سِراً عظيماً يدل على أن التكبير مُعِين على الهداية.

كما أن المصلي حين يردد (تكبيرة الانتقال) يشعر بمعية الله الكبير؛ فمِمَّ يخاف؟ فالله - سبحانه - أكبر من كل شيء ذاتاً وقَدْراً وعزة وجلالة... هذا المعنى الذي يصبُّ في نفسه قضية الثقة بالله وحُسْن الظن به؛ فلا يرى لما هو صغير أن يكون عقبة في حياته، ولا يخاف من مستقبل قد أوهمه التفكير المادي بظلمته.

فالله أكبر من أن يتركه سدىً وقد تشبث بعلائق وعمود الدين، بالصلاة لرب العالمين. والله

(١) أخرجه أحمد في مسنده.

(٢) أخرجه مسلم.

في العمل الخيري.. السمعة تأتي أولاً!

إبراهيم بن سليمان الحيدري(*)
alhaidari@hotmail.com

السمعة الحسنة للمنظمة الإدارية تُعتَبَر عند كثير من الخبراء شكلاً من أشكال أصول المنظمة، لكنها أصول غير محسوسة. وتكمن أهمية السمعة لأي نوع من المنظمات الإدارية في الدور الكبير الذي تؤديه بين مختلف شرائح المعنيين بعملها؛ فالعملاء - كأحد أهم الشرائح - ينجذبون نحو منتجات وخدمات المنظمات التي تمتلك سمعة حَسَنة، وعادة ما تساهم سمعة المنظمة في تكوين ثقة العميل بمنتجات المنظمة وقد أشار كثير من الأبحاث إلى أن العملاء مستعدون لدفع مزيد من المال على منتج منظمة تمتلك سمعة جيدة. وبجانب العملاء؛ فإن السمعة يمكن أن تجذب الكفاءات والطاقات البشرية للعمل في المنظمة، وقد يتنازل بعض هؤلاء عن بعض المميزات في سبيل العمل مع منظمة إدارية ذات سمعة جيدة. والسبب يعود - في الإغلب - إلى أن المجتمع يقيِّم الأشخاص وَفْقاً لاسم ومكانة المنظمات التي يعملون فيها. ومن جملة الأدوار الإيجابية للسمعة الحسنة، أنها تمهِّد الطريق للتفسير الإيجابي لتصرفات المنظمة في أذهان المتعاملين معها.

إن بناء سمعة جيدة للمنظمة رحلة شاقة ومضنية، تتطلب التزاماً مستمراً من الإدارة العليا في المنظمة، وتخصيص جزء من موارد المنظمة المالية والبشرية لبناء وإدارة سمعة المنظمة. ويستغرق بناء السمعة زمناً طويلاً، لكنها في المقابل سريعة الانهيار؛ وذلك عندما تواجه المنظمة أو أحد قاداتها مشكلة تتعلق بالنزاهة أو الأمانة. وعندئذٍ تكون عملية إعادة البناء من جديد عملية أكثر تعقيداً.

المنظمات الخيرية على اختلاف أشكالها وأحجامها، هي بحاجة ماسة كذلك إلى بناء سمعة جيدة عنها في أذهان الآخرين، وفوائد امتلاك المنظمة الخيرية لسمعة جيدة غير محدودة، سواء في جذب المتبرعين والحفاظ عليهم، أو في استقطاب الكفاءات للعمل أو للتطوع فيها، أو في بناء صورة إيجابية لدى الجهات الرسمية التي تتعامل معها، لكنه في المقابل؛ فإن فقدان السمعة وانهيارها في المنظمات الخيرية، أسرع وأشنع أثراً من مثيلاتها في القِطاع التجاري؛ لأن الثقة تلعب دوراً محورياً في علاقة المنظمة الخيرية بالمجتمع المحيط بها.

في عام ٢٠٠١ فقدت إحدى أكبر المنظمات الخيرية الهولندية قرابة ١١٠٠٠ متبرع بعد أن تناولت الصحافة مقدار الراتب الكبير الذي يتقاضاه مديرها نظير عمله لثلاثة أيام في الأسبوع فقط، وهو ما اضطر المنظمة إلى تبنِّي برنامج لإعادة بناء سمعتها من جديد، ابتداءً من تغيير اسمها الذي عُرِفت به لفترة طويلة!

(*) ماجستير في الإدارة، باحث في إدارة العمل الخيري.

الانقياد المشروط

فهد بن صالح العجلان
fsalehajlan@hotmail.com

إن خلاف الفقهاء في القضايا الفقهية كان لاختلافهم في تأويل النص؛ فهو من النص يبدأ وإليه يعود

اعتاد كثير من ذوي التوجهات المنحرفة عن النص الشرعي أن يقلِّب في كتب الفقهاء أو يستفيد من التقنية الحديثة لاستخراج الأقوال والاختيارات الفقهية (القديمة والحديثة) التي يرونها تتفق مع بعض رؤاهم؛ ليصنعوا من أجزائها زورقاً آمناً؛ لتجاوز أمواج الاعتراض والنكير التي لا تزداد نحو عبثهم إلا دفعاً وتصاعداً.

... وقف بعدها يشير بطَرْف عينه إلى كلِّ من يذكِّره بقول الله وقول رسوله ﷺ بأن (فلاناً) يرى كذا، وأنه يرى رجحان اختيار (فلان)، وأن المسألة فيها اختلاف، فلا يصحُّ التضييق على الناس؛ ما دام في المسألة خلاف لأحد من الفقهاء.

إنَّ هذه القضية قد فصل فيها أَحَكم الحاكمين في نصٍّ مُحْكَم تنزيله؛ إذ قال - تعالى -: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]؛ فما يحدث من خلاف في الأحكام الشرعية، فإن مردَّه إلى كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، هذا ما يستشعره بالضرورة كلُّ منقادٍ لأمر الله وأمر رسوله ﷺ، وأما الاحتجاج بخلاف الفقهاء في ترك العمل بالنصوص فهو قلب للقضية؛ إذ أصبح حكم الله ورسوله حينها متوقِّفاً على كلام الفقهاء؛ فما دام ثَمَّ قول فقهي مخالف، فالنصوص متعطِّلة لحين الاتفاق على العمل بها، وبدلاً من أن تُحَاكَم أقوال الفقهاء لنصوص الوحي، تصبح دلالة الوحي متوقِّفة حتى يتمَّ الاتفاق على مفهومها.

لا شك أن هذه ممارسة بعيدة كلَّ البعد عمَّا كان عليه الفقهاء في خلافاتهم الفقهية؛ فهم وإن اختلفوا في كثير من المسائل إلا أنهم متفقون - قطعاً - على أن دلالة النصوص هي الحاكمة عليهم وأن أقوالهم تتلاشى مع حضور الوحي، ولم يكن أحد منهم يشترط (الإجماع) على النص حتى يتمَّ العمل به، ولا كان خلاف الفقهاء سقفاً يحول دون نفوذ شعاع الوحي، وقد كان هذا مفهوماً متقرِّراً لدى جميع فقهاء المذاهب؛ فقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن المختلَف في تحريمه لا يكون حلالاً؛ حيث يقول: (هذا مخالف لإجماع الأمة، وهو معلوم البطلان بالاضطرار من دين الإسلام)[1]. وحَكَم الفقيه ابن حزم على مَنْ هذا حاله، فقال: (ولو أن امرأً لا يأخذ إلا بما أجمعت عليه الأمة فقط، ويترك كلَّ ما اختلفوا فيه مما قد جاءت فيه النصوص، لكان فاسقاً بإجماع الأمة)[2]، كما حكى ابن القطَّان اتفاق العلماء على حرمة ترك ما صحَّ من الشرع والاكتفاء فقط بما أُجمِع عليه[3].

ويطول المقام في تتبُّع أقوال الفقهاء في هذا الأصل الذي نختمه بهذه الخلاصة التي حرَّرها الحافظ ابن عبد البر: (الاختلاف ليس بحجَّة عند أحد عَلِمْتُه من

(١) مجموع الفتاوى: ٢٠/ ٢٧٠.

(٢) الإحكام في أصول الأحكام: ١/ ٢٩١، بل ذهب ابن حزم إلى أبعد من هذا، فقال عن هذا القول: (بل قد أصبح الإجماع على أن قائل هذا القول معتقداً له كافر بلا خلاف؛ لرفضه القول بالنصوص التي لا خلاف بين أحد في وجوب طاعتها)، الإحكام: ١/ ٤٨١.

(٣) انظر: الإقناع في مسائل الإجماع: ١/ ٦٥.

فقهاء الأمة؛ إلا من لا بصر له ولا معرفة عنده ولا حجَّة في قوله)[1].

ولا شكَّ أنَّ هذا موقف صارم، ورأي شديد ضدَّ من يعطِّل دلالة النصـــوص بحجَّة الخلاف لإدراك الفقهاء لِـمَا في هذا الرأي من جنوح عن حقِّ التعظيم والانقياد الواجب للنص الشرعي.

إن خـــلاف الفقهـــاء فـــي القضايـــا الفقهية كان لاختلافهم فـــي تأويل النص؛ فهو من النص يبدأ وإليه يعـــود. ومَنْ خالف حُكْم النص، فإنمـــا خالفه لاجتهاد يُثَـــاب فيه على جهده وصِـــدْق نيَّته؛ وإن خالف النص. ولم يكن حالهم حال المعرِض تماماً عن النص، وبعد أن حسم خياراته وحدَّد موقفه بحسب المفاهيم والقيم التي يؤمن بها رجع للنصِّ الشرعي؛ ليبحث عن مخرج وحلٍّ لمشكلة النصِّ يتمكَّن بها من تخفيـــف حـــدَّة الاعتـــراض التي لا يطيقهـــا فجاء بزورق الخـــلاف الفقهي؛ فهل يستويان؟

ومن طريف القوم: أنَّهم – مع كلِّ هذا – حين يأتي الحكم المجمَع عليه بين فقهاء الإسلام ويتأكَّد لهم اتفاق فقهاء الإســـلام على حكمٍ من الأحـــكام التي لا تروق للذائقة العصرية؛ فإن بوصلـــة التفكير لديهم يتحرَّك ســـهمها إلى الجهـــة المقابلة فيتذكَّـــر أن الإجماع من الأساس مشكوك فيه ويورد بعض شُبَه منكري الإجماع في التشـــكيك في حجِّية الإجمـــاع أو إمكانية وقوعه واستحالة الجزم بنفي وجود قول فقهي معيَّن.

حتى وإن تمكَّنتَ – بعد هذا كلِّه – من إثبات الإجماع وأوقفتَه بعينيه على دلائل الإجماع؛ فإن بوصلة (الزورق) الفقهي سترفع لافتة: أن ثَمَّ اختيارات فقهية من المعاصرين، ومن غير المتخصِّصين – عند الحاجة إليهم – تخالف في هذا، وأنه يراه القول الموافق للنص الشرعي!

فهذا التفكير المنطقي يشترط الإجماع للاتفاق على النص، وحين يأتي الإجماع يشكِّك في صحته وإمكانيَّته، وحين يزول هذا التشكيك يرجع ليتمسَّك بأي قَشَّة من أقوال المعاصرين!

هـــل لهذه (الظاهرة) تفســـير أو علاج خير من أن يقرأ فيها قول اللـــه – تعالى –: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّـهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُـــولَ وَاحْـــذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُـــمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُـــولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢].

(١) جامع بيان العلم وفضله: ٢/ ١١٥.

د. عبد الحي يوسف لـ البيان:

واجب على المسلمين المشاركة في الانتخابات، ولا يجوز التقاعس وعدم المبالاة

حاوره في الخرطوم: وليد الطيب

يمر السودان بأكبر اختبار في تاريخه، وقد تفرز انتخابات أبريل ٢٠١٠م، أوضاعاً قاسية على هذا البلد المسلم الذي يعيش منذ خمس سنوات حالة من السلام الهش؛ بموجب اتفاق السلام بين الحكومة السودانية والحركة الشعبية المتمردة، الذي انعقد في يناير ٢٠٠٥م؛ حيث يقضي هذا الاتفاق بإقامة انتخابات عامة على المستوى الرئاسي والبرلماني في السودان عامة وفي جنوب السودان في الوقت ذاته، وينص الاتفاق أيضاً على استفتاء السودانيين الجنوبيين على اختيار الوحدة أو الانفصال في يناير من العام المقبل ٢٠١١م، ويُجمِع المحللون على أن الانتخابات المقبلة ستؤثر بصورة مباشرة على اختيار الوحدة أو الانفصال.

في هذا السياق التقت البيان فضيلة الشيخ الدكتور (عبد الحي يوسف) أستاذ الثقافة الإسلامية بجامعة الخرطوم وأحد أبرز علماء السودان وفقهائه المعدودين، وقد نال فضيلته درجة الماجستير في موضوع: (الدولة في الإسلام)، وتناولت أطروحته للدكتوراة قضية: (الاستبداد السياسي في القرآن الكريم). ولاشتغاله - حفظه الله - (فكراً ودراسة) بموضوع الفقه السياسي واطلاعه الدقيق على مجريات الواقع في السودان، قدَّم إجابات صريحة ودقيقة عن أسئلة البيان التي دارت حول الموقف من الانتخابات القادمة وحيثيات الواقع ومآلات الأوضاع والموقف الشرعي الواجب على المسلمين في هذا البلد والدور المتعلق بالعلماء في هذه المرحلة.

البيان: تمر البلاد بفترة حرجة من تاريخها، ولكن السودانيين منقسمون؛ فإلى أي شيء تردُّون انقسامهم؟

■ السودانيون فيهم المسلم والكافر والبَّر والفاجر، وهم على اختلاف أديانهم وأعرافهم وثقافاتهم مختلفون فيما بينهم؛ لا على أساس الدين - في الغالب - بل لاختلاف الأهواء والأغراض؛ ولذا قلَّ أن تجد حزباً أو جماعة أو طائفة إلا وقد انشطرت إلى قسمين أو أكثر؛ وهذا الانقسام ليس بالأمر الجديد عليهم؛ فهذا هو العهد بهم منذ الاستقلال، بل ما قَبْله، ومردُّ ذلك إلى اختلاف الأهواء؛ فالسودانيون منذ زمن بعيد لا تجمعهم مرجعية واحدة، بل هم شيَع وأحزاب وطوائف، والعجب أن بعضهم ما زال ينتمي إلى أفكار وأحزاب صارت من تاريخ الغابرين: كالشيوعيين والناصريين - مثلاً - وما زال لحزب البعث أنصاره ومروجو خرافاته في الجامعات وغيرها؛ ولذلك تجدهم مختلفين فيما بينهم ومع غيرهم حول قضايا مصيرية.

والإسلاميون - في الأعم الأغلب - ليسوا بأحسن حالاً؛ فلا توحِّدهم وِجهة ولا تجمعهم أهداف مشتركة، بل يكيد بعضهم لبعض ويُبدُون العداوة والخصام؛ إلا من رَحِم الله، والذي يمكن عمله - بالنسبة للإسلاميين - أن يتفقوا على مرجعية شرعية مستقلة يصدرون عنها في تقرير مواقفهم؛ لا أقول في الأمور التفصيلية، بل في القضايا العامة التي ما ينبغي أن يختلف عليها الناس.

البيان: الانتخابات القادمة تُعَدُّ فاصلة في تحديد مصير السودان؛ فكيف يراها العلماء؟ وأين يقفون منها؟

■ بالنسبة لي (ولا أتحدث نيابة عن غيري) ليس لديَّ تحفُّظ شرعي على الانتخابات كوسيلة مناسبة - وَفْقَ المتاح - ليختار الناس من يحكمهم، بدلاً من الاحتكام للبندقية التي انتشرت ثقافتها، والتي أفضت إلى المآسي المتمثلة فيما يحدث في دارفور وجنوب السودان، وهي بديل مناسب عن الحكم الاستبدادي الديكتاتوري الذي لا ينال الناسُ من ورائه خيراً، وغايته إذلال العباد ونَهْب ثروات البلاد؛ هذا مع علمي بأن الانتخابات تشوهها ندوب وتعتريها جملة محاذير، لكنني أقول: هذا هو المتاح الآن وليس أمام الناس إلا أن يشاركوا، كما أن للانتخابات في السودان فائدة مهمة في هذه المرحلة، وهي: أنها ستبيِّن الأوزان الحقيقية لسائر الكتل والأحزاب السياسية التي يدَّعي كلٌّ منها أنها الممثل لأهل السودان أو لجهة منه، وهذا لا يتحقق إلا إذا كانت هذه الانتخابات نزيهة حرة، وصار لدى الناس وعي؛ بحيث يكون التصويت لمبادئ وبرامج، لا لأشخاص وأحزاب.

وحبذا لو اجتمعت كلمة العلماء على موجِّهات عامة، منها:

١ - وجوب مشاركة المسلمين في هذه الانتخابات، وعدم جواز التقاعس وعدم المبالاة؛ لئلا يفضي ذلك إلى أن يثب على الحكم من لا يرجو لله وقاراً.

٢ - أن يصدر تصوُّر شرعي عام فيما ينبغي عمله في هذه النازلة: من حيث حرمة شراء الأصوات وبيعها، وأنه لا يجوز تزكية ولا انتخاب من أحاطت به أسباب الفسق وخوارم المروءة، ووجوب وحدة أهل الإسلام ودعمهم لمن كان لله أقرب وهو على شعائر الدين أحرص.

٣ - حبذا لو كانت هناك قائمة للمرشحين مزكاة من قِبَل أهل العلم والفضل؛ حتى يريحوا كثيراً من الناس ممن يصدرون في مواقفهم عن رؤية شرعية، وليس هذا من باب الوصاية على اختيار الناس، بل من باب التعاون على البر والتقوى، ومن باب تعديل من يجهل كثيرٌ من الناس قَدْرَه

البيان: كثير من الإسلاميين يرون أن اتفاق نيفاشا الذي أوقف حرب الجنوب، كان جائراً بحق الشمال وحق المسلمين، وهو السبب في أكثر الأزمات السياسية التي يمر بها السودان ... ما هو الموقف الشرعي من اتفاق نيفاشا الذي يُقتَرح أن يكون مَثَلاً لحل مشكلات التنوع الديني والعرقي في العالم الإسلامي عامة وفي إفريقيا على وجه الخصوص؟

■ المعلوم أن مفاوضات نيفاشا، وقَبْلها ميشاكوس، وقَبْلها أبوجا، جرت في ظل غياب إسلامي عربي تام، وكانت تحدث تحت إشراف الأمم المتحدة ومعها النرويج وإيطاليا وبريطانيا وأمريكا وما يسمى بـ: (دول الإيقاد)، وهي - كما ترى - مجموعات صليبية يهودية، ليس فيها جهة إسلامية معتبرة، وكان العرب والمسلمون - خاصة الدول المجاورة - يتصرفون وكأن أمر السودان لا يعنيهم، ولم يتكرم أمين الجامعة العربية إلا بحضور التوقيع النهائي، بعدما قُضِي الأمر؛ فكان شاهداً على أمر لا يدرك أوائله ولا مآلاته. وهذه الاتفاقية لا تخلو من حسنات، من ذلك: أنها أوقفت الحرب؛ ولو إلى حين، وأقرَّت حكم الشمال بشريعة الإسلام، وأتاحت - نظرياً - التبشير بدين الإسلام في الجنوب؛ لكنها مع ذلك اشتملت على جملة من الطوام التي تكلَّم عنها الناس في حينه في مناصحات سرية وعلنية، ومن ذلك:

أولاً: أخطر ما في نيفاشا أنها ألزمت الحكومة بسحب معظم الجيش السوداني القومي من الجنوب؛ وبذلك صار الجنوب - عملياً - تحت رحمة عصابات وميليشيات الحركة الشعبية، التي لا تبالي بقتل وسحق وإيذاء كل من يخالفها في قليل أو كثير، وقد أثَّر ذلك على المسلمين وغيرهم في الجنوب

ثانياً: اتفاقية الترتيبات الأمنية ألزمت الحكومة - في حال اختيار الجنوبيين للوحدة - أن يكون الجيش السوداني نِصْفه من الحركة الشعبية التي تعادي الإسلام وتتبنَّى العَلمانية، مع أن هذه النسبة جائرة وظالمة جداً؛ إذ ليست الحركة الشعبية هي نصف السودان من أجل أن تُعطَى نصف الجيش؛ فإذا تصورنا أن الحركات المسلحة في

دارفور ســـتطالب – حال الاتفاق معها – بشيء مثل هذا أو قريب منه، وهي حركات – في أغلبها – قائمة على أُسُس عَلمانية؛ فانظر كيف ســيكون حال الجيش؟ معنى ذلك: أن الجيش الســوداني ستكون أغلبيته معادية للإسلام وشريعته وللعروبة.

ثالثاً: الاتفاقيــة أفضت إلــى إنشــاء مفوضية لغير المسلمين في الشمال؛ وهو ما أضعف الحكم الإسلامي غاية الضعف؛ لأن هذه المفوضية التي يرأســها جنوبي غير مسلم ظلت تمــارس الضغط على حكومة الشــمال، بدعوى عدم تضييع حقوق غير المسلمين؛ وهو ما أفضى إلى التفلت الذي يظهر بادياً للعيان في الشــوارع، وقل مثل ذلك في التعامل مــع الخمور وغيرها من القضايا التي مــا كانت تظهر قبل عشر ســنوات – مثلاً – إذ كانت الحشــمة والوقار والتزام آداب الشــريعة ظاهرةً للناس، وقــد أدى ذلك أيضاً إلى أن يُطِل المنافقون برؤوسهم ثانية تحت دعاوى الحرية والتحول الديمقراطي؛ فظهر الجمهوريون أتباع الهالك محمود محمد طه، وتمدَّد الشــيوعيون والعَلمانيون فــي فضاء الجامعات والمدارس، وإلى الله المشتكى.

رابعاً: هذه المفوضيــة التي أُقرَّت لغير المســلمين في الشــمال، ليس هناك مثلها في الجنوب بمعنى: أن المسلمين فــي الجنوب لا بواكي لهم، وهو ما أفضى إلى إلغاء كثير من مظاهر الإســلام التي كانت قائمة في الجنوب؛ فأُغلِق فرع جامعة القرآن وديوان الزكاة والبنوك الإســلامية، بل عُطلَت بعض المســاجد ومُنِع الأذان، ومُنِعت المسلمات من الحجاب، وصار التعليــم في المــدارس قائماً على المنهــج الكيني... وهكذا.

خامساً: أعطت الاتفاقية للحركة الشعبية حكم الجنوب كله؛ ولك أن تتصور أن حكومة الجنوب فيها اثنان وعشــرون وزيراً ليس من بينهم مســلم واحد، ومعظمهم نصارى مع أن أغلب الجنوبيين وثيون وليســوا نصارى، وفي الوقت نفسه تشــارك الحركة الشعبية في حكم الشــمال، والآن بلغ بهم الاستخفاف والأماني أن يرشحوا شيوعياً شمالياً (وهو نائب الأمين العام للحركة) لمنصب رئيس الجمهورية

خامساً: التناقض والتشــاكس الحاصــل في الحكومة المركزيــة من جراء مشــاركة الحركة الشــعبية العنصرية؛ حتــى إنه ليبدو للناظر أن في الشــمال حكومتين لا حكومة واحــدة؛ ففي بعــض القضايا المصيريــة، كقضية المحكمة الجنائية الدولية، ترى للحكومة رأيين وكلمتين؛ فبينما رئيس الجمهورية ونائبه ومعظم أعضــاء مجلس الوزراء والمجلس الوطنــي يرفضون قرار الجنائية الدولية، تســمع من وزراء الحركة الشعبية وعلى رأسهم سلفاكير ووزير الخارجية، ما يخالف ذلك؛ إنْ تصريحاً أو تمليحاً، وهو وضعٌ لا تكاد تجد له مثيلاً في الدنيا

البيان: هل ترى أن وحدة السودان ضرورية للبلاد ومستقبل الإسلام، ولماذا؟

■ المسلم لا يرفض الوحدة، بل يسعى إليها ويحرص عليها؛ لكن في ظــل المعطيات الحاصلة الآن يحتاج الأمر إلى نظرة فقهية قائمة على نظرية المصالح والمفاسد؛ والواقع الآن أننا – أعني المسلمين في الشمال والجنوب معاً – ضعفاء، وكفار الحركة الشــعبية ومن يســارعون فيهم من منافقي الشمال يحاولون من خلال الوحدة المدَّعاة، أن يفرضوا العَلمانية على الســودان؛ فيقولون: لا بد من محفِّــزات حتى تكون الوحدة جاذبــة، وأُولَى هذه المحفِّزات عندهــم أن تتاح حرية الكفر والفســوق والعصيان، وأن تُعطَّل القوانين الشرعية، وهم في ذلك مدعومون من قوى إقليمية ودولية تحت عناوين شــتى؛ ولذلــك يرى بعض الناس أنه في ظل التشــرذم الإســلامي والضعــف والتخاذل مــن قِبَل الدول العربيــة؛ فإن الأفضل أن يضحي النــاس بالوحدة في مقابــل الحفاظ على أصل الديــن في الشــمال. ويرى آخرون أن انفصــال الجنوب لن يزيد الضغوط على الشــمال إلا قسوة، وأن التنازل في بعض المطالب سيفتح الميدان لمزيد من التنازلات. والغرب لن يرضا إلا بإذلال الســودان وإضعافه، وينبغي على أهل العلم والفقه أن يدرسوا ذلك بعناية وحرص.

البيان: بعض العَلمانيين يرون أن من محفزات الجنوبيين على الانفصال هي مواقف الحركات الإسلامية: من تأييد تطبيــق الشــريعة الإســلامية ومناصــرة الهويــة العربية الإسلامية للسودان، باعتبار أن تطبيق الشريعة يُبعِد غير المســلمين من رئاســة الجمهورية من حيــث المبدأ ويجعلهم مواطنين من الدرجة الثانية؛ فهل هذا صحيح؟

■ إنني أســأل هؤلاء: هل من الديمقراطية التي تبشرون وتتبجحــون بها أن تحكم الأقليةُ الأغلبيةَ؟ أين نجد ذلك؟ هل فــي البلاد التي هي مَثَلكم الأعلــى: كأمريكا وبريطانيا يتاح

للمسلم أن يحكم؟ ألم يتعرض أوباما حين تقدَّم للترشيح للرئاسة الأمريكية لحملات هجوم عاتية لمجرد أن أباه كان مسلماً بالانتماء؟ وهو ما اضطر معه إلى أن يؤكد مراراً نصرانيته المتأصلة، وأنه حريص على الصلاة في الكنيسة كل يوم أحد، وهل من الديمقراطية أن تفرض الأقلية رؤاها على الأغلبية؟ ثم إنهم يلجؤون إلى المغالطة كثيراً حين يزعمون أن الناس معهم؛ إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا يحتكمون إلى صناديق الاقتراع؛ ليروا إن كان الشعب المسلم يريد للشريعة أن تحكم أم لا؟ وأنا أقول ذلك تنزلاً لا إقراراً مني بأن الحكم بالشريعة متوقف على رضا الناس. وهذه الفرية يروج لها المنافقون الداعون إلى العَلْمانية في سائر البلاد لا في السودان وحده؛ ليجعلوا من وجود غير المسلمين تُكأة لرفض حكم الله - جل جلاله -: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩]، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ [محمد: ٢٦].

البيان: من كنسية بجوبا دعا سلفاكير الجنوبيين إلى التصويت لصالح الانفصال في عام ٢٠١١م؛ حتى لا يظلوا مواطنين من الدرجة الثانية... من واقع معايشتكم للأوضاع في السودان بحكم انتسابكم إليه: هل هناك تمييز بين المواطنين لهذه الدرجة التي عبَّر عنها رئيس حكومة الجنوب؟

■ لو طرحنا جملة أسئلة لأمكن من خلال الجواب عنها معرفة قيمة هذه الفرية:

- هل الجنوبيون محرومون من فرصهم في التعليم في المدارس والجامعات؟
- هل هم محرومون من سُكنى أحياءٍ بعينها، مثلاً؟
- هل يُمنعون من ركوب المواصلات العامة؟
- هل هم محرومون من تولي المناصب العامة؟
- ألم يكن نائب الرئيس جنوبياً منذ عهود بعيدة؟
- ألم يكن في مجلس السيادة عقيب الاستقلال عضو من الجنوب؟
- هل تعرض مواطن شمالي لأي جنوبي في الشمال بالعدوان في أي يوم من الأيام؛ حتى في أيام الحرب لما سقطت الطائرة التي كان يستقلها الشهيد - بإذن الله - الفريق الزبير محمد صالح نائب رئيس الجمهورية وزعمت الحركة الشعبية من خلال إذاعتها كاذبةً أنهم مَنْ فعل ذلك؟ هل عدا المواطنون من أهل الشمال على الجنوبيين فأحرقوهم أو قتلوهم أو آذوهم؟ اللهم لا!

لكن بالمقابل ما الذي حصل يوم الإثنين الذي هلك فيه قرنق؟

البيان: ما هو واجب العلماء والدعاة في هذه المرحلة؟

■ أعظم واجب عليهم، هو: الدعوة إلى الوحدة الإسلامية القائمة على أخوة الدين لا الحزب ولا الجماعة، وتغليب مفهوم الولاء والبراء على المفاهيم القَبَلية المنتنة، والعنصرية المقيتة، والعصبية الجاهلية، ومن الواجبات كذلك تذكير الناس بأن العاقل ليس من يعرف الخير من الشر، بل العاقل هو من يعرف خير الخيرين وشر الشرين، مع تذكيرهم بنعمة الله علينا في فتح أبواب الدعوة وإتاحة الحريات للناس بقدر مناسب.

البيان: إذا اختار الجنوبيون الانفصال، كيف ترون مستقبل المسلمين في جنوب السودان، والواجب تجاههم؟

المسلمون الجنوبيون هم الطرف الخاسر حال الوحدة أو الانفصال؛ لأن الاتفاقية ابتداءً لم تتعرض لهم بشيء مذكور؛ ولا شك أن مستقبلهم - حال الانفصال - أكثر ظلاماً؛ لأن الحركة الشعبية تحركها عنصرية بغيضة تجاه غيرها من الأعراق الأخرى، بالإضافة إلى عداوة شديدة تجاه المسلم أياً كان عرقه؛ أي: حتى لو كان من بني جلدتهم، وهم - لضيق أفقهم - ينظرون إلى المسلم الجنوبي وكأنه طابور خامس أو جاسوس لأهل الشمال، هذا في الوقت الذي يتباكون فيه على الحريات ويطالبون غيرهم بها! وليس أمام المسلمين الجنوبيين حال الانفصال إلا أن ينافحوا عن دينهم ويدافعوا عن وجودهم، ويصبروا على ما يصيبهم في سبيل ذلك حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً؛ والواجب على إخوانهم في الشمال أن يدعموهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وإذا تعذَّر ذلك، فَلْيهاجروا كما هاجر النبي ﷺ وأصحابه عملاً بقول ربنا - سبحانه -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

البيان: جزاكم الله خيراً ونفع بكم فضيلة الشيخ الدكتور عبد الحي يوسف.

دماء الشهداء

عماد علي قطري

على تلة في المساعيد خلف المساء
استفاقت دماء الشهيد
أنارت فضاء المساءات
ألقت بريق الهدى
أدارت عيوناً تشظى هواها
وألقت سؤالاً كبيراً كبيراً
بحجم المدى
غريب محيا الوجوه التي قابلتنا
فأين الندى؟
وصوت الرياح التي واجهتنا
كئيب... كئيب... يثير الردى
فهل تهت حقاً؟
وأمست دياري ديار العدى
هنا كان برج يراقب
هنا كان جند المشاة
وأين البوارج؟
أرى يخت عشق وبعض العراة
وأين الفوارس...؟
على سحنة الكل بعض انكسار
لماذا تفر النوارس
فأين التحدي...
وزهو انتصار؟
على شاطئ البحر

ذُدْنا عن العرض دوماً
فكيف الرمال استحلت دمانا
ونامت على صوت حَبْر وأنثى الخيانة
هنا كان برج الدفاع الحصين
ودبابة... مدفع... بارجة
وسد انتماء متين
هنا السارية...
نشيد الوطن
(بلادي... بلادي... بلادي)
وصوت الجنود ارتقى الرابية
وقرص الغروب اختفى في المياه
وفي الليل نَمضِي وراء الحدود
نذيق الأعادي صنوف انتقام
فهيا اجمعوا يا رفاقي لأخذ التمام
سنمضي...
ذهبنا وكل يريد اللقاء
رياح الرجاء استبدت بنا
وفي القلب وَجْدٌ وحب الوطن
نسفنا مقراً لجيش «الدفاع»
وعدنا...
وفي القلب بعض السلام
رقصنا...
وغنى «حمام» البيوت... السويس

وصلى سعيد القيام
وفي الفجر جاؤوا...
كغربان شؤم ترج الفضاء
فصالت وجالت بكل السماء
وألقت... وألقت...
فبعضٌ جريح...
وبعضٌ شهيد ترقّى هناك
وها اليوم عدنا
فماذا وجدنا؟
سوى سيل وَهْن وعري ونوم طويل
(دمائي... دمائي... دمائي)
فمنذا يريد البلاد استحلت فِنائي؟
دمائي...
وهل ضاع كل الذين ارتقوا للسماء؟
دمائي...
فمن ذا يعيد البناء
ويُلقي الوساخات تحت الحذاء؟
دمائي... دمائي... دمائي...
لك الحب يحمي لوائي
فهل سوف يأتي حفيد الإباء؟
فهل سوف يأتي...؟

[المسلمون.. والعالم]

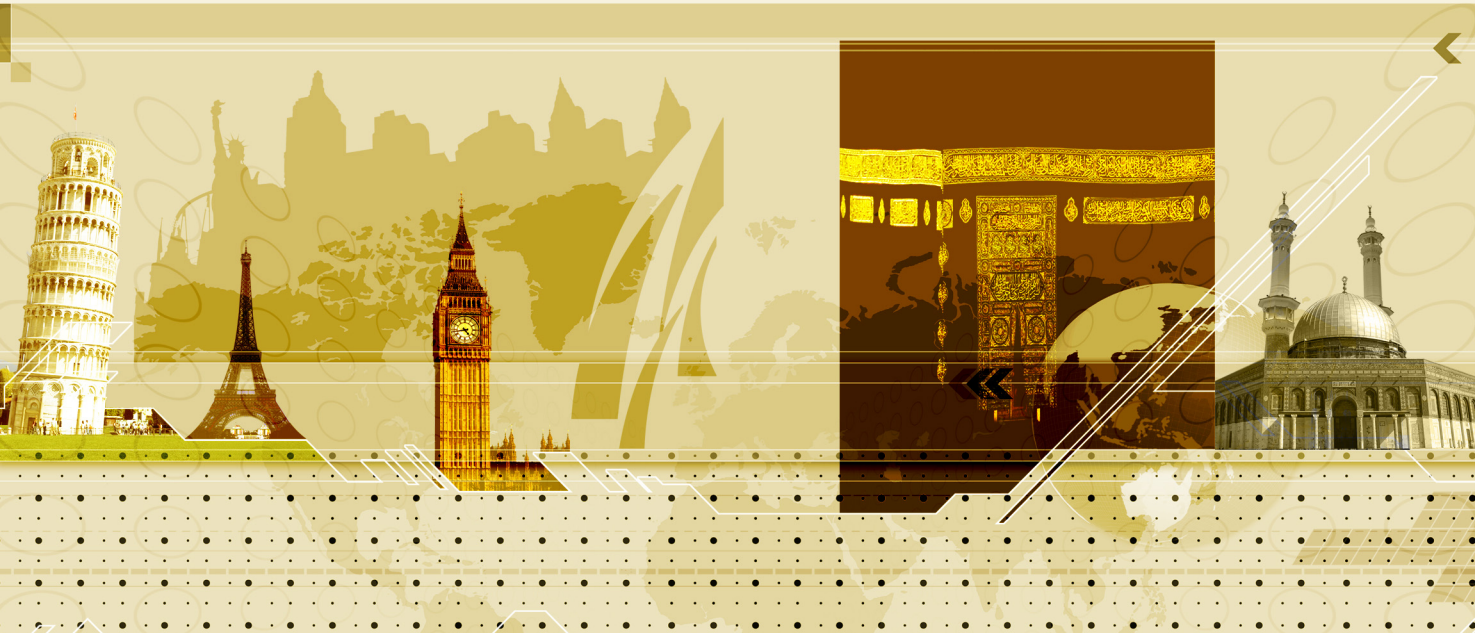

النموذج العراقي...خطر يتهدد النظام العربي (١ - ٢)
أحمد فهمي

(مستقبل السودان...بين يدي الانتخابات والاستفتاء)
وليد الطيب

مأزق العملية السياسية في العراق الانتخابات القادمة وأوهام (الديمقراطية)
د. مشى الضاري

مآذن سويسرا والديمقراطية العنصرية
د. عبد العزيز بن فوزان الفوزان

مرصد الأحداث
جلال الشايب

النموذج العراقي...
خطر يتهدد النظام العربي
(١-٢)

أحمد فهمي
afahmee@albayan-magazine.com

يتحرك النظام العربي ببطء نحو هوة سحيقة تنذر بمخاطر عظيمة؛ لو انزلق إليها. وثمة خيوط وعُقَد تُحبَك من أجل سلب النظام العربي مقدراته الباقية، وتفريغ دُوَله من مضامينها وإنهاء قدرته على اتخاذ قرار سياسي بصورة سيادية مستقلة.

ولأن مقولة الرئيس الأمريكي الأسبق فرانكلين روزفلت صحيحة إلى حد كبير، وهي: «في السياسة لا شيء يحدث عن طريق المصادفة؛ فإذا حدث، تستطيع أن تجزم أن التخطيط له قد جرى بالشكل الذي حدث فيه»؛ لذا يمكن القول: إن ما يحدث في أفغانستان ثم العراق منذ ثمانية أعوام ليس مصادفة أو ردود أفعال على ذاك الرئيس أو هذا التنظيم.

قبل شهر - تقريباً - أثار الدكتور مصطفى الفقي ضجة كبيرة في مصر بتصريح خطير أدلى به، والرجل له ثقل سياسي داخل النظام، ويشغل حالياً منصب رئيس لجنة الشؤون الخارجية بمجلس الشعب المصري. قال الفقي في حوار مع صحيفة المصري اليوم بتاريخ ٢٠١٠/١/١٢م بالنص: «للأسف! إن الرئيس القادم لمصر يحتاج إلى موافقة أمريكا وعدم اعتراض إسرائيل».

في اليوم التالي لنشر الحوار أرسل المفكر السياسي المعروف محمد حسنين هيكل تعليقاً مقتضباً مُوحيا تحت عنوان: «شاهد ملك»، طلب فيه من الفقي أن يجيب على أسئلة حول الخبر القنبلة الذي ألقى به، وهي: متى حدث ذلك؟ وكيف؟ وأين؟ ولماذا؟... ثم ماذا؟

في هذا المقال نحاول تقديم إجابات عن هذه الأسئلة من خلال استعراض النموذج العراقي الذي يقدِّم لنا بعض الأساليب التي تتبعها الدول الغربية؛ لتحويل بعض النظم العربية إلى هياكل خارجية مجوفة تفتقر إلى الدعم الخارجي لاتخاذ قرارات سيادية تتعلق بشؤونها الداخلية.

ضجيج ولا طحين:

المتابع للحراك السياسي العراقي يشعر للوهلة الأولى بأن الديمقراطية تمارَس على نطاق واسع؛ فهناك حرية في تكوين الأحزاب وممارسة أشكال الدعاية الانتخابية وتأسيس وسائل الإعلام وانتقاد الحكومة بكل رموزها... إلخ.

يقول الأديب الألماني الشهير يوهان فون غوته: «لا أحد أكثر استعباداً من الذين يعتقدون خطأً أنهم أحرار». وهذا ينطبق تماماً على الوضع العراقي؛ فلا يوجد قرار سياسي أو موقف هام أو إجراء حيوي يصدر عن قوة سياسية عراقية إلا بناءً على توجيه أو موافقة أو دعم خارجي، بنسبة لا تقل عن ٩٠ ٪، رغم كل آليات وأدوات الحرية والديمقراطية التي يعج بها الواقع السياسي العراقي، ورغم أن احتلال العراق جرى في إطار: «قانون تحرير العراق» الذي صدر في الولايات المتحدة عام ١٩٩٨م.

نجحت سياسة الولايات المتحدة منذ بدء الغزو في تأسيس جمهورية عرجاء تعتمد - بالدرجة الأولى - على حلفائها الذين نسَّقت معهم قبل الاحتلال بأعوام وتمتلك عن كل واحد منهم ملفات كاملة من المعلومات عن شخصيته ونقاط ضعفه وقوَّته، ومن الملاحظ أن أكثر الأسماء على الساحة السياسية جرى احتواؤها أمريكياً من قَبْل الغزو ومن بَعْده، بالإضافة إلى الرموز التي صُنعت لاحقاً لتلائم تطورات الأوضاع، كما هو الحال مع شيوخ العشائر المتزعمين لمجالس الصحوة في الأنبار. إذاً لا توجد مفاجآت أو مصادفات (بتعبير روزفلت).

يبرُع كثير من سياسيي العراق في ترويج الوهم السياسي مرددين عبارات الاستقلالية والسيادة العراقية، وأقرب مثال ما صرح به علي اللامي المدير التنفيذي لهيئة العدالة والمساءلة (وهي النسخة المعدَّلة من هيئة اجتثاث البعث)؛ حيث اتهم قائد القوات الأمريكية في الشرق الأوسط الجنرال ديفيد بيترايوس بـ: «التواطؤ مع حزب البعث؛ إذ التقى بقيادات بعثية كثيرة في عدد من دول المنطقة، ولو كان بترايوس عراقياً لشملناه بقانون المساءلة والعدالة»[1]، كما أصدر اللامي بياناً باسم الهيئة جاء فيه: «إن الدستور والقانون العراقيين يحميان الهيئة من أي تدخُّل خارجي، وإن عمل الهيئة هو شأن عراقي»، وكان بيترايوس قد اتهم الهيئة باستهداف المرشحين السُّنة لمصلحة الإيرانيين عندما أصدرت قراراً بحرمان أكثر من ٥٠٠ شخص من الترشح في الانتخابات القادمة.

هذه التصريحات «العنترية» لا تتناسب مع كون اللامي نفسه، بل رئيسه أحمد الجلبي ورئيس حكومته نوري المالكي يتحركون في ظل حماية أمريكية، ويتكدسون هم ورفاقهم في فنادق المنطقة الخضراء المشمولة بالرعاية الأمريكية، مثل: فندق الرشيد الذي يشغل مسؤولو الحكومة أغلب غرفه الـ ٤٨٤، بل إن اللامي تعرض للاعتقال المهين من قِبَل قوات الاحتلال لمدة عام تقريباً بتهمة الارتباط بفيلق القدس الإيراني، ثم أطلقه الأمريكيون وتركوه يتسلم منصبه الحالي.

وتحضرني عبارات لكاتبة عراقية ذكرتها تعليقاً على تصريحات اللامي. قالت فيها: «لم يسعني إلا أن أضحك وأنا أقرأ الخبر؛ فأي تدخُّل خارجي تتحدث عنه الهيئة المصونة، وهي المخترقة طولاً وعرضاً ومن كل الجوانب؟ وحتى المخترق فيها مخترق؛ فما عاد فيها ما هو مُغطى أبداً، ثم أي شأن عراقي يقصدون؟»[2].

الذين يحكمون العراق... حقيقة:

اللاعب الأول: الولايات المتحدة:

تختلف إدارة باراك أوباما عن سابقتها في تناول الملف العراقي؛ فبينما كان الرئيس السابق جورج بوش يتعامل معه بصورة مباشرة وكذلك كبار مسؤوليه: نائب الرئيس (ديك تشيني) ووزير الدفاع (دونالد رامسفيلد)، فإن أوباما يعطي للعراق أولوية تالية بعد أفغانستان، ولا يُكثِر من الإدلاء بتصريحات تتناول الشأن العراقي، وبالكاد يتناوله وزير دفاعه مع وسائل الإعلام، كما أن أوباما أسند ذلك الملف إلى نائبه جوزيف بايدن.

فارق آخر بين الإدارتين، وهو: أن فريق جورج بوش كان يؤكد بصورة دورية على بقاء قوات الاحتلال إلى أمد غير محدد، أو على الأقل لعشر سنوات قادمة، بينما يكرر أوباما في تصريحاته مصطلح: «الانسحاب» بصورة متلازمة مع الحديث عن الوضع العراقي، في حين أن الوضع الراهن لا يعطي أي دلالات على بدء هذا الانسحاب كما صرَّح أوباما

(١) في حوار مع صحيفة الحياة: ٢٠١٠/١/٢٩م.

(٢) موقع كتابات، ميادة العسكري: ٢٠١٠/١/٢٩م.

في أغسطس القادم، ليكتمل في عام ٢٠١١م.

وفي هذا السياق يلفت الدكتور (حارث الضاري) رئيس هيئة علماء المسلمين إلى أن الاحتلال الأمريكي لم يلتزم ببنود الاتفاقية الموقَّعة مع العراق، والتي نصت على الانسحاب من المدن عام ٢٠٠٩م؛ إذ لا تزال حملات المداهمة والاعتقال مستمرة حتى هذه اللحظة، كما أن هذه القوات لا تتولى الدفاع عن الأراضي العراقية؛ فقد احتلت إيران حقل «الفكة» العراقي دون أن يحرك الاحتلال ساكناً، وعندما سُئل المسؤولون عن ذلك قالوا: هذا شأن عراقي داخلي[١]. وقد زار بايدن العراق خمس مرات حتى الآن، ثلاث منها أثناء رئاسة بوش عندما كان عضواً بالكونجرس، وزيارة قام بها في سبتمبر من العام الماضي، والأخيرة كانت في يناير من هذا العام، ومن المعروف أن بايدن هو صاحب مشروع التقسيم الشهير للعراق، والذي قدَّمه بالتعاون مع ليزلي جيلب رئيس مجلس العلاقات الخارجية السابق عَبْر صحيفة نيويورك تايمز.

ويستند اقتراح بايدن لتقسيم العراق إلى ما جرى في البوسنة عام ١٩٩٥ من تقسيم؛ أي: تكون هناك ثلاث دويلات مربوطة بشكل ضعيف ببعضها البعض، وهي: كردستان، وشيعستان، وسنِّستان، وكلها تحت مظلة عراق كبير لكنه هزيل، وقال بايدن وجيلب في مقالتهما المشتركة بتاريخ ١ مايو ٢٠٠٦ م: إن الفكرة تعني أن يدير الأكراد والشيعة والسنَّة شؤونهم بينما تكون الحكومة المركزية معنية بالشؤون المشتركة. نحن قادرون على تحقيق ذلك مع إغراءات تُمنَح للسُّنة؛ كي يشاركوا في الحكم من خلال خطة مصمَّمة للانسحاب وإعادة نَشْر قواتنا وعَقْد حِلْف عدم اعتداء على مستوى المنطقة.

في واقع الأمر، لم يكن سيناريو التقسيم غائباً عن مخيلة المخطط السياسي لعملية الغزو؛ فمنذ اللحظة الأولى اتبعت واشنطن استراتيجية تفتيت واضحة لكافة القوى السياسية والعسكرية في العراق؛ حيث: جرى حل الجيش، وصدر قانون اجتثاث البعث؛ لإزالة الحزب كقوة سياسية فاعلة كانت تضم نحو ستة ملايين عراقي، وجرى تدمير مؤسسات الدولة كاملة ما عدا وزارة النفط، ودُمرت البُنَى التحتية والفوقية،

(١) موقع الهيئة: ٢٤/١/٢٠١٠م.

وترسَّخ الحكم الذاتي للأكراد، وصيغ الدستور الجديد بنَفَس طائفي، واعتُمِد نظام المحاصصة الطائفية بصورة أخلَّت بالتوازن بين الطوائف لحساب الشيعة والأكراد.

هذا الأسلوب الأخير - تحديداً - أنشأ وضعاً مختلاً للغاية في المنطقة بأسرها، وقد اعترف الباحث الأمريكي المعروف «والي نصر» ذو الأصول الإيرانية بهذه الحقيقة، فقال: «إن الإدارة الأمريكية قد نجحت في إعطاء الصلاحيات والحريات كافة للأغلبية الشيعية، وهو ما ساعد على انطلاق البعث الشيعي من جديد، وعلى نطاق واسع، وهذا من شأنه إخلال التوازن الطائفي والديني في العراق والشرق الأوسط لسنوات قادمة»[٢]، وهو ما دعا إليه الكاتب توماس فريدمان ذاته؛ حيث قال: «علينا أن نسلِّح الشيعة والأكراد ونترك السنَّة العراقيين يقبضون على الريح»[٣].

ومن المهم هنا أن نلفت النظر إلى أمرين:

أولهما: أن مشروع بايدن قد وافق عليه مجلس النواب الأمريكي بالأغلبية وأصدر في سبتمبر ٢٠٠٧م مشروع قرار غير ملزم بتقسيم العراق.

والأمر الثاني: أن بايدن لا يفسر القرار على أنه تقسيم للعراق، بل يعتبر ذلك مجرد عملية نقل للسلطات إلى حكومات المناطق، مع بقاء بعض الصلاحيات للحكومة المركزية[٤].

نتج عن هذه الاستراتيجية (تفتيت العراق) تشكُّل الواقع السياسي في العراق من كيانات صغيرة نسبياً يعجز أي منها عن الانفراد بالحكم؛ حتى في كردستان. ومع بعض الإجراءات التحفيزية والعقابية غلب الطابع التنافسي على الساحة السياسية بصورة مفرطة؛ حتى أصبح العمر الافتراضي للتحالفات في حدِّه الأدنى، ولم يعد مستنكَراً أن يتحالف اليوم أعداء الأمس، أو أن يتصارع اليوم حلفاء الأمس.

نذكر مثالين على طبيعة الحراك السياسي قبل الانتخابات القادمة في مارس ٢٠١٠م:

المثال الأول: طارق الهاشمي نائب الرئيس العراقي ورئيس الحزب الإسلامي سابقاً، والذي قدَّم استقالته قبل أشهر من الحزب واعتبر أن عضويته أصبحت في ذمة

(٢) مقال: عندما ينهض الشيعة، والي نصر، مجلة الشؤون الخارجية الأمريكية، أغسطس ٢٠٠٦م.
(٣) كتاب: العراق، منطق الانسحاب، ص ٩٢.
(٤) موقع سويس إنفو: ٢/١٠/٢٠٠٧م.

التاريخ، ثم تهيأ للدخول في تحالف مع إياد علاوي (شيعي عَلماني) وصالح المطلق (سُني عَلماني)، ويسعى الهاشمي لإقناع الأمريكيين أثناء زيارته واشنطن بأن يتولى منصب رئاسة الجمهورية. وهذا يتعارض مع توجهات علاوي الذي يريد استثمار الضغوط في اتجاه تسلُّمه منصب رئاسة الحكومة، كما أن علاوي وعد الأكراد بدعم الطالباني؛ للاستمرار في منصب الرئيس. في المقابل؛ فإن حليفهما الثالث صالح المطلق أصبح مشمولاً بقرار الإبعاد الصادر من هيئة العدالة والمساءلة، وهو ما يعني أن التحالف مهدد بالانهيار قبل الانتخابات.

المثال الثاني: قائمة ائتلاف دولة القانون التي يترأسها رئيس الوزراء نوري المالكي الذي انشق بحزبه «الدعوة» عن الائتلاف العراقي الموحد، والذي كان يجمع الأحزاب الشيعية، وقد انشق عن الحزب قبل ذلك إبراهيم الجعفري رئيس الوزراء السابق؛ ليؤسس: «تيار الإصلاح الوطني».

ويتشكل تحالف دولة القانون حالياً من ٣٤ حزباً وحركةً وكتلةً وتجمُّعاً وقائمةً واتحاداً... إلخ، ومن الطريف أن هذا التحالف يتضمن ثلاثة أحزاب، كلها تحمل اسم: «الدعوة»؛ فهناك حزب الدعوة التابع للمالكي، ثم حزب الدعوة الإسلامية تنظيم العراق، ثم حركة الدعوة الإسلامية، كما يوجد حزب باسم: «تجمُّع البيرق الوطني» وآخر يحمل اسم: «تحالف بيارق العراق»، كما يوجد ضمن التحالف ستة تجمعات تضيف إلى اسمها لفظ: «مستقل» أو «مستقلة» أو «مستقلون»[1].

وقد نتج عن تحويل الساحة السياسية العراقية إلى فسيفساء: أن كل جهة تسعى بصورة تلقائية للاستقواء بأقرب طرف خارجي، وهو ما يتيح لهذه الأطراف تحكُّماً عن بُعْد في الشؤون العراقية دون بذل أي مجهود، وقد أعلنت الإدارة الأمريكية عن برنامج زيارات يشمل ٢٠ من المسؤولين العراقيين مدعوِّين إلى واشنطن للتباحث حول الانتخابات القادمة، وقد زارها بالفعل مسعود البارزاني وعادل عبد المهدي وطارق الهاشمي، وكلهم يسعون لإقناع المسؤولين في واشنطن بتبنِّي مطالبه.

لا تنظر الأحزاب الموالية لواشنطن إلى التدخل الأمريكي في العراق بوصفه أمراً مرفوضاً يناقض السيادة، بل نجد بعض قادة هذه الأحزاب يطالب الأمريكيين بالتدخل في الشأن العراقي لحماية السيادة العراقية، وكان مسعود البارزاني (رئيس إقليم كردستان) قد ألقى كلمة في معهد بروكنجز للدراسات في واشنطن؛ حيث أعرب عن أسفه للتدخل المستمر من الدول المجاورة في الشؤون العراقية، وقال: «إن أجندة إيران تكاد تكون الأوسع في العراق»، وقال: «إن كل دولة مجاورة تريد أن تأتي بأناس معيَّنين إلى العملية السياسية»، ثم أكد في وضوح أن: «إيران دولة مهمة في المنطقة وتريد أن تلعب دوراً كبيراً، والقرار بيد أميركا وأوروبا: هل ستمنح مثل ذلك الدور لإيران أم لا؟»[2].

حصاد السياسة الأمريكية في العراق: صار العراق منقسماً أفقياً ورأسياً بطريقة معقدة؛ فهو ينقسم أفقياً إلى القطاعات الرئيسية الثلاثة: عرب سُنة، وعرب شيعة، وأكراد، ثم ينقسم رأسياً داخل كل قطاع؛ فالأكراد كانوا ينقسمون بين حزبين رئيسيين: الاتحاد الوطني بزعامة جلال الطالباني، والحزب الديمقراطي بزعامة مسعود البارزاني. ولكن انقسم الاتحاد الوطني في العام الماضي وتشكلت كتلة سياسية جديدة شاركت في الانتخابات الكردية تحت اسم: «قائمة التغيير» وتزعمها نوشيران مصطفى نائب الطالباني السابق. وقد فازت في انتخابات الإقليم العام الماضي بنسبة ٢٣ ٪ من المقاعد، وهي نسبة كبيرة مقارنة بحصول تحالف القائمة الكردية الذي يجمع الحزبين الكبيرين على نسبة ٥٧ ٪.

أما الشيعة؛ فهم منقسمون بين المجلس الأعلى والكتلة الصدرية وحزب الدعوة الذي يتزعمه المالكي، بالإضافة إلى أحزاب أخرى، مثل: الفضيلة، وهي جميعاً مختلفة فيما بينها مع تفاوت في درجة العداء، وأكثر ما يجمع بينها هو خضوع أغلبها للنفوذ الإيراني إلى درجة كبيرة. ويبقى بعد ذلك عَلمانيو الشيعة، وهم منقسمون ما بين الولاء التام لإيران، مثل: عمار الحكيم، أو للولايات المتحدة، مثل: إياد علاوي، أو لكليهما كما كان إبراهيم الجعفري، ويدخل الشيعة الانتخابات القادمة بتحالفين رئيسيين:

أولهما: دولة القانون بزعامة المالكي.

والثاني: الائتلاف العراقي الموحد بزعامة المجلس والتيار الصدري، وكان تحالف دولة القانون قد اكتسح انتخابات

(١) انظر: موقع دولة القانون على الإنترنت.

(٢) انظر: موقع دولة القانون: ٢٠١٠/١/٣٠م.

المحافظات في مطلع عام ٢٠٠٩م وسيطر على جميع المحافظات ذات الأغلبية الشيعية في الجنوب والوسط.

ويسعى كل تحالف إلى استمالة تكتلات سُنية صغيرة في محاولة لإبعاد سِمة الطائفية عن ائتلافه، مستغلين في ذلك تلهُّف بعض زعماء عشائر الأنبار، وخاصة الثلاثي: أحمد أبو ريشة، وحميد الهايس، وعلي حاتم السلمان، على دخول مجلس النواب بأي ثمن.

أما العرب السُّنة؛ فقد كانت جبهة التوافق هي الممثل الرئيس لهم وفي قلبها الحزب الإسلامي، مع وجود قوى أساسية لا تشارك في العملية السياسية، مثل: الهيئة، وكذلك مجموعات المقاومة الرافضة للعمل السياسي، ثم ظهرت مجموعات القاعدة التي ساهمت بدور كبير في تمزيق وإضعاف الصف السُّني وفسحت المجال لمزيد من التدخلات الخارجية، ثم ظهرت على السطح مجالس الصحوة التي تطالب بلعب دور سياسي في المرحلة القادمة استناداً إلى دورها في مواجهة القاعدة، ولكن هذه المجالس لم تتمكن من تشكيل تحالفات خاصة بها؛ فلجأت إلى تجاوز الخطوط الحمراء وتحالفت مع تكتلات شيعية.

وسوف نعرض للتركيبة العراقية بمكوناتها الأفقية والرأسية بتفصيل أكثر في الجزء الثاني من المقال، بإذن الله تعالى.

وفي ظل هذه الحالة «الفسيفسائية» تحولت أهداف أمريكا التي يُفترض أن تبذل جهوداً لتحقيقها، إلى مطالب لهذه الأحزاب تُلِحُّ على الأمريكيين أن يقبلوها، وكان الأكراد في منتصف التسعينيات من القرن الماضي يلحون على الولايات المتحدة للتدخل بصورة جذرية في العراق، وبحسب مسؤول أمريكي في تلك الفترة، وكان قد سُئل عن موقف واشنطن من الأكراد، فقال: «لدينا سمكات أكبر لنقليها، والأكراد ليسوا سمكة كبيرة»، وهكذا ظل قادة الكرد يتبعون نهجاً استرضائياً للحصول على العناية الأمريكية؛ حتى إن جلال الطالباني ألحَّ على الأمريكيين في بداية الاحتلال أن يقيموا قاعدتين في شمال العراق، فتمت الموافقة وبدأ العمل فيهما بالفعل: واحدة قرب أربيل والأخرى جوار السليمانية[1].

اللاعب الثاني: إيران... يتبع

(١) انظر عراق المستقبل، جيف سيمونز: ص ١٥٣، وصحيفة الزمان: ١٦/١٠/٢٠٠٦م.

في واقع الأمر، لم يكن سيناريو التقسيم غائباً عن مخيلة المخطط السياسي لعملية الغزو؛ فمنذ اللحظة الأولى اتبعت واشنطن استراتيجية تفتيت واضحة لكافة القوى السياسية والعسكرية في العراق؛ حيث: جرى حل الجيش، وصدر قانون اجتثاث البعث؛ لإزالة الحزب كقوة سياسية فاعلة كانت تضم نحو ستة ملايين عراقي، وجرى تدمير مؤسسات الدولة كاملة ما عدا وزارة النفط، ودُمرت البُنَى التحتية والفوقية، وترسَّخ الحكم الذاتي للأكراد، وصيغ الدستور الجديد بنَفَس طائفي، واعتُمِد نظام المحاصصة الطائفية بصورة أخلَّت بالتوازن بين الطوائف لحساب الشيعة والأكراد.

ولا أسهل!

الآن .. منتجات دواجن الوطنية أصبحت أكثر تنوعاً وأكثر سهولة لتناسب كافة الأذواق، لتكون اختيار الأم الحقيقي

حب الأم الحقيقي.. متنوع حقيقي

AL-WATANIA POULTRY
دواجن الوطنية
غذاؤكم ترعاه أيدٍ أمينة

HACCP SGS 01683
أعلى المقاييس الدولية للغذاء

SYSTEM CERTIFICATION HACCP SGS

MOODY INTERNATIONAL CERTIFICATION
UKAS QUALITY MANAGEMENT
ISO 9001:2000 REGISTERED COMPANY

إنتاج المملكة العربية السعودية • الرقم المجاني ٨٠٠١٢٤٤٦٦٦ • www.al-watania.com

مأزق العملية السياسية في العراق
الانتخابات القادمة وأوهام (الديمقراطية)

د. مثنى حارث الضاري

تخضع الانتخابات القادمة المقرر إجراؤها في العراق مطلع الشهر الثالث من هذا العام للشروط نفسها والمحددات عينها التي ترسم قواعد العملية السياسية في العراق في الإطار المرسوم لها سلفاً؛ فهي كمثيلاتها السابقات حَلْقة أخرى من حلقات اللعبة السياسية الجارية في العراق منذ الاحتلال وحتى الآن.

هذا من حيث المنطلقات والمخرجات الرئيسة لهذه الجولة الانتخابية، وهو حكم تثبته الوقائع الجارية وتؤكده الحوادث المتجددة على خريطة العمل السياسي في العراق. أما إذا ما أردنا أن نَلِج إلى التفاصيل والأحداث الجزئية؛ لقراءتها في ضوء الظروف الموضوعية والمتغيرات على الساحة، فسنجد أن هناك عدداً من الظواهر المهمة والمؤشرات الجديرة بالاعتبار ينبغي التوقف عندها واكتشاف مدلولاتها.

المشهد الحاضر:

صورة المشهد الانتخابي (قانوناً وتحضيرات وحملات انتخابية) مختلطة أشد الاختلاط، وتكاد أمواجها المتلاطمة تذهب بالبلاد ومن فيها بعيداً، ولكن واقع الأمور على الأرض وخلفية الصورة التي لا يراد لها أن تظهر إلى العلن، تفرض نفسها قائلةً: إنه لا جديد تحت الشمس طرأ على القواعد الرئيسة للعملية السياسية المسماة انتخاباً هذه المرة، ولا على المتطلبات الأساسية لولوجها؛ ومردُّ ذلك إلى بقاء القوى السياسية المتحركة على مسرح هذه العملية على ما هي عليه وعدم وجود بدائل جديدة، كما يشاع أو يذاع هنا

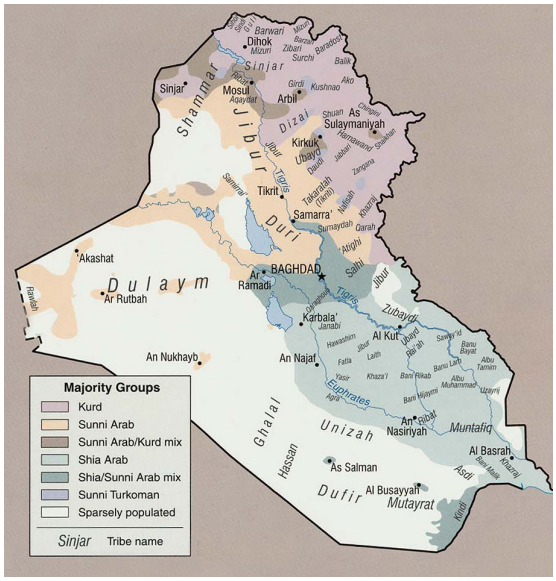

وهناك.

وهي دعايات مضلِّلة جرى استغلالها؛ لتبرير كثير من الأشياء المبهمة، ولإعطاء انطباعات يغلب عليها عامل التسويق والترويج التجاري لبضاعة الانتخابات الكاسدة التي اقتضت هذه المرة فَسْح المجال للجميع ـ في الظاهر ـ لعرض أنفسهم تحت تأثير وَهْم المشاركة السياسية، مع الاستمرار في إعادة إنتاج الوجوه والقوى عينها وترتيبها في أطر وقوالب تبدو جديدة وبمسميات تراعي التحوُّل الكبير في المزاج الشعبي العراقي الميال بقوة إلى الالتفات عن العملية السياسية وعدم الاهتمام بها والانصراف عن المشاركة فيها.

ولعل مؤشر العزوف عن المشاركة في الانتخابات المحلية وعدم التسجيل في مراكز الاقتراع للانتخابات القادمة، هما أبرز دليلين على هذا التغير في المزاج الشعبي الذي يرجع في نظر المتابعين إلى عوامل عدة من أبرزها: تنامي الشعور الوطني وتعافي الرؤية العراقية الجمعية بعد زوال المؤثرات التي كانت تحجبها طيلة السنوات الثلاث الأولى بعد

الاحتلال، فضلاً عن الفشل الذريع الذي حظيت به الحكومة الحالية وسابِقتُها على الصُّعُد جميعاً، وهو الأمر الذي يلمسه العراقيون يومياً في مناحي معيشتهم المختلفة؛ سواء أكان في الجوانب الأمنية أو الاقتصادية أو الاجتماعية... ولسنا هنا في وارد الاستفاضة في تفصيل أوجه المعاناة في هذه الجوانب المختلفة، ولكن يكفينا القول: إن العراقيين يعون تماماً أنهم يعيشون بلا مستقبل وبدون أمن حقيقي في ظل حكومة فاسدة جعلت من بلدهم بلداً فاشلاً بامتياز وَفْق المعايير الدولية المعتمَدة؛ على الرغم من العوائد المادية الضخمة في السنوات الماضية التي تدخل خزينة الدولة من باب النفط وتخرج من نافذة الاحتلال والفسادين: الإداري والمالي.

المشهد المتوقع:

هناك قناعة مترسخة الآن في أذهان اللاعبين في العملية السياسية مفادها: أن الحكومة القادمة بعد الانتخابات ستكون الحكومة الأخيرة في ظل الاحتلال، وأنه لا بد من استغلالها الاستغلال الأمثل والأوفق من الرابحين والخاسرين على حدٍّ سواء. ومن هنا نشهد الآن سباقاً محموماً بين جميع القوى السياسية؛ لتعزيز المكاسب التي حصلت عليها؛ لتأمين أوضاعها قبل خروج هذه القوات التي سيعمل خروجها على إزالة مظلة الحماية الأمنية التي توفرها للعملية السياسية والقوى الداخلة فيها والمستفيدة منها والمتعاونة معها... وللمؤسسات (الشكلية) للحكومة، والتي تتصف بصفات: عدم الاستمرارية، وعدم الثبات، والانهيار شبه التام في خاتمة كل حكومة قديمة، وإعادة البناء العجلى وغير السليمة مع مطلع كل حكومة جديدة.

ما تقدَّم يفسر الجَلَبة والضوضاء الكبيرة التي أحاطت منذ أشهر ولا زالت تحيط بموضوع الانتخابات القادمة والمشاكل الكامنة فيها والمؤثرة على سيرها وانتظامها، وهو ما برز من خلال الصراع الكبير على تفاصيل مهمة فيها بدءاً بقانون الانتخابات الذي شهد اضطراباً وارتباكاً كبيرين حتى ظهر أخيراً بعد أشهر وبفضل سلسلة من التوافقات المشبوهة والمعتادة في العملية السياسية في عراق اليوم، ثم الجدل حول موعد الانتخابات الذي أُجِّل بسبب ما تقدَّم، والخلاف حول ما يُطْلَق عليه: (قانون السلوك الانتخابي) و (قانون مفوضية الانتخابات)، وتبع ذلك كله موضوع استبعاد عدد من المرشحين وَفْق قانون المساءلة والعدالة، وهو (الجذع) الذي قصم ظهر العملية السياسية؛ لولا التدخل الأمريكي الذي يستنكره المستفيدون؛ بحجة التدخل في الشأن العراقي ويرحب به المتضررون؛ لإنقاذ أوضاعهم، ولكنهم يشتركون جميعاً ـ على اختلاف مواقعهم ـ في مصافحة، بل معانقة ممثليه القادمين إلى بغداد في الساعات الأخيرة؛ لإنقاذ الموقف (بالحرارة نفسها)!

وَفْقاً لِمَا تقدَّم وحرصاً من الإدارة الأمريكية بثوبها الجديد شكلاً، والقديم إستراتيجية وسياسة فعلية في العراق، فإن الخِيار الأمريكي ـ فيما يبدو ـ هو استمرار الأوضاع على ما هي عليه؛ أي: استمرار العملية السياسية التي أنشئت في عام (٢٠٠٣)؛ لإعطاء الانطباع الكاذب والخادع بنجاح (الديمقراطية المزعومة) وحِفْظ ماء الوجه و تأمين سيل (ماء) النفط، وتأمين الخروج الآمن من العراق بعيداً عن الهزيمة المعلنة، والاستفادة من نتائج الاتفاقية طويلة الأمد (الانتداب الأمريكي)؛ لتامين المصالح في المنطقة وإقناع الشعب الأمريكي المغرَّر بانتهاء الخطر القادم من العراق وإزالة عقدة الخوف المتوطنة في مجتمعهم والاستعداد لفتح صفحة جديدة من صفحات الخطر المهدِّد لنمط الحياة الأمريكية.

والذهاب بعد ذلك نحو مجلس نواب تتوزعه خمس أو ست كتل رئيسة بنِسَب أصوات متقاربة لا تتيح لاثنتين منها أو ثلاث تشكيل حكومة بمفردها؛ إلا إذا كانت هناك ترتيبات أمريكية لضمان توزيع مناسب للقوة بينها؛ بحيث يحتاج الجميع إلى الجميع، ويحتاج الجميع إلى الأمريكي (صديق الجميع). وفي ضوء ذلك تُشَكَّل حكومة توافقية جديدة. ولكنها هذه المرة على أُسُس توافقية محكومة بضمان المصالح المتقاطعة داخل العراق وفي محيطه الإقليمي ومضبوطة أمريكياً؛ لتحكي في الظاهر صورة التوافق العراقي المصطنع وتغذِّي صورة الديمقراطية الزائفة، وتحقِّق في الباطن ظروف التعامل المناسبة مع مقتضيات اتفاقية الإذعان طويلة الأمد (الانتداب). وهكذا يعود الأولاد (الأمريكان) إلى منازلهم وعلى العراق والمنطقة السلام.

هذه هي - باختصار - الإستراتيجية الأمريكية والرؤية الحاضرة في العراق الآن؛ كما تظهر من نسق التعامل

الجاري الآن، مع إدخال بعض (المحسِّنات السياسية) من قبيل وضع الحلول الكفيلة (المصدات) لمنع الطرف الإقليمي اللاعب بقوة في العراق (إيران) من الاستفادة من الأوضاع العراقية بالطريقة نفسها التي كان يستفيدها خلال السنوات السابقة؛ بحيث طغت منفعته وقدرته على تحقيق مصالحه على قدرة اللاعب الأمريكي في كثير من المجالات؛ بفضل أذرعه الحاكمة وغير الحاكمة في العراق.

والمخطط الأكثر توقعاً لتحقيق هذا الأمر وَفْقَ الرؤية الأمريكية وتفادي الأعراض الجانبية، هو: ترتيب سير الانتخابات كما هو معتاد في المراحل السابقة، ولكن هذه المرة وَفْقَ صيغة: لا غالب ولا مغلوب، وتجنُّب الوقوع في فخ الغالبية النيابية المدعومة أمريكياً التي أمسكت منذ عام (٢٠٠٥) بخناق العملية السياسية ومعاقد التحكم فيها، وصبَّت جهودها أخيراً في مصلحة الطرف الإقليمي المتقدم الذِّكر.

وقد جرى تجربة هذه الطريقة في انتخابات مجالس المحافظات عام (٢٠٠٩)؛ حيث وُزِّعت الأصوات والمقاعد في عدد من المحافظات (ولا سيما في محافظة الأنبار) على القوى السياسية على الرغم منها، وبغَضِّ النظر عن نِسَب الأصوات الحقيقية التي أفرزتها الانتخابات في تلك المحافظات؛ في محاولة لضبط الوضع الأمني الهش في المحافظة، والذي كان الاحتلال بأَمَسِّ الحاجة إليه في حينها؛ لضمان تبجُّحه بنجاح تجربة مكاتب الإسناد (الصحوات).

مؤشرات مهمة:

لا بد لنا ختاماً أن نؤكد على عدد من المؤشرات المهمة المستخلصة من المشهد العراقي بشكله العام، والمشهد الانتخابي منه بخاصة؛ لِمَا لها من أهمية بالغة في تكوين ملامح الصورة الحقيقة لخلفية الأحداث الجارية في العراق، وهي:

١ – افتقار العملية السياسية الدائم إلى الداعم الأمريكي، وعدم قيامها بنفسها وبقواها الذاتية وحاجتها المستمرة لمواسم (الحج) التي يقوم بها المسؤولون الأمريكان لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. وزيارة بايدن الأخيرة في أواخر (كانون ثاني/يناير) تأتي في هذا السياق؛ وإن أُعلِن أنها مُعَدٌّ لها منذ زمن، وأنها غير معنية بهذا الموضوع.

٢ – لجوء القوى السياسية بمختلف أطيافها وخلفياتها إلى (التبرقع) بالبرقع الوطني محاكاة لنبض الشارع والتجمل بالشعارات الوطنية، متخذة لذلك سبلاً متعددة، من أبرزها: (تجميل) الصور الجماعية الملتقطة للكتل في مهرجاناتها المعلنة بأسماء وصور من أطياف ومكونات أخرى، في محاولة لرسم انطباع خاطئ عند المتلقي، الذي لم تتطلِ عليه هذه المحاولات وكان أكثر وعياً منها ومن لاعبيها.

٣ – سعي المتغلبين على العملية السياسية والمتنفذين فيها إلى (لفظ) جهات وأسماء إلى خارج العملية السياسية بعد انتفاء الحاجة إليهم، وهو ما ولَّد المشكلة الأخيرة من سلسلة مشاكل العملية الانتخابية التي سبق الإشارة إليها، وهي: قضية استبعاد هيئة المساءلة والعدالة وريثة هيئة اجتثاث البعث عدداً كبيراً من المرشحين للانتخابات، مستندة في قرارها هذا إلى قانون المساءلة والعدالة الذي أسهم فيه وشرعه غالب من يشملهم الآن قرار الاجتثاث؛ وهو أمر طالما نبهت إليه القوى المناهضة للاحتلال وحذَّرت منه القوى التي منحت العملية السياسية (المشروعية) التي أرادتها وأتاحت لها الزعم بمشاركة جميع العراقيين في الخِيار السياسي المستظل بخيمة الاحتلال.

٤ – تنامي شعور الرفض الوطني للعملية السياسية بين العراقيين إلى حد كبير وتبنِّي الشعور العراقي العام، والتعالي على البعد الطائفي عند الكثيرين، والتأكيد على كون الاحتلال أصل المعاناة التي يعيشها العراقيون، والمطالبة الملحة بضرورة خروجه. فضلاً عن وعي المواطن بالمخاطر الإقليمية ولا سيما الإيرانية. وقد عبَّرت عن هذا الأمر أبلغ تعبير مشاعر الغضب الجماهيري على مدى العام الفائت؛ وهي المشاعر التي وجدت مُتَنَفَّساً لها في التعبير عن الحَنَق الذي اكتنف الشارع العراقي بسبب الأوضاع الأمنية السيئة وحوادث التفجيرات الضخمة التي يكاد لسان حال الشارع العراقي ومقاله يتفقان على القول: إن الذي يقف وراءها هو النظام السياسي الحاكم وحكومته الرابعة وأحزابها المتنفذة.

كما تجلَّت المعطيات السابقة في امتداد الرفض الشعبي للواقع الحالي إلى جنوب العراق وظهور بوادر التململ في الشمال وبدايات تراجع الطغيان السياسي للحزبين الحاكمين هناك، واضطرار الكثير من أبناء الشمال إلى الهجرة إلى الغرب بشتى الطرق (المشروعة منها وغير المشروعة) هرباً من الواقع السيئ والهيمنة الطاغية على مجريات الحياة هناك.

رقم الترخيص ٢١٤/١٠٣٩ تحت إشراف المؤسسة العامة للتدريب الفني والمهني

كن خطيب زمانك

قالوا عن الدورة ...

لا خوف من الإلقاء بعد اليوم..

مواعيد الدورات:

الرياض : ١٤٣١/٣/٦هـ

الخبر :١٤٣١/٤/٢٥هـ

جدة : ١٤٣١/٣/٢٠هـ

الخطيب الصغير:

دورة إلقاء للأبناء : آداب اجتماعية + علوم رجال + لبس المشلح

دورة مهارات الإلقاء تحقق:

- تهيئة خريجي الجامعات للتطبيق والتدريس.
- كيفية إعداد الكلمات والمحاضرات المقنعة والمؤثرة.
- كسر حاجز الهيبة من التحدث أمام الآخرين.
- التعرف على أسرار التاثير.
- تنمية مهارات الإصغاء.
- التعامل مع الأسئلة المفاجئة.

الدورات معتمدة

بعد تنفيذ **٢٥٠** دورة

وتدريب **١٠,٠٠٠** متدرب ومتدربة

وتقديم **٨** دورات دولية

وتقديم **٤٥** برنامجاً لكبار الشخصيات

من إصداراتنا :

كتاب لماذا نخشى الإلقاء؟

البوم شريط : فن الإلقاء

إصداراتنا متوفرة لدى مكتبات: جرير و العبيكان

مركز الإلقاء

أول مركز متخصص في الإلقاء والمواجهة

www.alelqa.com

الرياض هاتف : ٠١/٤٧٧٩٩٩٢

جوال: ٠٥٠٤٢٥٤٧٩٤/٠٥٣٣٣٩٥٩٣٣

مستقبل السودان...
بين يدي الانتخابات والاستفتاء

وليد الطيب

تأتي الانتخابات السودانية في أبريل ٢٠١٠م، لتكون إحدى الحلقات الفاصلة في تاريخ هذا البلد العربي المسلم في هويته وثقافته وحضارته، والإفريقي في انتمائه الجغرافي ومجاله السياسي والاقتصادي.

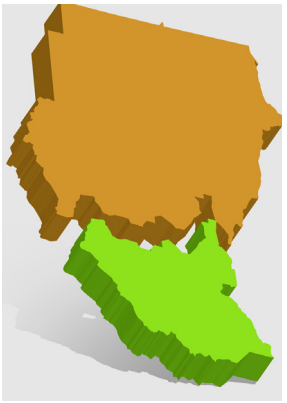

لا يُخفي أعداء هذا البلد الفريد رغبتهم في أن يخرج السودان من هذا الارتباط الحضاري ويلحق بحظيرة الدول الإفريقية التي مُسِخت هويتها الثقافية، وقد ارتفع صوت منكراً قبل سنوات. يقول: (آن لهذا البلد أن يحكمه حاكم غير عربي وغير مسلم)، ولا يضير أحداً من أهل السودان أن يتولى السلطة فيه غير العربي؛ فقد ألفوا ذلك وعرفوه؛ فقد حكم جعفر النميري (١٩٦٩ - ١٩٨٥م) وهو من نوبيي شمال السودان، وشهدت فترة حكمه إعلان تطبيق الشريعة الإسلامية وإغلاق بيوت الخنا ومحالِّ الخمر.

صحيح أن الأسماء المرشحة لمنصب رئيس الجمهورية قد خَلَت من غير المسلمين، إلا أن القوى المشاركة فيها، والتي تتخفَّى خلف أسماء مرشحين مسلمين لا تخفي رغبتها في تغيير السودان تغييراً جذرياً عن طريق الإحلال والإبدال: إحلال هوية أخرى غير الهوية التاريخية للسودان، وإبدال كل الأوضاع القائمة بأوضاع جديدة وشخصيات جديدة. وإن عجزت عن الوصول لذلك في الانتخابات القادمة، فإن الخطة (ب) ستتحول للخطة الأساسية وعندها سيبدأ الفصل الأخير في بقاء السودان موحداً، وقد لا يقف الأمر عند انفصال الجنوب الذي يشكل (ثلث مساحة السودان)، بل قد يمتد إلى تقسيم شمال السودان إلى دويلات عديدة.

تأتي الانتخابات المقبلة محمَّلة بأغلب مشكلات السودان المعاصر؛ فبعض المرشحين لمنصب رئيس الجمهورية ومنهم (ياسر عرمان) مرشح الحركة الشعبية لتحرير السودان نصَّبوا من أنفسهم لساناً للمهمَّشين هنا وهناك، وفي المقابل ما تزال الحركات المتمردة في دارفور تخوض حرباً ضد الحكومة المركزية. وبينما يفاوض بعضها في الدوحة منذ ٢٤ يناير ٢٠١٠م، يمضي (عبد الواحد محمد نور) زعيم حركة تحرير السودان مقاتلاً وهو يرفع شعار (تقرير المصير) لإقليم دارفور المسلم.

وفي المقابل يخوض الرئيس السوداني (عمر البشير) الانتخابات، وكأنه يقاتل على جبهتين: منافساً لمرشحي القوى والأحزاب الداخلية، وعلى الصعيد الآخر يقف المجتمع الدولي خصيماً للرئيس، وتلاحقه اتهامات المحكمة الجنائية الدولية بإرتكاب جرائم ضد الإنسانية في دارفور.

ويمثل جنوب السودان جوهر أزمة السودان التاريخية، وفي هذه الانتخابات (في أبريل ٢٠١٠) تمثل الحركة الشعبية وطبيعة مشاركتها في الانتخابات محدِّداً رئيساً لمستقبل السودان؛ لأن نتيجة هذه الانتخابات تؤثر بصورة مباشرة على استفتاء الجنوبيين على خيار الوحدة والانفصال في يناير ٢٠١١م.

بذور الأزمة:

بعد سنوات قلائل من انتصار قوات الاحتلال البريطاني على جيوش الدولة المهدية السودانية في سفح جبل كرري شمال أم درمان في سبتمبر ١٨٩٨م، عمدت الإدارة الاستعمارية البريطانية أول الأمر إلى فصل السودان عن محيطه العربي من خلال فَصْله عن مصر بعد انفجار الثورة المصرية ١٩١٩م؛ خشية أن تنتقل روح المقاومة إلى شمال السودان، ومن ثَمَّ إلى جنوب القطر، ومنه إلى المستعمرات البريطانية في شرقي إفريقيا ومنطقة البحيرات، ثم عمل الاستعمار على إحداث فصل كامل بين الشمال والجنوب. ولإتمام ذلك أخذت إدارة المستعمر في نشر النصرانية في الجنوب ثم سدِّ الجنوب بسَنِّ قانون الجوازات الذي عُرِف بقانون المناطق المقفولة سنة ١٩٢٢م، واتخذت سياسية تهدف إلى عزل الجنوب عن أي مؤثرات إسلامية وعربية لأَبْعَد حدٍّ ممكن؛ فلا تستخدم في المديريات الجنوبية من المآمير (ضباط الشرطة) غير السود؛ إلا إذا دعت الضرورة القصوى لذلك. وإذا تحتم استخدام مآمير مصريين في الجنوب، فإن الإدارة الاستعمارية كانت تتحرى أن يكونوا من الأقباط ما أمكن... وجعلت العطلة الأسبوعية يوم الأحد بدلاً عن يوم الجمعة وشجعت الجمعيات التبشيرية المسيحية، ومنعت السودانيين الشماليين والمسلمين من المصريين والنيجيريين من دخول الجنوب، وفي المقابل شجعت دخول الإغريق اليونانيين المسيحيين، بل منعت الشماليين من أصطحاب زوجاتهم الجنوبيات وأبنائهم منهنَّ إلى الشمال، وعملت الإدارة الاستعمارية أيضاً على محو اللغة العربية من الجنوب؛ بإجبار الجنوبيين الذين يحملون أسماء عربية على العودة إلى أسمائهم القَبَلية القديمة وعملت الكنيسة على تعميدهم ومَنْحهم أسماءً أوروبية وفضلت الإدارة بقاء الجنوبيين على عادتهم في التعري على تزييهم بالثياب العربية، بل كانت هذه الأزياء العربية تُحرَق علناً في الأماكن العامة.

ولم يتوقف التمييز بين جانبي القطر على هذه الرسوم الثقافية، بل تعدَّاها إلى تمييز في الأجور وشروط الخدمة في الوظائف العامة؛ حيث عمد المحتلون لإنقاص أجر الموظف أو العامل الجنوبي عن أجر نظيره الشمالي في المهنة ذاتها[1].

أما على المستوى الإقليمي، فالتباين بين الشمال والجنوب في التنمية والإعمار كان كبيراً؛ بحيث لا يمكن المقارنة بينهما في التعليم ومؤسساته والصحة ومرافقها والتنمية وبِنيَتِها التحتية وفي كل أوجه الحياة.

وقبل أن يخرج المحتل الإنجليزي بعام، بدأ التمرد المسلح الأول في جنوب السودان في عام ١٩٥٦م؛ فلم يستقر قرار الحكومات الوطنية بسببه. وتقوم الحكومات في شمال البلاد وتسقط والتمرد ماضٍ في اشتعاله، ملتهماً موارد البلاد وبَنِيها من الشمال والجنوب... وأخذت الأطراف الدولية تتدخل في هذا الصراع الداخلي، واستعانت الحركات المتمردة بالشرق الشيوعي (سابقاً) حيناً من الدهر ثم أخيراً ارتمت في الحضن الأمريكي.

أما الحكومات الوطنية، فقد سقطت الحكومة الديمقراطية الأولى قبل أن تُكمل عامين وأعقبتها حكومة عسكرية في نوفمبر ١٩٥٨م، وبدأت هذه الحكومة برئاسة الفريق إبراهيم عبود مشاريعاً للتنمية، وبذلت جهداً مقدَّراً في توحيد النظام التعليمي وتعميم اللغة العربية في جنوب السودان، وتنظيم التبشير المسيحي في البلاد وطَرْد القساوسة الأوروبيين، وسرعان ما هاج عليها الغرب؛ حتى سقطت في عام ١٩٦٤م، ومضت الدائرة الشريرة بانتخاب حكومة ديمقراطية عاجزة عن إيقاف نزيف الحرب وعن الوفاء باحتياجات التنمية؛ فعاد العسكر إلى السلطة في ٢٥ مايو ١٩٦٩م، ولكن هذه المرة بتأييد من الحزب الشيوعي السوداني، ثم انقلب قائد الثورة جعفر النميري على الحزب الشيوعي فأعدم قادته وشرَّد عضويته ثم انقلب على طائفة أنصار المهدي السوداني؛ فقضى على إمام الطائفة الهادي المهدي – رحمه الله – وأقبل على جنوب السودان ووقَّع مع الحركة المتمردة برئاسة جوزيف لاقو اتفاقية أديس أبابا للسلام عام ١٩٧٣م وأُوقفت الحرب ١٠ سنوات، ثم اندلع التمرد في الجنوب من جديد وسقطت حكومة النميري بانتفاضةٍ التحم فيها

عملت الكنيسة على تعميدهم ومَنْحهم أسماءً أوروبية وفضلت الإدارة بقاء الجنوبيين على عادتهم في التعري على تزييهم بالثياب العربية

(١) للمزيد راجع كتاب: الإسلام في السودان، ورقة: سياسة الإدارة البريطانية والجمعيات التبشيرية المسيحية في مديريات السودان الجنوبية، البروفيسور مدثر عبد الرحيم، ص ٢٣١ – ٢٥٥، دار الأصالة ، الخرطوم، ٢٠٠٤، ط٢

الشعب مع القوات المسلحة بقيادة محمد حسن سوار الذهب ١٩٨٥م، ثم عادت السلطة للأحزاب التي عادت لفوضاها وضعفها، واستأسد التمرد وأصبح يستولي على المدن في جنوب السودان ويُسقط الطائرات السودانية وهُرعَت الجبهة الإسلامية القومية (حزب المعارضة آنذاك) إلى الجيش وتمكَّنت من الاستيلاء على السلطة وتنصيب العميد عمر البشير رئيساً للجمهورية.

وخلال عشرين عاماً أمضتها في السلطة تمكَّنت الحكومة من إحداث بوادر نهضة اقتصادية وصناعية؛ باستخراج النفط وإيقاف الحرب عبر اتفاقية السلام الشامل بين الشمال والجنوب ٢٠٠٥م.

وقد سُمح للسودان بالوصول إلى حالة السلام الهش بعد سلسلة طويلة من إجراءات الاحتواء من خلال جيرانه، والإضعاف الداخلي، والعزل عن محيطه العربي والإسلامي، وقد ألقت هذه الإجراءات الثلاثة بظلالها على تفاصيل اتفاقية السلام التي توصلت إليها الحكومة السودانية في مدينة نيفاشا الكينية.

وقد مُنِحَت الحركة الشعبية المتمردة حكم جنوب السودان بصورة شبه كلية وتشارك في الحكومة الاتحادية بنسبة ٢٨ ٪، وأضافت الحركة إلى نفسها وظيفة زعيم المعارضة.

والآن بعد مرور أربع سنوات على هذه الاتفاقية، يخوض الرئيس البشير وحزبه أول انتخابات تعددية حقيقية، وهي انتخابات فاصلة في تحديد مستقبل التجربة ومستقبل الوطن.

الحركة الشعبية والأجندة الاستئصالية:

هي حركة بدأت ذات توجهات اشتراكية في مايو من عام ١٩٨٣م قبل إصدار القوانين الإسلامية في سبتمبر ١٩٨٣م، ولكن بعد انهيار الماركسية العالمية وسقوط نظام منغستو هايلا مريام الشيوعي في إثيوبيا، تحولت إلى مخلب أمريكي تنتاش به السودان، ومن أول بيان أصدرته الحركة بيَّنت غايتها النهائية وهدفها الكبير فيه؛ ففي المادة (٢٢) الفقرة (ج) كتبت: (إن قوة الجيش الشعبي لتحرير شعب السودان ستنمو وتتعاظم؛ لتصبح قوة تقليدية قادرة على تحطيم جيش السودان الرجعي). وهو يمثل تصريح قرنق الذي ذكرناه آنفاً عن خروج العرب والمسلمين من السودان ذاته، كما خرجوا من الأندلس، وقوله: «هدفنا ليس احتلال أجزاء من الجنوب أو في الشرق، بل تحرير البلد ككل[١].

ولهذا السبب وحده لم يضع قرنق السلاح بعد سقوط حكومة النميري وقيام حكومة الانتفاضة: «وكان من المؤمَّل والمتوقع أن تضع الحركة الشعبية السلاح وتأتي قيادتُها للجلوس حول مائدة التشاور مع قوى الانتفاضة الأخرى... ومن ثَمَّ دخولها التجربة الديمقراطية بوسائلها المعروفة، باعتبار الحاجة لتطور العمل الوطني نحو الأهداف التي أعلنت عنها (الحركة) سابقاً، وما كان لها - بالضرورة - أن تلبِّي بالوسائل نفسها بعد تغيُّر الأوضاع السياسية في البلاد إلى الشكل الديمقراطي. ولكن فوجئت قوى التجمع الوطني وهي تستمع إلى رأى العقيد جون قرنق في ١٩٨٥/٤/٩م وهو يصف السلطة العسكرية الجديدة بـ «مايو ٢» ويعلن استمراره في رَفْع السلاح رغم إعلان وَقْف إطلاق النار الذي أصدره المجلس العسكري في حينها»[٢].

ولما جاءت الإنقاذ أصبحت الحركة الشعبية هي القاسم المشترك والقبلة الوحيدة التي تتلاقى عندها الأحزاب وتتوجه إليها، واستطاعت لأول مرة المشاركة في حلف مع المعارضة الشمالية؛ لتُسبَغ عليها الشرعية وتسوَّق عربياً وإسلامياً، ولتجد التعاطف داخلياً من أتباع تلك الأحزاب والمتظلمين من الحكومة.

وفي ٢٠٠٠/٥/١٦م حدد جون قرنق مسارات لحركته، وهي:

الأول: ضمُّ جنوب كردفان وجنوب النيل الأزرق ومنطقة أبيي للجنوب وإخضاع الجنوب الموسَّع لحكم الجيش الشعبي واقتسام السلطة المركزية بالتساوي مع السلطة الحالية لمدة عامين ثم يمارس الجنوب حق تقرير المصير.

الثاني: إسقاط النظام في الخرطوم واستلام التجمع الوطني الديمقراطي السلطة (قوات التجمع الوطني الفعلية هي الجيش الشعبي).

الثالث: أن تعم المناطق «المحررة» كل السودان بفعل الزحف، وتصبح الحركة الشعبية الحزب الحاكم في البلاد وجيشها جيش البلاد.

ويُلاحَظ أن هذه المسارات صالحة لأن تتحقَّق عبر انقلاب عسكري أو بالتفاوض السياسي أو بالتحالف الانتخابي مع استصحاب كافة التغييرات الاجتماعية والسياسية السودانية، وأنه بتوقيع الحكومة والحركة لاتفاق الترتيبات الأمنية في ضاحية نيفاشا الكينية، نجد أن الحركة

(١) الشرق الأوسط: ١٤١٧/٩/١١هـ.

(٢) مجلة الثقافة الوطنية السودانية: مارس ١٩٨٩م.

اســـتطاعت دفع عجلة السياسة في مســـاراتها تلك، ولقد سألت مسؤولاً حكومياً كبيراً: هل الاتفاق الأمني يسير وَفْق محددات قرنق؟ فأجاب: (الاتفاق الأمني فيه ثغرات خطيرة جداً ويكاد أن يضع الحالة السياســـية والعســـكرية في هذه المســـارات)؛ إذ ضَمنت الحركة استيعاب جيشها في الجيش الســـوداني عبر ما يُعرَف بالجيش المشترك الذي قِوامه ٣٩ ألف مقاتل، والـــذي تُمَثَّل الحركة فيه بـ: ١٩,٥ ألف جندي بالإضافة لباقي قوَّاتها جنوب خط ١٠ شمال (حدود الجنوب في ١٩٥٦/١/١) وإذا أخذنا في الاعتبار أن نسبة مقدرة من جنود الجيش السوداني الحالي من جنوب السودان، فإنه إذا اســـتقر الاستفتاء على وحدة السودان وتم استيعاب كل ذلك العدد وخُفِّض الجيش السوداني كما قُرِّر في اتفاق نيفاشا، فإن نسبة الانتساب الجغرافي للجيش ستكون مختلة لصالح جنوب السودان بالجملة.

مصادر دعم الحركة:

هي الدول الغربية وعلى رأسها أمريكا، كما أسلفنا. يقول الأستاذ (علي عثمان محمد طه) النائب الأول لرئيس السودان: (إن السياسة الأمريكية حيال السودان يحركها تياران:

الأول: يدعو للتدخل المباشر في السودان.

والثاني: يديـــره الكونغرس، ويتخذ خطاً يركز على دعم المتمردين)[1].

بالإضافة للدعم الإســـرائيلي للحركة، كما صرح بذلك أمـــين الجامعة العربيـــة؛ إذ يقول: «إننا نملـــك أدلة موثقة على التدخل الإسرائيلي والتورط الصهيوني في دعم حركة التمرد»، ويقول الدكتور حسن مكي: «إن إسرائيل مدت التمرد بـ ٢٠٠ ألف رشـــاش عوزي و٥٠ مليون دولار»[2]. ويؤيد ذلك ما نقلته جريدة أخبار اليوم فـــي ٢٠٠١/١/٥م عن الأهرام العربي، من تدفُّق ثمانية آلاف خبير إســـرائيلي إضافة إلى أجهـــزة المخابرات إلى حوض النيل والقرن الإفريقي وكذلك تَمَثَّل الدعـــم الإســـرائيلي للحركة في تســـليحها وتدريب أفرادها ومدِّها بالمال وتوفير الدعم الأدبي لها في إفريقيا؛ لمتانة علاقتها بيوغندا وكينيا وإرتريا التي أجَّرت ٦ جزر لها، ورواندا وبوروندي لمدها لهما بالأسلحة، ويقال: (إن التوتسي هي القبيلة التي تاهت من بني إسرائيل في إفريقيا) ويطلَق الآن على رواندا: «إسرائيل منطقة البحيرات».

(١) مجلة السنة، العدد ٩١ شعبان ١٤٢٠ هـ.

(٢) مجلة دراسات إفريقية، العدد ١٨ يناير ١٩٩٨م.

والهـــدف من الدعم الإســـرائيلي للحركة تأمين منطقة البحيرات؛ حيـــث منابع النيل، وتأمين منطقة البحر الأحمر من خطر الأصولية الإسلامية، كما جاء في الواشنطن بوست على لسان مسؤول إسرائيلي.

والهدف الثاني: أن إســـرائيل تعتقـــد أن منطقة أعالي النيل هي المكان الذي دُفِن فيه (تابوت موسى)، وأن المنطقة بين الخرطوم وملكال، هي منطقة مقدسة؛ لأن التابوت جرى عكس تيار النهر من الخرطوم (مجمع البحرين) جنوباً حتى منطقـــة ملكال؛ حيـــث دُفن هناك وذكر الخبير الســـوداني الفلســـطيني الأصل الدكتور «أسامة الأشقر» أستاذ الثقافة الإسلامية بجامعة الخرطوم أن هنالك محاولات استكشاف بالإشعاع بحثاً عن التابوت جرت في المنطقة في عام ١٩٩٨م وهو ما أدى إلى نفوق الحيوانات المائية.

الحركة سياسياً:

من أخطر تحولات السياسة السودانية في هذه المرحلة بروز الحركـــة وتمركزهـــا كقطب الرحى لبقيـــة الأحزاب السودانية، بل حتى منظمات المجتمع المدني وكافة الفصائل الفكرية العَلمانية: إبتـــداءً من تحالفها مع أحزاب المعارضة الشمالية فيما عُرف بـ (التجمع الوطني الديمقراطي) مروراً باتفاق شـــقدوم ومذكرة التفاهم مـــع (حزب الأمة) وإعلان لندن مع (المؤتمر الشـــعبي) المحســـوب على الإســـلاميين ومروراً بإعـــلان القاهرة مع (حزب الأمة والحزب الاتحادي الديمقراطي) ثم المشاركة السياسية الآن مع (المؤتمر الوطني). وإذا كان حزب المؤتمر الوطني برئاســـة الرئيس البشير هو المحور الذي تدور حوله السياسة السودانية في هذه الفترة، فإن الحركة الشـــعبية أصبحت قطـــب الرحى النظير الذي يدور حوله المعارضون للحكومة السودانية القائمة والراغبين في إلحاق هزيمة ساحقة بالمؤتمر الوطني.

الانتخابات ومستقبل السودان:

في أبريل ٢٠١٠م الـــذي لا تفصلنا عنه إلا بضعة أيام، سيدخل السودان مرحلة جديدة بلا شك، تختلف كلياً عن كل تاريخ السودان السياسي المديد.

والأبـــواب مفتوحة على كل الاحتمالات، والتحالفات بين القوى السياســـية الســـودانية، وتُعَد القوتان المحوريتان في الاســـتحقاق الانتخابي القادم، هما: حزبـــا المؤتمر الوطني برئاسة الرئيس السوداني (عمر البشير)، والحركة الشعبية

الجنوبية (المتمردة سابقاً).

وعلى أساس مواقف هذين القطبين ستتحدد طبيعة المرحلة المقبلة، وهناك أربعة سيناريوهات متوقعة في الانتخابات المقبلة، تختلف في كلٍّ منها النتائج الكلية والمخرجات النهائية اختلافاً جذرياً باختلاف اختيارات القطبين:

السيناريو الأول: تحالف القطبين:

وهو أمر وارد بالنظر للتجربة السياسية للحزبين؛ فالحركة الشعبية قَبِلت التحالف مع المؤتمر الوطني وإلقاء السلاح والعودة للداخل بعد أكثر من ٢٢ سنة من التمرد على السلطة المركزية، وشاركته في تقاسم الثروة والسلطة والنفوذ في السودان، طوال الأربع سنوات الماضية، واستطاعا - رغم المناوشات بينهما - تجاوز كثير من العقبات التي وقفت أمام تنفيذ اتفاق السلام بين الشمال والجنوب.

وقد صرح وزير الدولة بوزارة الإعلام د. كمال عبيد القيادي بالحزب الحاكم بأنه: من غير المستبعد أن يتحالف المؤتمر الوطني والحركة الشعبية. وبمثل هذا التصريح تحدَّث الأمين العام للحركة الشعبية باقان أموم.

وهذا السيناريو، يجد قبولاً من الحادبين على وحدة البلاد، والحفاظ عليها من الانزلاق في حرب أهلية مرة أخرى، حال سفور الانتخابات عن نتائج لا ترضي القوتين السياسيتين الكبيرتين في السودان: المؤتمر الوطني والحركة الشعبية.

وتشير طبيعة ترشيحات الطرفين للمناصب الرئاسية (رئاسة الجمهورية، ورئاسة حكومة الجنوب) إلى إمكانية حدوث هذه التسوية؛ حيث ترشح الرئيس عمر البشير رئيس حزب المؤتمر الوطني لمنصب رئيس الجمهورية مرة أخرى بينما انسحب سلفاكير جنوباً وفضَّل الاحتفاظ بمنصب رئيس حكومة الجنوب وترشيح ياسر عرمان ذي الأصول العربية المسلمة لمنصب رئاسة الجمهورية عن الحركة الشعبية؛ وهو ما يجعل التسوية ممكنة.

ويحفظ هذا السيناريو حال اختياره ونجاحه الأجواءَ سلميةً وإيجابيةً عند قيام استفتاء الجنوبيين على الوحدة أو الانفصال في يناير ٢٠١١م.

السناريو الثاني: تنافس الشريكين وتكتلهما:

وهو السناريو الجاري على السطح السياسي الآن؛ حيث يعمل كلٌّ من المؤتمر الوطني والأحزاب الموالية له على زيادة فرص فوزه بأكبر قَدْر من المقاعد في البرلمان الاتحادي والبرلمانات الولائية.

ويعتمد المؤتمر الوطني الآن على الاستنصار بكل القوى الاجتماعية والدينية والسياسية في الشمال، وفي الوقت ذاته يحشد أصدقاءه في جنوب السودان؛ لمنافسة الحركة الشعبية في جنوب السودان ومقاسمتها أصوات الجنوبيين المقيمين في شمال السودان، والذين لهم أشواق وتوجهات وحدوية.

بينما تعمل الحركة الشعبية على تجميع بعض الأحزاب الجنوبية حولها، ويدعو «باقان أموم» الأمين العام للحركة الشعبية إلى ما أسماه: (تحالف عريض يضم النوبة، والجنوبيين، والانقسنا، والفور، والحلفاويين، في أقصى الشمال، والهدندوة في الشرق؛ لانتزاع حقوقهم كاملة من الجلابة)، بجانب دعوة الحركة الشعبية للأحزاب السياسية لتكوين تحالف معارض وقد عُرفَت نواة هذا التحالف بـ: (تحالف جوبا).

والحركة الشعبية تسعى للاستعانة بالأحزاب السياسية الشمالية الكبرى المعارضة واختبار إمكانية تأسيس تحالف انتخابي معها، ولا يُخفي قيادات بالحركة الشعبية قلقهم من هذا الاتجاه باعتبار أن القوى السياسية الشمالية الكبرى (حزب الأمة والحزب الاتحادي والمؤتمر الشعبي) لا تُخفي تحفظاتها على اتفاقية السلام، كما لا تشعر بضرورة الالتزام بمقرراتها التي لم تشارك في صياغتها.

ومع ذلك فإن هذا السناريو مغرٍ للحركة الشعبية؛ لأنه قد يمكِّنها - بالتعاون مع القوى السياسية الشمالية - من هزيمة المؤتمر الوطني الحزب الحاكم، وقَطْع الطريق أمام محاولات أسلمة الدولة والمجتمع ثم فرض نموذج السودان الجديد، وهو: سودان عَلماني ذو توجهات إفريقانية.

وخطورة هذا السناريو تتمثل في موقف الطرف الخاسر، سواء أكان المؤتمر الوطني أو الحركة الشعبية؛ فمن الممكن جداً خسارة حزب المؤتمر الوطني الذي يقوده الرئيس البشير للأغلبية البرلمانية ولرئاسة الجمهورية نفسها، وتتقدم قوى سياسية أخرى معادية للتوجه الإسلامي في البلاد، وموالية للغرب، كالحركة الشعبية لتحرير السودان.

وفي حالة خسارة المؤتمر الوطني؛ فإنه لا يمكن أن يسلِّم بالهزيمة وهو الذي سعى لإعادة تشكيل الدولة، بل الاستيلاء على السلطة في يونيو ١٩٨٩م. وكان السبب في الانقلاب هو ضعف الحكومة الحزبية في التصدي لتمرد الحركة الشعبية؛ فلا يُعقَل أن يسلِّمها السلطة اليوم على

طبق من ذهب؛ بعد أن استخرج النفط وحققت البلاد واحداً من أفضل معدلات النمو لعدد من السنين، وهو أيضاً الحزب الذي يتبع له كبار قادة الجيش والأمن والمخابرات ورجالات الاقتصاد؛ أي: ستُفتَح كل الخيارات أمام الإسلاميين للتعامل مع الواقع الجديد.

وفي المقابل، فإن الحركة التي ألفت التمرد على الدولة المركزية في السودان لن تتعامل بالقبول والرضا مع نتيجة الانتخابات؛ إن لم تكن في صالحها، وهي الحركة التي رفضت نتيجة التعداد السكاني التي أُعلنت في مايو ٢٠٠٩ حينما أظهرت أن عدد الجنوبيين في العاصمة الخرطوم (وهي الثقل السكاني في السودان) أقل مما توقعت.

إن الحركة الشعبية مؤسسة عسكرية ضخمة في مبدئها، وما تزال كذلك، ومن باب خلفي بعيد عن عين الخرطوم، بدأت حكومة الجنوب «الحركة الشعبية لتحرير السودان» في توظيف أكثر من ٦٠ ٪ من عائدات البترول (أي: ٦٠٠ مليون دولار تقريباً) في إعادة تأهيل جيشها؛ بتزويده بكل المعدات الحربية التي كانت تنقصها من قَبْل؛ لحسم معركتها الشاملة لتحرير السودان القديم من حكم الجلابة (ذوي الأصل العربية والإسلامية)، وإحلال السودان الجديد محله، وقبل عام كشفت كينيا أنها أوقفت شحنات أسلحة في ميناء مامبسا، وتتضمن: أسلحة ثقيلة متطورة (٥٠ دبابة) كدفعة أولى لصفقات سلاح عقدتها الحركة الشعبية مع دول شرقية وغربية تشمل أيضاً: راجمات وطائرات ومدفعيات، والحركة الشعبية ماضية في عزمها العسكري؛ فقد نقلت صحف الخرطوم أن الحركة اتفقت مع شركة دينيل (من جنوب إفريقية) لتدريب ١٨٠ طيار و ١٢٠ مهندس طيران؛ ليكونوا نواة لقوات الجنوب الجوية.

ولشركة دينيل قدرات عسكرية عالية في مجالات متعددة وقد طورت مؤخراً صواريخ مضادة للمدرعات كما أن لها علاقات واسعة مع المؤسسات الأمريكية والبريطانية: كوكالة ناسا وبريتش إيرسبيس.

إنه أمر يدعو للقلق إذا ما نظرنا إلى احتمال خسارة الحركة الشعبية للانتخابات القادمة في ظل الحشد الكثيف للبارود، ولن تكون الحرب بين الشمال والجنوب حرباً قليلة الخسائر لأيٍّ من الطرفين هذه المرة.

كما أن الأوضاع في الشمال والجنوب قد تنفجر؛ حتى لو أعلن الجنوب انفصاله من جانب واحد من برلمانه بعاصمة الجنوب جوبا:

ففي الجنوب ما تزال القبيلة هي الوعاء السياسي والمؤسسة العسكرية، كما يبدو ذلك من شكل التكتلات السياسية داخل الحركة الشعبية (الوعاء السياسي الأبرز الآن في الجنوب)؛ حيث تصطرع القوى القبلية داخل أبنية الحركة الشعبية: كالصراع بين أبناء القبيلة الواحدة، مثل: صراع أبناء قبيلة الشلك، بين الأمين العام للحركة الشعبية باقان أموم ووزير الخارجية السابق د. لام أكول، والصراع بين دينكا بحر الغزال ودينكا بور، وينتسب رئيس حكومة الجنوب سلفاكير لدينكا بحر الغزال وينتسب زعيم الحركة الشعبية السابق جون قرنق موالابيه - في الغالب - إلى دينكا بور، وهناك صراع دموي بين الدينكا وقبيلة المورلي، ويدور القتال الآن بين النوير والدينكا وهناك صراع تاريخي بين الاستوائيين والدينكا؛ وقد سقط خلال عام ٢٠٠٩م فقط أكثر من ٢٥٠٠ قتيل في جنوب السودان، وهو معدل يفوق معدل القتلى أيام الحرب الأهلية.

أما الشمال؛ فالوضع ليس بأحسن حالاً من الجنوب؛ فدارفور قد تمزقت وستصبح بطاقة التصويت هناك هي القنبلة الموقوتة التي قد تنفجر عند إعلان أول نتيجة، وخاصة في المناطق التي تشهد اختلاطاً قبلياً، وخاصة المدن الكبرى: كنيالا والفاشر والجنينة وبقَدْرٍ ما العاصمة (الخرطوم)، وكذلك جنوب كردفان والمناطق المتاخمة لدارفور منها، ومثلها النيل الأزرق؛ حيث ما يزال في النفوس هناك بقايا صراع بين أهل المنطقة الأصليين كما يسمون أنفسهم وبين الوافدين، مع أَخْذنَا في الاعتبار تدفُّق السلاح لكل الأطراف والقوى (القبلية - السياسية).

السناريو الثالث: تأجيل الانتخابات:

وهو مطلب قوى المعارضة المتعددة، وقد قدَّمت المعارضة مقترحاً يوم السبت ٢٣ يناير ٢٠١٠م إلى لجنة حكماء إفريقيا بقيادة رئيس دولة جنوبي إفريقيا (ثابومبيكي)، ولم يجد هذا الطلب قبولاً عند لجنة الحكماء الأفارقة، كما لم يحظَ بقبول الحكومة السودانية أيضاً. ويقضي مقترح المعارضة بتأجيل الانتخابات إلى نوفمبر ٢٠١٠م، من أجل إحداث أوضاع تسمح بقيام انتخابات حرة ونزيهة.

عددت القيادية بحزب الأمة (د. مريم الصادق المهدي) في تصريح لها لـ: البيان مطالب المعارضة، وقالت: «إن قوى المعارضة أجمعت على أن استحقاقات قيام انتخابات حرة

ونزيهة غير متوفرة، وهي: تصحيح عيوب السجل الانتخابي، وتأكيد مشـــاركة دارفور في الانتخابات القادمة ورَفْع حالة الطوارئ بها، وتكوين مجلس قومي للإشـــراف على الإعلام الرســـمي، ومراجعة تكوين المفوضية، واستدامة السلام في الجنوب، والتحول الديمقراطي، وتجميد البنود القمعية في قانون الأمن الوطني»، على حد وَصْفها.

ولم تستبعد مريم الصادق «أن تلجأ قوى المعارضة لمقاطعة الانتخابـــات في حال عدم اســـتجابة الحكومة لهذه المطالب»؛ ولهذا الســـبب ظل هذا الخيار قائماً، كما أنه راجح أيضاً في حال فشـــل قوى المعارضة في الوصـــول لتحالف انتخابي مع الحركة مقبولاً في شروطه لدى الأحزاب الشمالية التاريخية، وهو أمر صعب.

وفي المقابل، يستبعد خبراء في الشأن السوداني، مقاطعة قـــوى المعارضة الشـــمالية للانتخابات القادمـــة، في حال مشـــاركة الحركة الشعبية. يقول (د. حسن حاج علي) عميد كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة الخرطوم لـ البيان: «إن أحزاب المعارضة الســـودانية ستشـــارك في الانتخابات القادمة مكرهة بعد إعلان الحركة الشعبية (القطب الرئيس في تحالف المعارضة) عن خوضها الانتخابات القادمة في كل المستويات وبدأت بإعلان أسماء مرشيحها.

ويقول أيضاً: «إن أحزاب المعارضة ظلت تهدِّد بمقاطعة الانتخابات ولكنها؛ كما في تصريحات (د. حســـن الترابي) زعيم المؤتمر الشـــعبي تربط موقفها من مقاطعة الانتخابات بموقف الحركة الشـــعبية، وهو ما انتفى الآن، وهو ما يعني بالضرورة مشـــاركة هذه الأحزاب مكرهـــة في الانتخابات القادمة» وأضـــاف: «إن أي مقاطعة في هـــذه الانتخابات، تعني: استمرار عزلة المعارضة عن التأثير في الأوضاع لأربع ســـنوات قادمة؛ أي: ربع قرن من وصول الرئيس البشـــير للسلطة في ١٩٨٩م».

ويضيف حـــاج علي: «الحركة الشـــعبية لا تريد تأجيل الانتخابات؛ لأنها لا تراهن عليها إنما على اســـتفتاء سكان جنوب الســـودان في نوفمبر ٢٠١١م» وأضاف أيضاً: «إن أي تأخير في الانتخابات يعني بالضرورة: تأجيل الاستفتاء، وهو ما تريده الحركة الشعبية».

ويقول القيادي بالحركة الشعبية (أتيم قرنق) نائب رئيس البرلمان السوداني: «إن الحركة الشعبية ما زالت على موقفها من خوض الانتخابات المقبلة في كل المستويات».

ونبَّه المحلل السياسي السوداني (الحاج وراق) أبرز رموز التيار الليبرالي الجديد في تصريحات لـ البيان إلى أن تأجيل الانتخابات إلى نوفمبر ٢٠١٠ ســـيجعل هذه الانتخابات غير ذات جدوى باعتبار أن الاستفتاء على استقلال الجنوب مقرَّر في يناير ٢٠١١م.

وأكد الحاج وراق وجود تيارين داخل المعارضة: تيار يرى المقاطعة، وتيار يدعو للمشاركة في الانتخابات القادمة رغم غياب الضمانات الديمقراطية، والاســـتفادة منها في تعبئة الجماهيـــر للانتفاضة على حكومة الرئيس عمر البشـــير. وأشـــار أيضاً إلـــى أن مقاطعة الأحزاب في ظل مشـــاركة الحركة الشعبية لا معنى لها.

وقد يخفف من تعظيم هذا الخيار عند أحزاب المعارضة الشمالية، قدرة حزب المؤتمر الوطني الحاكم الآن على تقديم صيَـــغ تحالفية مغريـــة ومرنة لحزب الأمـــة القومي بزعامة الصادق المهدي والحزب الاتحادي الديمقراطي برئاسة محمد عثمان الميرغني، ويجمع التاريخ الديني بين الأحزاب الثلاثة.

السـناريو الرابـع: انتخابـات مركبـة متزامنـة مـع الاستفتاء:

هذا السيناريو، هو قراءة خاصة للخبيـــر الاستراتيجـــي (د. حسن مكي محمد) مدير جامعة إفريقيا العالمية بالخرطوم؛ حيث يرى أن هناك مساعياً من قِبَل أمريكا لتأجيل الانتخابات إلى نوفمبـــر القادم، وهو ما تقترحه المعارضة أيضاً؛ «وذلك لأنهم يعتقدون أن الانتخابات سيفوز بها المؤتمر الوطني في الشمال والحركة الشعبية في الجنوب، ولن يكون هناك تغيير في الشكل السياسي، بل ستُعطَى الشرعية للنظام وستعطَّل مسارات المحكمة الدولية التي تلاحق الرئيس عمر البشير»؛ ولذلك يرى د. مكي أن الأمريكان «ينادون بتأجيل الانتخابات إلى نوفمبر، أو أن تكون الانتخابات مركبة وتجري في يناير القـــادم ٢٠١١ متزامنة مع اســـتفتاء تقرير المصير؛ حتى إن جاء الاســـتفتاء لصالح الانفصال، يجب أن تكون هناك فترة انتقالية لقيام الدولة؛ حتى يجري تأســـيس البُنى التحتية؛ حتى لا تدخل الدولـــة الجنـــوبية في حـــرب مع مكـــوناتها، وحتى لا تولد فاشلة، وحتى يتم استيفاء معادلات النفط».

جنوب السودان... إلى أين؟

من المسلَّم به الآن، أن بقاء السودان ضمن حدود السودان التاريخية المعروفة أصبح من المستحيلات، وخاصة بعد إصرار الحركة الشـــعبية على إجازة قانون استفتاء يجيز للجنوبيين

(٥١ ٪ من المستحقين المشاركة في الاستفتاء) اختيار الانفصال إذا صوتت الأغلبية البسيطة (٥٠ ٪ + ١) لصالح الانفصال عن السودان، بدلاً من مقترَح المؤتمر الوطني الذي أعلنه الدكتور (غازي صلاح الدين العتباني) مستشار الرئيس البشير، وهو يقضي بضرورة مشاركة ٧٠ ٪ من الجنوبيين في عملية الاستفتاء، وألا يقع الانفصال إلا إذا صوت ٧٠ ٪ لصالح الانفصال.

وصرح السياسي الأمريكي ومبعوث الرئيس الأمريكي السابق روجر ونتر مستشار حكومة الجنوب بأن: ٩٤ ٪ من الجنوبيين مع الانفصال. وتشهد مؤشرات عديدة بذلك، منها:

- افتتاح حكومة الجنوب مكاتب (سفارات) لها في العديد من العواصم الغربية والعربية.
- تغيير المناهج التعليمية ولغة التعليم بجنوب السودان.
- تفاوُض حكومة الجنوب مع شركات اتصالات للحصول على كود دولي مختلِف عن كود السودان الموحَّد.
- ترخيص المركبات العامة والخاصة في الجنوب بلوحات تحمل رمز NS (وهو اختصار لعبارة: «السودان الجديد» أو New Sudan)، تخالف فيه الترخيص المعمول به في شرطة المرور لكافة أنحاء السودان؛ حيث تحمل كل ولاية رمزاً معيَّناً لها.
- سعي حكومة الجنوب إلى إيجاد منفذ إفريقي لتصدير البترول المنتَج في جنوب السودان، لا يمر بشماله.
- حِرْص الجنوب على ضم منطقة أبيي الغنية بالنفط إليه، وضَمِّ المناطق المتاخمة وغيرها، من المؤشرات السالبة.

ومع ذلك كله، توجد مؤشرات أخرى، تبشر ببقاء السودان موحداً، منها:

- رغم سيطرة الحركة الشعبية على الجنوب الآن، إلا أن الحركة الشعبية نفسها تموج بتيارات متباينة قَبَلياً ومصلحياً؛ فأبناء قبيلة النوير يرون أنهم الأحق بقيادة الحركة لوجودهم الكثيف في جيش الحركة على مستوى المقاتلين، ولأن أغلب البترول المنتَج في الجنوب، والذي يُعَدُّ المصدر الأوحد للمال في الجنوب يُنتَج في أراضي القبيلة. وقد برزت هذه الخلافات للسطح حينما أرادت الحركة الشعبية اختيار مرشحيها لمنصبَي: رئيس الجمهورية، ورئيس حكومة الجنوب؛ حيث يشعر النوير بالإقصاء بعد إبعاد ابن القبيلة (د. رياك) مستشار نائب رئيس حكومة الجنوب الآن من الترشيح لأيٍّ من المنصبين.
- كما أن هناك النزاعات التقليدية والمخاوف التقليدية بين الاستوائيين والقبائل الأخرى تجاه نوايا قبيلة الدينكا التي تقود الحركة الشعبية، وهو ما يدفع بالقبائل الأخرى لتعظيم خيار الوحدة.
- كما يجد خيار الوحدة قبولاً عند الزعماء التقليديين في جنوب السودان (السلاطين)، وعند الجنوبيين الذين يعيشون في الشمال أيضاً (ويتراوح عددهم بين مليوني جنوبي إلى ثلاثة ملايين).
- ويمثل فشل حكومة الجنوب في تحقيق نجاح في إعادة بناء ما دمَّرتْه الحرب، وتأسيس بِنْية تحتية مناسبة، وتوفير الأمن، من أكبر العوامل المؤيدة لاختيار الجنوبيين للوحدة.
- وفوق ذلك وجود تيار سياسي كبير له آفاق وحدوية، وقد تمثل هذا التيار مؤخراً في ترشيح الدكتور (لام أكول) وزير الخارجية السابق لمنصب رئيس حكومة الجنوب، ممثِّلاً لتحالف بعض الأحزاب الجنوبية، في الانتخابات المقبلة، ومنافساً لسلفاكير ميارديت رئيس حكومة الجنوب ورئيس الحركة الشعبية، وقد انشق لام أكول من الحركة الشعبية التي يقودها سلفاكير، وأسس حركة حملت اسم: (الحركة الشعبية – التغيير الديمقراطي).

والمؤشر الأشد تأثيراً، هو المؤثر الخارجي ممثلاً في الولايات المتحدة؛ حيث اعترف مبعوث الرئيس أوباما للسودان غرايشون بأن الجنوب يفتقر إلى مقومات تأسيس دولة.

ويضم تحالف د. أكول نحو ١٢ حزباً جنوبياً، من بينها قطاع الجنوب بحزب المؤتمر الوطني بزعامة الرئيس البشير وحزب يوساب ٢، و«سانو ٢»، والمنبر الديمقراطي بزعامة بونا ملوال، وجبهة الإنقاذ المنبر الديمقراطي، والجبهة الديمقراطية المتحدة.

والمؤشر الأشد تأثيراً، هو المؤثر الخارجي ممثَّلاً في الولايات المتحدة؛ حيث اعترف مبعوث الرئيس أوباما للسودان غرايشون بأن الجنوب يفتقر إلى مقومات تأسيس دولة.

إن يناير ٢٠١١م، يعدُّ مرحلة فاصلة في تاريخ هذا البلد المسلم، وآمل أن ينجو هذا البلد من شبح التقسيم الذي ضرب بلاداً إسلامية مرت بظروف أقل خطراً مما مرَّ به السودان: كأندونيسيا – مثلاً – ونأمل أن يتوافق أهل السودان على نمط أوسط يحفظ لبلادهم وحدتها، وأن تُسفِر انتخابات أبريل ٢٠١٠م عن نتائج تُعِين على اختيار الوحدة.

مآذن سويسرا والديمقراطية العنصرية

د. عبد العزيز بن فوزان بن صالح الفوزان

العالم الغربي، بل العالم الذي لا يدين بالإسلام كلُّه ليس شيئاً واحداً في نظرته للإسلام وموقفه من المسلمين داخل بلادهم وخارجها، بل هم أطياف مختلفة، واهتماماتهم متباينة، وفهمهم للإسلام وعلاقاتهم بالمسلمين في درجات متفاوتة؛ ففي الوقت الذي يوجد فيه متطرفون حاقدون من أفراد وجماعات، وأحزاب ومؤسسات، تعلن عداءها الصريح ورفضها الفاضح لكل ما هو إسلامي أو حتى عربي ولو لم يكن مسلماً، فإن الأغلبية الساحقة من تلك الشعوب في العالم الغربي وغيره لا تحمل حقداً على الإسلام وأهله، ولديها الكثير من العدل والإنصاف والموضوعية، والبحث عن الحق بدلائله وبراهينه المقنعة، بل القابلية العجيبة للدخول في الإسلام، والانقياد للدين الحق الذي ارتضاه الله لعباده، وكثير منهم إذا أسلم أخذ الدين بقوة، وكان عنده من الهمة في تطبيق الإسلام والدفاع عنه والدعوة إليه، والحرص على هداية الناس ما لا يوجد نظيره عند كثير من المسلمين الأصليين الذين نشؤوا في بلاد مسلمة، وفي أحضان أبوين مسلمين.

ولكن المشكلة الكبرى التي تعانيها تلك الأغلبية الساحقة من الشعوب غير المسلمة هي جهلهم بالإسلام ومقاصده، أو معرفتهم بالإسلام بصورة مشوَّهة لا تتفق مع حقيقته وأنه رحمة الله للعالمين والضمانة الحقيقية لهداية البشر وإسعادهم وتحرير عقولهم من الأوهام والخرافات والعبودية للطواغيت والمخلوقات، وحثِّهم على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، بل إن أكثر هذه الشعوب لا تعلم أن هناك ديناً سماوياً اسمه الإسلام، وبعضهم يسمع عن كلمة مسلمين وإسلام، ويظن أن الإسلام عبارة عن جنسية أو قومية ينتسب لها مجموعة من البشر، أو أن الإسلام كلمة مرادفة لكلمة العرب؛ فيظن أن المسلم معناه: من يحمل الجنسية العربية، وكثير ممن عرف أن الإسلام دين سماوي لم يعرف عنه إلا الوجه المظلم السيئ الذي أُلصِق بالإسلام زوراً وبهتاناً وأنه دين إرهاب وقَتْل وتدمير، وأن المسلمين هم رعاة الإرهاب وحَمَلته، وهم أعداء العالم والساعون لتدميره!

(*) عضو مجلس هيئة حقوق الإنسان، والمشرف العام على مؤسسة (رسالة الإسلام).

وإذا كانت الأحزاب والجماعات المتطرفة في تلك البلدان غير المسلمة لا تدَّخر وُسعاً في حرب الإسلام وتشويه سمعته وصد الناس عنه، مستغلة بعض الأخطاء والتجاوزات من بعض المنتسبين للإسلام: من ذوي الجهل والحمق والظلم والعدوان؛ أن تلك الأحزاب والجماعات المتطرفة تؤثر تأثيراً كبيراً على تلك الأغلبية الساحقة من أهل العدل والإنصاف بسبب ما ذكرتُه من جهل هذه الأغلبية بالإسلام، الذي سببه - بالدرجة الأولى - تقصيرنا نحن المسلمين في الدعوة إلى الله، والتعريف بحقيقة الإسلام وشَرْح مقاصده في الرحمة بالبشرية وإسعادها وحِفْظ مصالحها في معاشها ومعادها، وعجزنا الفاضح في توظيف التقنيات الحديثة ووسائل الإعلام المتطورة لمخاطبة الناس في كل الأصقاع وباللغات التي يفهمونها، وإقناعهم بالحق الذي أنزله الله رحمة للعالمين، والتأكيد على أننا أرباب حق، ودعاة سلام، ورواد هداية وإصلاح.

ولقد ظلت كثير من تلك الشعوب محجوبة عن معرفة الإسلام طيلة القرون الماضية، ولم يزل رجال الدين وكثير من قادة الفكر والسياسة فيها يحاولون الحيلولة بين شعوبهم وبين معرفة الإسلام وفَهْم فضائله ومقاصده؛ لأن أكثرهم يدركون أن الإسلام هو دين الفطرة النقية والعقل السليم، وهو السبيل المضمون لتحقيق العدل وإسعاد البشرية، وفيه من الحيوية والجاذبية، والقدرة على الإقناع والإخضاع ما لا يوجد نظيره فيما سواه من المذاهب والملل. أما اليوم؛ فقد كُسِرَت الحواجز والحدود، وأزيلت الموانع والسدود، وصار بإمكاننا التواصل مع العالم أجمع باللغات التي يفهمها، وذلك من خلال المواقع الإلكترونية، والقنوات الفضائية، والإذاعات والمجلات وشتى وسائل الاتصالات.

ولقد يسَّر الله لنا من وسائل الدعوة والتعليم وتبليغ هذا الدين ما لم يتيسر مثله لأسلافنا؛ فقامت علينا الحجة، ولم يبقَ لنا عذر في أن يموت الناس على الضلالة وبين أيدينا الهدى، ويغرقَ البشر في الظلام وعندنا مشعل النور، وتعاني المجتمعات من القلق والاضطراب وانتشار الظلم والإجرام وشيوع الفساد الأخلاقي والشذوذ الجنسي، وعندنا صِمَام الأمان والهادي إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، وليس لنا أن نتركهم يتخبطون تتلاعب بهم الأهواء والشهوات، وتسيطر عليهم الخرافات والشعوذات والشركيات وعندنا الدين الحق الذي أنزله الله - تعالى - رحمة للعالمين؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن عبادة المخلوقات إلى عبادة رب الأرض والسموات، ومن جور المذاهب والأديان إلى عدل الإسلام. يقول الله - تعالى- : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]؛ فبين أن أهل الإسلام هم خير الناس للناس، وأرحم الخلق بالخلق؛ يأمرونهم بالمعروف الذي أمر الله به، وينهونهم عن المنكر الذي نهى الله عنه، ويسعون جاهدين لإسعاد الناس وإيصال الخير إليهم، وهدايتهم لما فيه صلاح أمرهم في معاشهم ومعادهم.

ومع شدة الحاجة، وقوة المنافسة، وضخامة المسؤولية وثِقَل الأمانة، ما زلنا - نحن المسلمين - مقصرين في استثمار هذه التقنية وتسخيرها لخدمة ديننا، وتحقيق مصالحنا، والدفاع عن حقوقنا، والمحافظة على قيمنا ومكتسباتنا، والتواصل مع إخواننا المسلمين في أصقاع الأرض، وإقامة جسور التواصل الحضاري بين المسلمين وغير المسلمين.

ولذا أصبح كل جهد يتلافى هذا التفريط، ويسعى إلى استيفاء القصور أمراً بالغ الأهمية، بل هو واجب شرعي على كل قادر على العطاء والبذل، سواء أكان بعلمه أم بخبرته أم بماله أم ببدنه أم بجاهه.

وإذا كانت الأحزاب والجماعات المتطرفة تعادي الإسلام وتحسد أهله، والحيلة في تحييدهم وقَطْع شرِّهم عسيرة أو مستحيلة؛ لأنهم كما قال الله - تعالى - عنهم: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]؛ فهم يعادون المسلمين حسداً لهم مع تبيُّن الحق لهم، وعلمهم بأن دينهم هو الدين الحق الذي ارتضاه الله لعباده، ولكن الحسد حملهم على محاربة الإسلام وأهله كما حمل أسلافهم من قَبلُ على معاداة محمد ﷺ وأصحابه، ولهذا قال ربنا في آية أخرى: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]؛ فبين أن هؤلاء الحساد من أهل الكتاب وغيرهم لن يرضوا عنا ولن يكفوا عن مكايدتنا ومعاداتنا وحربنا مهما حاولنا استرضاءهم واتقاء شرهم، ومهما خضعنا لهم وسكتنا عن ظلمهم وابتزازهم؛ إلا أن نتخلى عن ديننا ونكفر به كما كفروا!

فإذا كانت هذه هي حال تلك الأحزاب والجماعات المتطرفة التي تعادي الإسلام وتحارب أهله حسداً وبغياً، فإن

البلية العظمى أن تلك الجموع الكبيرة والغالبية العظمى من تلك الشعوب غير المسلمة أصبحت - بسبب جهلها بالإسلام وشدة تقصيرنا في دعوتها إليه وتعريفها بحقائقه ومقاصده - ضحية لهذه الجماعات والأحزاب المتطرفة؛ حيث تُستغَل عواطفها، وتؤجَّج مخاوفها من هؤلاء المسلمين الإرهابيين أو المتخلفين، وهذا ما رأيناه جلياً في حوادث كثيرة عانى منها المسلمون في البلاد الإسلامية وفي بلاد الأقليات المسلمة معاناة كبيرة؛ فحرب العراق وأفغانستان وما ترتب عليهما من تداعيات كثيرة وخطيرة ما كان لها أن تحدث وتدعمها أكثر الشعوب الغربية لو أن تلك الشعوب تعرف حقيقة الإسلام، وأنه بريء من جرائم الإرهاب، وأنه دين الرحمة والسلام، بل هو رحمة الله لكل العالمين!

لكن تلك الأحزاب والجماعات المتطرفة استغلت أحداث سبتمبر وما شابهها، والتي ربما كان لها يد في صناعتها وتوريط بعض المسلمين فيها؛ لكي تشوِّه صورة الإسلام وتؤلِّب تلك الشعوب عليه وعلى من يدينون به، وتخوِّفهم من الخطر الإسلامي الداهم الذي يسعى لتدمير العالم والسيطرة عليه.

وقل مثل ذلك في جميع الأحداث والقرارات العنصرية ضد المسلمين في كل مكان، وبخاصة في أوروبا وأمريكا: كالأفلام والرسوم الكاريكاتورية المخزية التي حصلت في الدانمارك، ثم انتشرت عدواها إلى عدد من الدول الأوروبية، وتبنَّتها ودافعت عنها عدد من الحكومات الغربية؛ مع أنها تطعن في أعظم الرموز الدينية لدى مليار ونصف من المسلمين، وبعضهم من مواطني تلك الدول التي سمحت - بكل أسف - لهذه الأعمال الاستفزازية العنصرية بأن تظهر وتتكرر!

وكذلك الحال بالنسبة لمنع الحجاب والنقاب في فرنسا، والذي اعتبروه إهانة لكرامة المرأة على حد زعم الرئيس الفرنسي، وأخيراً ولن يكون آخراً: مَنْع بناء المآذن في سويسرا؛ مع أنه لا يوجد فيها سوى أربع مآذن فقط في أربعة مساجد، ولا يُرفَع الأذان من خلالها، وإنما يؤذَّن للصلاة داخل المسجد فقط، ورغم ذلك؛ فإن ٥٧,٥ بالمائة من الناخبين السويسريين اختاروا في استفتاء عام الموافقة على حَظْر بناء المآذن، زاعمين أن قرارهم هذا يستند إلى مخاوفهم من «الأصولية» و «الأسلمة البطيئة» لسويسرا.

وهذا التحرك المتطرف بدا مستغرَباً أن يأتي من بلد مثل سويسرا التي كان الانطباع عنها أنها من أكثر الدول الأوروبية انفتاحاً وتسامحاً، وهو مستغرب أيضاً؛ لأن سويسرا هي أكثر بلد أوروبي يستفيد من أموال أثرياء المسلمين، والحقيقة المرَّة أن هذا الاستفتاء لو أجري في بلدان أوروبية أخرى، فإنه سيؤدي غالباً إلى نتيجة مشابهة.

وفي غمرة هذا التهييج والشحن العاطفي، وتأجيج النوازع العنصرية، والتخويف من الإسلام وأهله، والتحريض على شعائره ورموزه، والتشويه المتعمَّد لحقائقه ومقاصده، ينسى هؤلاء شعاراتهم البراقة حول الحريات الدينية وحماية حقوق الإنسان، وينسون أن اليهود والنصارى لم يزالوا يعيشون في أكثر بلاد الإسلام في أمن وسلام، وكنائسهم وبِيَعُهم لا تكاد تخلو منها مدينة في طول البلاد الإسلامية وعرضها!

ولكن الأمر الإيجابي هو: بروز بعض الأصوات الأوروبية المستنكِرة لهذا التوجه، وقد خصصت «الفاينانشال تايمز» افتتاحية أحد أعدادها لإدانة هذا التصويت والتأكيد على أنه لا يخدم سوى المتطرفين، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك؛ حيث تقول: «كان هناك زمن تتمتع فيه سويسرا بسمعة جيدة، وأنها ملاذ الديمقراطية والتسامح في أوروبا التي كانت - بخلاف سويسرا - تعيش في ظلام فكري، لكن هذا تغيَّر الآن، هذه الصورة الجميلة تحولت إلى حطام من خلال التصويت على إقرار حظر دستوري على المآذن».

إن سويسرا مثل الكثير من الدول الأوروبية، تواجه ردَّة فِعْل قومية على النظرة الجديدة للمسلمين الأوروبيين، والمآذن مجرد ستار؛ فحزب الشعب السويسري الذي قاد هذه الحملة العنصرية أراد في بادئ الأمر تدشين حملة ضد الطريقة الإسلامية لذبح الحيوانات، ولكنه كان يخشى اختبار حساسية اليهود السويسريين، الذين يذبحون بطريقة مشابهة، وبدلاً من ذلك حوَّل أبصارهم إلى المآذن باعتبارها رمزاً إسلامياً ظاهراً.

فيا تُرى: ما سِرُّ هذه العنصرية المقيتة، والتنكر للقيم الإنسانية وحقوق الإنسان التي طالما تغنَّى بها أولئك الأوروبيون؟ ولماذا تُقصَى فئة تحمل جنسيات تلك الدول، ولها حق المواطنة الكاملة، لمجرد أنها تدين بالدين الإسلامي الحنيف؟

يجيب عن هذا داعية مسلم وُلِد في سويسرا وعاش فيها، وهو البروفيسور الدكتور: طارق رمضان؛ حيث يقول في مقال له في صحيفة الشرق الأوسط: «في المرحلة الحالية

يجد الأوروبيون أنفسهم يتساءلون داخل عالم متنقل ومستمر في الانغماس في العولمة: «ما هي جذورنا؟» و«من نحن؟» و«كيف سيكون مستقبلنا؟»؛ فهم يرون حولهم مواطنين جدداً، وألواناً جديدة للبشر، ورموزاً جديدة لم يعتادوا عليها. وعلى مدار العقدين الماضيين، ارتبط الإسلام بالكثير من القضايا المثيرة للجدل، مثل: العنف والتطرف وحرية التعبير والتمييز بين الجنسين والزواج بالإجبار... وهذا قليل من كثير.

ومن الصعب بالنسبة للمواطنين العاديين أن ينظروا إلى هذا الوجود الإسلامي الجديد على أنه عامل إيجابي، وهناك مقدار كبير من الخوف وغياب واضح للثقة لدى الأوربيين، وتُطرح أسئلة من نوعية: من هم؟ وماذا يريدون؟ وتمتلئ هذه الأسئلة بشكوك أكبر مع انتشار فكرة أن الإسلام دين توسُّعي. وهل يريد هؤلاء الناس أسلمة بلادنا؟

واستحثت المخاوف والمزاعم الحملة التي استهدفت المآذن، وانجذب المصوتون إلى القضية من خلال التلاعب بالعواطف واللعب على وَتَر المخاوف، وحملت الملصقات صورة امرأة ترتدي برقعاً، ورُسِمَت فيها المآذن كأسلحة على علم سويسري. وتعني هذه المزاعم: أن الإسلام لا يتناسب في جوهره مع القيم السويسرية».

ويؤكد ذلك كاتب أوروبي هو: «إيان بوروما» في مقال جميل له في صحيفة الاقتصادية، فيقول: «إن إرجاع هذا التصويت السويسري على حظر بناء المآذن (وهي الفكرة التي أتى بها حزب الشعب السويسري اليميني، من دون مشاركة من جانب أي حزب سياسي آخر) إلى «الإسلاموفوبيا» (أي: الخوف من الإسلام) قد يكون في غير محله.

من المؤكد أن تاريخاً طويلاً من العداوة المتبادلة بين المسيحيين والمسلمين، فضلاً عن الحالات الأخيرة من العنف الإسلامي المتعصب، حَمَلت عديداً من الناس على الخوف من الإسلام على نحو لن نجد له مثيلاً تجاه الهندوسية أو البوذية على سبيل المثال؛ فالمئذنة التي تخترق السماء وكأنها صاروخ، يسهل تصويرها باعتبارها شيئاً مخيفاً.

ولكن إذا كان السويسريون وغيرهم من الأوروبيين على يقين من هوياتهم؛ فما كان لإخوانهم من مواطنيهم المسلمين أن يثيروا مثل هذا النوع من الخوف في قلوبهم. وقد يكون هذا هو أُسُّ المشكلة؛ فمنذ وقت ليس بالبعيد كانت أغلبية المواطنين في الغرب يعتزون بأمور خاصة ليست محل نقاش ترمز إلى عقيدتهم وهويتهم الجمعية. وأبراج الكنائس المنتشرة في عديد من المدن الأوروبية ما زالت تعني شيئاً في نظر أغلبية الناس. وقليلون هم الذين تزوجوا من خارج ديانتهم...

ولكن كثيراً من هذا قد تغيَّر، وذلك بفضل الرأسمالية العالمية، والتكامل الأوروبي، ووصمة المشاعر الوطنية الناتجة عن حربين مأساويتين، وربما كان الأهم من كل ذلك، تراجُع الإيمان بالعقائد الدينية على نطاق واسع. إن أغلبيتنا يعيشون في عالم عَلماني ليبرالي متحرر من الأوهام، ولقد أصبحت حياة أغلبية الأوروبيين الآن أكثر تحرراً من أي وقت مضى... ولكن الحياة في عالم متحرر لم تكن بلا ثمن؛ فالتحرر من العقيدة الإيمانية والتقاليد لم يكن دوماً السبيل إلى الشعور بقَدْر أعظم من الرضا، بل كان – على العكس من ذلك – سبباً في انتشار الحيرة، والمخاوف، والاستياء».

إذاً فالسبب الرئيس لهذه الحملات العنصرية هو: الشعور المرير بفقدان الهوية، والحسد للمسلمين على تمسُّكهم بدينهم واعتزازهم به، وهذا ما أكده الكاتب في ختام مقاله؛ حيث يقول: «فلا بد أن نحسد المسلمين؛ لأنهم ما زالوا متمسكين بإيمانهم، ولأنهم يعرفون من هم، ولأنهم ما زال لديهم ما يستحق أن يضحوا بحياتهم من أجله... إن هذه المآذن المرتفعة، وأغطية الرأس السوداء، تشكل تهديداً؛ لأنها تنثر الملح على جراح هؤلاء الذين يشعرون بخسارة إيمانهم».

وليس بعيداً ما عبر عنه الرئيس الفرنسي (نيكولا ساركوزي) في مقال له بصحيفة لوموند الفرنسية من تعاطفه مع السويسريين الذين صوتوا لصالح حظر المآذن في بلدهم، وذكَّر في الوقت نفسه بقيم التسامح والانفتاح عند الفرنسيين، ودعا إلى إشاعة الاحترام المتبادل بين القادمين إلى فرنسا ومستقبليهم.

وفي هذا الإطار، تنقل صحيفة «التايمز» حثَّ ساركوزي المسيحيين واليهود والمسلمين وكلَّ المؤمنين – بغَضِّ النظر عن معتقدهم – على تجنُّب الاستفزاز والمباهاة في ممارسة شعائرهم الدينية.

وقد وصف ساركوزي سكان أوروبا بأنهم متسامحون بطبيعتهم وثقافتهم، لكنهم لا يريدون لنمط حياتهم وطريقة تفكيرهم وعلاقاتهم الاجتماعية أن تتشوه. ثم يؤكد أن الإحساس بفقدان الهوية يمكن أن يكون مصدراً لمعاناة بالغة!

هكذا يقول الرئيس الفرنسي! إذاً فليس العيب في

الإسلام الذي هو رحمة الله للعالمين، وإنما هو في فقدان كثير من الأوروبيين لهويتهم، وعدم رضاهم عن دينهم ومعتقداتهم.

وتقول التايمز: إن الحزب الاشتراكي وَجُلَّ طيف اليسار الفرنسي يقاطعون النقاش الذي أطلقه ساركوزي بشأن الهوية الوطنية.

وتكشف الصحيفة عن تململٍ حتى في أوساط الحزب الفرنسي الحاكم نفسه؛ نتيجة الإحراج الذي أصابهم جراء حملة ساركوزي الحالية؛ إذ حاول كثير منهم النأي بنفسه عن تصريحات تلفزيونية لأحد مسؤوليه (وهو عمدة لقرية بالشمال الفرنسي يدعى: أندري فلانتين)؛ إذ قال: «علينا أن نتصرف كي لا نُبتلع أحياءً؛ فهناك عشرة ملايين مهاجر يتقاضون رواتب مقابل لا شيء».

وأمام هذه الحملات المغرضة والدعايات المضللة التي تستهدف صدَّ الناس عن سبيل الله، ومضايقة المسلمين ومَنْعهم من ممارسة شعائر دينهم، وتأليب الحكومات والشعوب الغربية عليهم وعلى رموزهم الدينية، مستغلين جهل شعوبهم بالإسلام، ومستثمرين كلَّ ما وصلت إليه التقنيات الحديثة ووسائل الإعلام المتنوعة والمبهرة لتحقيق غاياتهم العنصرية المتطرفة، والتنفيس عن حسدهم وحقدهم على الإسلام والمسلمين كان متحتماً علينا أن نضاعف جهودنا لمقاومة هؤلاء المتطرفين، وفَضْح باطلهم وحقدهم، والكشف عن غاياتهم ودوافعهم، وألا نخضع لظلمهم وابتزازهم؛ لأنهم لن يرضوا عنا حتى نتخلى عن ديننا ونتبع ملتهم.

كما أنه لا يكفي في صد هذه الهجمات الشرسة، ودَحْض هذه الدعايات المضلِّلة مجرد الشجب والإدانة، والصياح والعويل، والاستنكار الشديد؛ فإن الغبن كل الغبن، بل الغاية في العجز والضعف أن يتخطفنا أعداؤنا، ويفتنونا في ديننا، ويشوهوا صورتنا، ويطعنوا في صميم معتقداتنا وقيمنا الإسلامية، ثم نقابل هذا الظلم الصُّراح، والتشويه المتعمَّد، والعنصرية المقيتة بالشجب والاستنكار، والسب والشتم، ويصبح حالنا كحال ذلك الراعي الذي سطا عليه اللصوص فاستاقوا إبله، فلم يزد على أن رقى تلة ينظر منها إليهم ويكيل لهم أنواع السباب والشتائم، فلما رجع إلى أهله وأخبرهم سألوه: فماذا فعلت تجاههم؟ فأجاب: أوسعتهم شتماً وساروا بالإبل!

وقد وصف ساركوزي سكان أوروبا بأنهم متسامحون بطبيعتهم وثقافتهم، لكنهم لا يريدون لنمط حياتهم وطريقة تفكيرهم وعلاقاتهم الاجتماعية أن تتشوه. ثم يؤكد أن الإحساس بفقدان الهوية يمكن أن يكون مصدراً لمعاناة بالغة!

والمحاولات العنصرية في سويسرا وغيرها من الدول الغربية لتشويه صورة الإسلام وتعبئة الرأي العام كثيرة ومتنوعة، وأعظم وسيلة لمواجهتها هي أن نستثمر هذه الحملات الظالمة، والدعايات المضللة التي تثير فضول الناس وتساؤلاتهم عن حقيقة الإسلام ورموزه وعقائده لصالح التعريف بديننا، وأنه رحمة الله للعالمين، وذلك بأن نبذل غاية الوسع، ونسخِّر كل الوسائل الممكنة، ونوظف وسائل الإعلام المتنوعة لشرح حقيقة الإسلام، وأنه دين أمن وسلام، وتعايش وتعاون، ورحمة وعدالة، وحكمة ومصلحة في جميع أوامره ونواهيه، وأن جميع أحكامه وتشريعاته قائمة على سنن القسط والعدل، والبر والإحسان، وأن حُسْن الخلق والإحسان إلى جميع الخلق من أجلِّ مقاصد الإسلام، وأعظم العبادات وأحبها إلى الله، وهي أثقل ما يوضع في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة، بل إن رسول الله ﷺ يقول: «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1]، وفي رواية «صالح الأخلاق»، فجعل رسالته بكل أحكامها وتشريعاتها محصورة بالدعوة إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن العادات، وحُسْن التعامل مع الله - تعالى - ثم مع عباده من القريبين والبعيدين، والمسلمين وغير المسلمين، وهذا هو معنى قوله - تعالى -: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وهذا كما أنه واجب شرعي حمَّلنا الله - تعالى - أمانة القيام به وتحمُّل تكاليفه؛ لأجل هداية الناس وإعلاء كلمة الله، فإنه أفضل وسيلة لصد تلك الحملات المغرضة، ودحض تلك الدعايات المضللة: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

(١) أخرجه البيهقي في سننه.

مجلة البيان

سلسلة رؤى معاصرة

الغرب أصل الصراع
عامر عبدالمنعم

مسلمو روسيا ومشاريع الاستقلال
محمد عادل

استراتيجيات غربية لاحتواء الإسلام
قراءة في تقرير راند ٢٠٠٧
د.باسم خفاجي

مرصد الأخبار

المسجد العملاق...توقف

أكدت السلطات البريطانية أن خططاً لبناء أكبر مسجد في بريطانيا توقفت بزعم أن الجماعة الإسلامية التي تقف خلف هذا المشروع الضخم لم تقدِّم خطة للبناء في الوقت المحدد.

وكان المشروع المزمع إنشاؤه في موقع بشرق لندن، والذي أطلقت عليه وسائل الإعلام: «المسجد العملاق» قد أثار جدلاً منذ عام ٢٠٠٧ عندما أُعلنَت الخطط الطموحة لإقامته للمرة الأولى، وخاصة بعد أن قالت وسائل إعلام بريطانية: «إن المجمَّع الذي يقع جنوبي متنزه أولمبياد ٢٠١٢ سيكون بمقدوره استيعاب ١٢ ألفاً من المصلين، وهو ما يجعل المسجد أحد أكبر مساجد أوروبا».

وقال مجلس نيوهام في بيان له: «إن الحركة تلقَّت تحذيراً من أنها يجب أن تغادر الموقع وتزيل المسجد المؤقت وذلك خلال يومين فقط؛ وإلا ستسعى السلطات إلى «إجراء إجباري» من خلال المحاكم، وأكد كذلك على أنه: «إذا ظل شاغلوا الموقع يعملون بعد نهاية فترة الامتثال، فإنه يمكننا اللجوء إلى المحكمة؛ لأن هذا سيصبح مخالفة جنائية».

ويُذكَر أن شرق لندن سيستضيف أولمبياد ٢٠١٢، وتتعدى نسبة المسلمين في بعض أحياء المنطقة ٧٠ ٪. ويشير مراقبون إلى أن أحد أسباب فوز لندن هو دعم المسلمين للملف البريطاني؛ حيث يقطن فيها ٤٠٠ ألف مسلم.

[جريدة الرياض السعودية: ٢٠١٠/١/١٩]

جلال الشايب
gelshayeb@albayan.co.uk

استيطانٌ فلسطيني

في مشهد غير مسبوق، بدأت ثلاث جرافات فلسطينية عملاقة عمليات حَفْر وتمهيد في منطقة جبلية لبناء مدينة فلسطينية جديدة يُفترض أن تتسع لنحو ٤٠ ألف نسمة، وذلك على مساحة ٦٣٠٠ دونم شمال مدينة رام الله في الضفة الغربية، بقيمة إجمالية تتعدى ٧٠٠ مليون دولار.

وتقع المدينة التي تحمل اسم: «الروابي» في منطقة جبلية تحيط بها ٣ قرى فلسطينية، ومستوطنة إسرائيلية شمال مدينة رام الله، وتأتي المنطقة التي ستشملها عملية البناء في أراضٍ منخفضة عن قرية عطارة شمال بلدة بيرزيت، وتمتد المنطقة شمالاً حتى قريتَي: عجول وعبوين، ومن الجنوب تقع مستوطنة عطيرت الإسرائيلية.

وصرح بشار المصري مدير الشركة الفلسطينية المشرفة على بناء المدينة بقوله: «المدينة ليست استيطاناً؛ لأن صاحب الأرض لا يستوطن أرضه، لكن هي محاولة فلسطينية لتثبيت الفلسطينيين على أرضهم؛ للحد من الاستيطان الإسرائيلي».

[شبكة فلسطين الإخبارية: ٢٠١٠/١/١١]

أول مدرسة إسلامية في أستراليا

أكدت صحيفة «جولد كوست بولتن» الأسترالية أنه تم افتتاح أول مدرسة ابتدائية إسلامية في حي (جولد كوست) بولاية (كوين آيلاند) بأستراليا، والتي ضمَّت داخل صفوفها ثلاثين طالباً، كما أشارت الصحيفة إلى أن إنشاء المدرسة جاء ضد رغبة ١٨٠٠ مواطن عارضوا بناءها.

ولفتت الصحيفة في تقرير لها إلى أن المدرسة تبنَّت تدريس اللغة العربية، بجانب الدراسات الإسلامية؛ بصرف النظر عن طبيعة المناهج في ولاية كوين آيلاند.

[جريدة المصري اليوم: ٢٠١٠/١/٢٦]

علامة تعجب

مراكز لتأهيل ضحايا المرأة!

فـــي بادرة غريبة من نوعِـها جرى افتتاح مركزَيـن لـ «رعاية الأزواج» في سويســـرا، وهو ما يميط اللِّـثام عن عُـنف الزوجات بحقِّ أزواجهن هناك؛ فقد افْتُتحَت «المحطة الوسطى» (Zwüschehalt) كأول مركز في البلاد لرعاية الرجال الذين يتعرضون للضـرب من نســائهم، ويستوعب المركز عشرة أشخاص من الرجال والأطفال لمدة لا تزيد عن شهرين، ويجري تقديم المـشورة والعون للنزلاء؛ ريثما تُحَلُّ مشاكلهم.

وبعدهـــا بقليل جرى افتتاح مركز: «Erlenbach» على ضفاف بُـحيرة زيورخ؛ ليقوم بعمل الأُولَى نفســـه؛ إلا أنهما منفصلان تماماً.

وأظهرت الإحصاءات التي نشرتها VeV الدهشة؛ وذلك للعُـنف الذي تُـمارسه النساء ضد الرجال: ٣٩ ٪ من حالات العُـنف الأسَـري في سانت غالن، و ٢٥ ٪ في زيورخ، و ٢٠ ٪ في بازل، و ١٩ ٪ في فريبورغ.

[سويس إنفو: ٤/١/٢٠١٠]

الموسوعة السياسية

«ما بعد الكولونيالية»

الكولونيالية، تعني: احتلال دولة لدولة أخرى خارج حدودها (سياســـياً واقتصادياً) بالاعتماد على القوة العسكرية، وهي أقرب إلى مفهوم الاستعمار المتداول في كتب التاريخ.

أما مصطلح (ما بعد الكولونيالية)؛ فهو من المصطلحات الشـــائعة في الســـاحة الثقافية، وإن كان فيه من الشمولية والاتساع ما يجعله يُستخدَم في أكثر من مجال.

ويُقصَد به - إجمالاً - ما بعد الموجة الاستعمارية أو الاحتلالات العسكرية للبلدان.

ويؤكد كريس دوهمان في قاموســـه (أفكار ومفكرون) على أن «دلالة مصطلـح ما بعد الكولونيـالية لا تتضمن فقط ما بعد المرحلة الاستعمارية، بل إنها محاولة نقدية أيضاً، والتي تبرز من الاستعمار لتصارع أُسُسَه».

ولقد تحدَّث مفكرون غربيون عن مصطلح ما بعد الاستعمارية، ومنهم: (لبيل اشكرونت، وآلان لوسون، وجاريت جريفيت، وهيلين تيفين، وباتريك ويليامز، ولاورا كريســـمان)، فضلاً عن الكاتب الأمريكي من أصل فلســـطيني: (إدوارد سعيد) الذي طوَّر هذا المصطلح ووسَّع مباحثه. لا سيما في كتابه: (الاستشراق)، والذي شفعه بكتاب آخر هو: (الثقافة والإمبريالية).

ومـــن أهم القضايا التي تطرَّق إليهـــا أدب ما بعد الكولونيالية، قضية: الهوية والصراع النفســـي، وكذلك (الكتابة النســـوية)؛ حيث إن النساء والأطفال هم الضحايا الحقيقيون لمآسي الحروب والنكبات في المستعمرات، وما جرى على الناس بسبب الاستعمار: من فواجع ومواجع - حسب المفهوم - ألـمَّا بعد الكولونيالية.

[من مقال: «القراءة النسوية لما بعد الكولونيالية...رؤية شرعية»، أحمد عمرو: ١٢/١/٢٠٠٩]

سجلت المؤسسات التي تدير ألعاب اليانصيب وسباق الخيل وكازينوهات القمار - بحسب وكالة الصحافة الفرنسية - أرباحاً زادت على ٢١ مليار يورو خلال عام ٢٠٠٩، مع العلم أن أرباح نوادي القمار تراجعت بنسبة ٩ ٪ خلال العام الماضي، ولا يأخذ رقم الأرباح في الحسبان المبالغ التي ينساها اللاعبون في الأجهزة التي يجري اللعب فيها بالقِطَع النقدية الصغيرة، ولا المراهنات غير الشرعية - من وجهة نظرهم - على النتائج الرياضية، ولا المقامرة عبر المواقع الأجنبية العديدة المنتشرة على الإنترنت ويرتادها عشرات الآلاف من الفرنسيين.

[الشرق الأوسط: ١١/١/٢٠١٠]

أوضحت إحصائيات صادرة عن الأمم المتحدة أن عام ٢٠٠٩ كان الأكثر دموية بالنسبة للمدنيين في أفغانستان؛ حيث لقي ٢٤١٢ مدنياً حتفهم، بزيادةٍ قَدْرها ١٤ ٪ عن العام السابق، أي: بارتفاعٍ نسبته ١٤ ٪ مقارنة مع حصيلة سنة (٢٠٠٨)، والتي بلغت ٢١١٨ شهيداً.

ومن جهة أخرى اعترف الجيش الأمريكي بأن أعلى حصيلة قتلى من جنوده في عام (٢٠٠٩)، هي: (٣١٧ قتيلاً) بالمقارنة مع حصيلة عام ٢٠٠٨ (١٥٥ قتيلاً)، حسب بيانه.

[مركز أنباء الأمم المتحدة، والشعب الإلكترونية: ١٣/١/٢٠١٠]

أشارت أرقام نشرتها وزارة الخزانة في واشنطن مؤخراً إلى أن العجز في موازنة الدولة الأمريكية سجل رقماً قياسياً جديداً؛ وذلك أن شهر ديسمبر كان الشهر الخامس عشر من العجز على التوالي، والذي بلغ العجز فيه ٩١,٨٥٤ مليار دولار، أي: ٧٧,٥ ٪ أكثر من عجز عام ٢٠٠٨، ويعد هذا أكبر عجز مالي لشهر ديسمبر في سجلات الوزارة.

كما بيَّنت الأرقام «أن العائدات الشهرية تراجعت بنسبة ٨ ٪؛ لتصل إلى ٢١٨,٩١٩ مليار دولار»، وزادت بمقابلها النفقات بنسبة ٦ ٪ وَفْقَ الوتيرة السنوية؛ لتصل إلى ٣١٠,٧٧٣ مليار دولار.

[ميدل إيست أونلاين: ١٤/١/٢٠١٠]

توقع تقرير اقتصادي أصدرته شركة «الأهلي كابيتال» الذراع الاستثمارية لـ «البنك الأهلي» أن يتجه الاقتصاد الخليجي نحو نطاق تريليونَي دولار خلال العقد المقبل، مدعوماً بالنفط والنمو السكاني والتنويع الذي تحفل به المنطقة.

وتشير الشركة في تقريرها حول آفاق الاقتصاد الخليجي إلى وجود عدد من الحقائق التي تدعم ذلك التأكيد، مبيِّنة أن دعائم الاقتصاد الكلي جذابة، ومن شأنها ضمان معدلات نموٍّ اقتصادي متسارع خلال الأعوام المقبلة، بالإضافة إلى أن الأسواق الناشئة بشكل عام شهدت تصحيحاً أخف بكثير خلال فترة الانكماش التي حدثت أخيراً.

[مركز الخليج في الإعلام: ١٧/١/٢٠١٠]

أفادت الحكومة اليمنية و «المعهد الدولي لبحوث سياسات الأغذية» بأن ٧,٥ مليون يمنيٍّ يعانون نقصاً في الغذاء، وهو ما يجعل المعدَّل على المستوى الوطني يساوي ٣٢,١ ٪، وأطلقت الحكومة اليمنية في ورشة عمل بصنعاء أطلساً رقمياً يتضمَّن معلومات وبيانات متعلقة بالأمن الغذائي ومعدَّلات انتشاره على مستوى المحافظات والمديريات، وحالات سوء التغذية لدى الأطفال، تلك المقدَّرة بأكثر من ٥٠ ٪ على مستوى البلاد، ومؤشرات: الزراعة، والمناخ، والأمطار، والصحة، والتعليم، والأسواق، والتجارة، في مناطق البلاد.

[موقع الشورى نت اليمني: ٢٠/١/٢٠١٠]

ذكرت إحصائيات رسمية صادرة عن مكتب وزير الداخلية البريطاني تسجيل ٢١,٦١٨ قضية هتك عرض واغتصاب وتحرُّش في الفترة ما بين أبريل ٢٠٠٨ ومارس ٢٠٠٩ بنسبة حالة واحدة من بين سبع لمن لا تتجاوز أعمارهم ١٠ أعوام بينما تم تسجيل ١٠٠٠ حالة لمن تَقِل أعمارهم عن الخامسة، وذلك في جميع أنحاء المملكة المتحدة البريطانية، ولقد جاءت هذه الإحصائيات بناءً على طلب الجمعية الوطنية لمكافحة جرائم العنف ضد الأطفال.

[وكالة الأنباء الكويتية «كونا»: ٢٥/١/٢٠١٠]

س: هل «السلاح الزلزالي» للقوات البحرية الأمريكية هو السبب الحقيقي وراء وقوع كارثة زلزال هايتي؟

ج: نُشرت مؤخراً تقارير صحفية تؤكد أن الزلزال المدمر لهايتي ليس هو الجاني الحقيقي فيما أصابها؛ وإنما للأمر أبعاد أخرى تتعلق بتجارب علمية أمريكية لقواتها البحرية عن طريق سلاح يسمى: «السلاح الزلزالي». تواصلت البيان مع خبراء ومتخصصين في مجال الجيولوجيا، وفي المجال العسكري والسياسي للوقوف على حقيقة الأمر، فكان الأمر في رأيهم:

أن كارثة هايتي، هي كارثة طبيعية لها أسبابها ولا دخل لأميركا أو غيرها فيها، ومن أسباب ذلك - كما يعددها الدكتور سامي الخريبي «المتخصص في الشبكة القومية للزلازل التابعة لمركز الدراسات والبحوث الفلكية والجيوفيزيائية في مصر» -:

أولاً: أنه لا يوجد أي سلاح علمي يستطيع أن يتسبب في حدوث مثل هذا الزلزال؛ حتى ولو كان تفجيراً نووياً ناتجاً عن ٥٠٠ ألف طن من المتفجرات.

ثانياً: أن منطقة هايتي هي منطقة تدخل في حزام الزلازل، وفيها نشاط تركيبي لطبقات الأرض بصورة عالية، يعاني من عناصر الضغط، والشد والجذب.

ثالثاً: السبب الرئيس في تدمير هايتي ليس الزلزال نفسه، وإنما هو حدوثه داخل أرضها، من طبقة قريبة جداً من سطح الأرض.

رابعاً: فَقْر الدولة ومستواها العلمي والاقتصادي المتدني؛ فجاءت المباني غير محصنة ضد الزلازل.

ويضيف الدكتور عبد الله الأشعل «الخبير السياسي المصري، ومساعد وزير الخارجية المصري الأسبق»: إنه من حيث المبدأ ليس مستبعداً عن أميركا أن تقوم بأي شيء، وخاصة أنه يعضد هذا الأمر أن علاقتها بهايتي تشوبها بعض الشكوك، منها: أنها لم تُقدِّم الإغاثة بطريقة فعالة، واستبعاد الأمم المتحدة من تقديم المساعدات، واتهام بعض الدول لها بأنها احتلت هايتي، ومع كل ذلك لست مطمئناً بنسبة كافية إلى أن أميركا قامت بإحداث هذا الزلزال.

ويتفق الأستاذ الدكتور محمد جلال الإبياري «أستاذ الجيوفيزياء بكلية العلوم، جامعة حلوان، ومتخصص في شؤون الزلزال» مع الخريبي، ويضيف: إن التقرير المذكور يقول: إن السلاح الزلزالي قام بتجربة قبل ذلك في مدينة أوريكا بكاليفورنيا بقوة ٦,٥ درجة؛ إلا أننا لم نسجِّل أية زلازل ضربت منطقة أوريكا.

فضلاً عن أن منطقة هايتي، فيها ما يُعرف بـ «الصدع» أو الفالق؛ وهو المتسبب الأساسي في حدوث الزلازل. هذا الفالق يقع ضمن تركيبة جيولوجية تلتقي فيها صفائح تكتونية، يحتك بعضها بالبعض الآخر في حركة أفقية «الصفائح الكاريبية، وصفائح أميركا الشمالية»، وهو الأمر الذي يؤدي إلى إزاحتها بمسافة ١٠ ملليمترات سنوياً، وانزياح الصفائح الأولى إلى الشرق، وقد وقعت الزلازل في أحد فروع الصدع الزلزالي الذي لم يشهد أي اهتزازات على مدى ٢٠٠ عام تقريباً.

ولذا؛ فقد ظلت الضغوط المتواصلة تتراكم فيه بسبب احتكاك الصفائح بعضها مع البعض الآخر، لحين وصول الزمن الذي تحررت فيه كل الطاقة المختزنة في المنطقة، فكان الزلزال.

[بتصرف... من مقال: «الانطلاقة الإقليمية التركية... لماذا؟ وكيف؟»، د. باكينام الشرقاوي: ٢٠٠٩/١٢/١٥]

– لا يوجد أي مظهر للإسلام والمسلمين في كوريا الشمالية؛ نظراً لأن النظام الشيوعي هناك لا يقبل بوجود أي مسلمين أو ديانات أخرى؛ فالشيوعية هي العقيدة السائدة في كوريا الشمالية حتى الآن؛ إلا أن الأمر يختلف بالنسبة لكوريا الجنوبية التي يُقِر دستورها بحُرِّية الاعتقاد.

– عدد سكان كوريا الجنوبية ٤٩ مليون نسمة.

– عدد الأقلية المسلمة في كوريا الجنوبية : ٣٠٠,٠٠٠ مسلم.

– عدد جنسيات الأقلية المسلمة ١٤ جنسية لـ ١٤ دولة ما بين: كوريين وإندونيسيين وماليزيين وأمريكيين.

– عدد الأديان في كوريا الجنوبية ٢٠٧ أديان، ابتداءً من الديانات القديمة، مثل: التشونوكية والشمانية والبوذية والكونفوشيوسية وانتهاء بالنصرانية والإسلام.

– عُمُر الإسلام في كوريا الجنوبية ٥٥ عاماً منذ دخوله إليها عن طريق الجنود الأتراك الذين جاؤوا لحماية كوريا الجنوبية من خطر الزحف الشيوعي القادم من كوريا الشمالية ضمن قوات الأمم المتحدة.

– يتجمع المسلمون الكوريون في ٣ مدن، هي: (سيول وبوسان وكوانجو).

– تم الاعتراف باتحاد المسلمين الكوريين عام ١٩٧٦م.

– تم افتتاح المسجد والمركز الإسلامي في سيول عام ١٩٧٦م.

– عدد الزوار الكوريين الذين يترددون على المركز الإسلامي في سيول يومَي: السبت والأحد من كل أسبوع يتجاوز ٣٠٠ زائر.

– عدد العمال الكوريين العاملين في البلاد العربية ٢٠٠,٠٠٠ عامل.

– نسبة المتدينين في الشعب الكوري تجاوز ٥٠ ٪ من إجمالي عدد السكان.

– يشكل البوذيون حوالي ٢٣ ٪ من عدد السكان بينما يمثل المسيحيون ٢٦ ٪: (١٩,٦ ٪ بروتستانت، و ٦,٦ ٪ كاثوليك)، بالإضافة إلى ٤٩,٣ ٪ لا ينتمون إلى أي ديانة، و ١,٣ ٪ غير معروف ديانتهم (حسب إحصائية موقع «fact book» لعام ١٩٩٥م.

– نسبة المسلمين الكوريين من إجمالي عدد السكان ٠,٦ ٪.

– توجد بلدة صغيرة وسط حوالي عشرين قرية في كوريا الجنوبية تسمى: (ساسانج – يونج – دي)، يسكنها حوالي ٧٠٠ نسمة اعتنقوا الإسلام جميعاً في عام ١٩٩٧م، وبدأ أحد رجال الدعوة في القرية بنشر حقائق الإسلام في القرى المجاورة.

– أول كوري فكر في ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الكورية، هو: (د. كيم يونج سين) أستاذ اللغة العربية في جامعة هانكوك، والذي آمن بكل قيم ومبادئ الإسلام؛ فأشهر إسلامه وسمَّى نفسه: عثمان.

أقرت المنظمات الإسلامية في بعض البلدان العربية هذه الترجمة وقامت رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة بطبعها على نفقتها الخاصة ووزعتها على المسلمين المتحدثين باللغة الكورية، كما قام المترجم بإعداد دراسة عن سيرة النبي ﷺ وترجمة الأحاديث النبوية الشريفة.

مواقع ذات صلة:

HYPERLINK «http://www.islamkorea.com/english/index.html» http://www.islamkorea.com/english/index.html

HYPERLINK «http://www.koreanarab.net» http://www.koreanarab.net

HYPERLINK «http://www.themwl.org» www.themwl.org

HYPERLINK «http://www.islamhouse.com/ip/185680» http://www.islamhouse.com/ip/185680

هديتك لمن تحب

من الأحياء والأموات «رحمهم الله»

الآن بين يديك ..

أوراد أهل السنة والجماعة

للتوزيع الخيري و المبيعات في المملكة العربية السعودية - اليمن - السودان

دار رسالة البيان للنشر والتوزيع هاتف / ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة ٥٠٢/٥٠٠ جوال / ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

المنطقة الغربية /٠٥٠٦٤٦١٠٥٧، المنطقة الجنوبية / ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨، القصيم / ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

الشرقية / ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩، مكة / ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠

شهيق العصفور

بسام الطعان
bassamtaan@yahoo.com

– ليتك لم تأتِ أبداً يا عيد! أو تأخرت حتى تتفتح براعم الفتوة في مساكب الجسد...

– آه يا عيد! لماذا عدت بهذا الشكل؟

عيد متعِب، يزيد التوتر توتراً، يغطي الأجساد الباردة بمعاطف الأنين، في ليلته (العيد) أمسك الطفل الذي لم يتجاوز الخامسة من عمره بيد أبيه وأخذ يهزها ويبكي: بابا! خذني إلى ماما... أريد ماما...

أمسك الأب بسُبحة من الهم لا ينتهي العد فيها، ثم دخل في مغارات الصمت الرهيب، وقبل أن ترتفع راية الهوس، ضمَّه إلى صدره، مسح دموعه، قبَّله، وفي داخل حقل الكآبة الذي دخله رغماً عنه، هدهده، وحدَّثه عن الألعاب الكثيرة التي سيشتريها له... عن الشوكولا والفواكه اللذيذة... عن العيد والزيارات الكثيرة التي سيقومان بها... عن فرح قادم كالربيع... وعن المدرسة عندما يكبر قليلاً...

لكن الطفل رفض أن ينتمي للهدوء، ورفض كل الإغراءات وظل يطالب بحقه ككل الأطفال، عندئذٍ أخرج من جيب ذاكرته حكاية جميلة مثل ضحكة طفل ونثرها في أذنيه، ولكن حين تحولت الكلمات إلى عصافير تطير نحو البعيد خرج من دائرة المنطق وصرخ وهو يأتي حركات عشوائية: متى سألحق بها وأرتاح؟

لكنه ما لبث أن هدَّأ نفسه وهدَّأه، ثم مسح شعره بحنان ووعده أن يأخذه إليها في الصباح.

قبل أن ينهض الصبح من نومه، مسح الطفل النعاس عن عينيه... دار بنظراته في الغرفة... تطلَّع إلى ثيابه الجديدة المعلقة على الحائط فلم يشعر بالبهجة، اقترب من أبيه الذي كان يتصنَّع النوم قائلاً: بابا! انهض يا بابا! لنذهب إلى أمي.

فتح عينيه ببطء ونظر إليه بأسىً وكاد يجهش ببكاء حاد مصحوب بتوجعات آلامه؛ غير أنه تمالك نفسه، داعبه قليلاً، ثم ألبسه ثيابه الجديدة، وحاول أن يجلب له من سماء العذاب سرب حمام... حدَّثه عن أشياء كثيرة لعله ينسى، لكنه رفض النسيان، وأمام الإصرار والحرائق التي استندت على روحه ودمه، أمسك بيده ومضى به برفقة قنديل الجراح إلى حيث ترقد الأم.

جلس أمام كومة تراب ترتفع فوقها شاهدة حجرية، أجلس الطفل في حضنه، قبَّله وهو ينتحب بصمت، وقال بصوت أشبه بالهمس:

هذه هي أمك يا ولدي! إنها تنام هنا منذ أسبوع.

تطلَّع الطفل بدهشة إلى كومة التراب، ثم إلى القبور الكثيرة وطرح أسئلته البريئة: لماذا هي نائمة هنا؟ لماذا لا تنهض وتأتي إلى البيت؟

ثم قال وهو يشير إلى القبور: لماذا كل هذه البيوت صغيرة؟

اغرورقت عيناه بالدموع، وأعلن هزيمته أمام الأسئلة، وحين طال صمته صاح الطفل: ماما...! ماما...! انهضي يا ماما...! ماما...!

أضاف حين لم يسمع جواباً: لماذا لا ترد؟

– إنها نائمة يا بني! لا تبكِ، سأحكي لك حكاية جميلة. قالها حين دخل الطفل في حقل البكاء.

رفض وتمرَّد، فما كان منه إلا أن حمله بين ذراعيه وعاد به إلى البيت رغماً عنه.

منذ أن فقد شريكته في الحياة وهو يأرق من الصباح إلى الصباح، يمتطي صهوة العذاب، ويدق باب النسيان، فيرجعه الرِّتاج، ومع صداه الذي يصدمه ينبثق أمامه وجهها الذي طالما هدهده في الليالي.

حياته أضحت بلا معنى... بلا هدف... بلا روح... حياة كالوباء... كالصمت السرمدي، ونفسه مفجوعة، مشروخة، ومشحونة بألف رغبة ورغبة. أما وجهه، فهو دائماً منكسر وشاحب كلون أوراق الجرائد القديمة.

أيام عدة والطفل لا يمل من البكاء، يريد أن يكون كابن الجيران، يذهب مع أمه إلى الحديقة، يعانقها وتعانقه، ينشد لها وتنشد له، يلثم وجهها وتضمه إلى حضنها الدافئ.

في ليلة لا تشبه الليالي، كان الأب يتقلب في فراشه، وحين وقعت نظراته على الطفل النائم في الجهة المقابلة، قال في نفسه: «يجب أن أبحث له عن أم أخرى، عندها سينسى وسيعود الدفء إلى هذا البيت».

لم يتأخر كثيراً عما أراد، دخل إلى البيت ومعه امرأة مرشحة لأن تكون أماً وزوجة.

قال بمرح: تعال يا «عبودي!» وسلِّم على ماما.

ترك طائرته الصغيرة ونظر إليها بعينين مجهدتين، فبدت له مثل كائن غريب، وفجأة انساب الهلع إلى قدميه الصغيرتين، وفي الشارع الواسع كان قلبه عصفوراً تحوَّل شدوه إلى شهيق خافت.

«انتكاسة» صهيونية بعد أزمة «المقعد التركي المنخفض»

د. عدنان أبو عامر(*)

ما زالت الحلبة السياسية والدبلوماسية والإعلامية في الكيان الصهيوني تعج بتفاعلات التعامل المهين من قِبَل نائب وزير الخارجية الصهيوني أمام السفير التركي في تل أبيب.

ورغم الاعتذار الصهيوني للدولة التركية، وما سبَّبه ذلك من خيبة أمل لم تتعود عليها الدولة العبرية، إلا أن الأزمة لم تنتهِ عند هذا الحد، وجميع المؤشرات الصادرة من تل أبيب وأنقرة تنبئ بأن: «شهر العسل» الذي دام بينهما لعقود عديدة أصبح خبراً من الماضي.

كمين أوقع صاحبه:

من الأهمية بمكان تسليط الضوء على أبرز «الخروقات» الدبلوماسية المهينة التي تلقَّاها السفير التركي في ذلك الحادث:

١ – جرى استدعاؤه بصورة سريعة؛ للتعبير عن الاحتجاج على تصريحات رئيس حكومته ضد تل أبيب.

٢ – تجاهل نائب وزير الخارجية مصافحة السفير.

٣ – أجلسه على مقعد منخفض عن المقاعد التي يجلس عليها نظراؤه الصهاينة.

٤ – لم يقدِّم له أي مشروب.

٥ – تم الاكتفاء بوضع العلم الإسرائيلي دون العلم التركي على المنضدة التي تتوسط مقاعدهم.

٦ – طالبت وزارة الخارجية مصوري وسائل الإعلام بالتركيز على هذه الأمور!

المحلل السياسي «شلومو تسزنا» علَّق في صحيفة «إسرائيل اليوم» على الأزمة الدبلوماسية بقوله: «إن طقس الإهانة الذي أجراه نائب وزير الخارجية للسفير التركي أمام عدسات التلفزيون أصبح أزمة حقيقية في العلاقات بين أنقرة وتل أبيب»، في ظل ارتفاع لهجة الانتقادات التركية المتواصلة ضد جرائم الحرب الصهيونية في قطاع غزة.

وقد اختار «شمعون شيفر» كبير المعلقين السياسيين في صحيفة «يديعوت أحرونوت» الرد على ما سبَّبه نائب الوزير من ردود فِعْل إقليمية ودولية غاضبة على الكيان الصهيوني بقوله: «التوبيخ الدبلوماسي المهين لم يكفِ وزارة الخارجية. ومسرحية الاستخفاف التي أخرجها نائب الوزير تبدو وكأنها مأخوذة من عهد السلاطين، ولإكمال المسرحية كان ينقص فقط الطلب من السفير الدوس على علم تركيا. ولئن تخصص وزير الخارجية ذاته بالمس المنهجي بعلاقاتنا مع جيراننا، فإن نائبه ينجح في ترجمة هذه السياسة إلى لغة مسرحية مخجلة».

وكان «إيتان هابر» رئيس ديوان رئيس الحكومة السابق، الأكثرَ جرأة في انتقاد هذا السلوك الأخرق من قِبَل وزارة الخارجية، بقوله: «لِعِلْم دبلوماسيينا «الأغبياء»؛ فإن تل أبيب المحاصَرة تحتاج أنقرة أكثر مما تحتاجها الأخيرة بأضعاف؛ لأن «بنيامين نتنياهو، وإيهود باراك» وغيرهما يسمعون

(*) كاتب فلسطيني.

شـــتائم «أردوغان»، فيصمتون ويُنزِلون رؤوسهم، ويأمَلون بأن تمر الموجة العكرة من فوق رؤوسهم، ويعرفوا لماذا؟

و نظر وزير الخارجية الأسبق «يوسي سريد» إلى التبعات السياسية والتاريخية لما أسماها بـ: «الفضيحة الدبلوماسية» وآثارها على ترسـيخ عزلة الصهاينة على مسـتوى العالم، بقولـه: «كان «بن غوريون» يرمي إلى إعادة الشـعب اليهودي إلـى التاريخ وعائلة الأمم، لكننا من جهتنا نُصِرُّ على أن نكون الابن الشـاذ الأهوج؛ إذ يعيدنا «نتنياهو وليبرمان» إلى الغيتو المغلـق المفصول، ويحيطوننا بجدار وسـور. إن ما حصل في وزارة الخارجية لا يعطي شهادة على ثقة بالذات، بل العكس؛ إنه يُظهِر ضعفاً وكأننا ما نزال عبيداً لفرعون!

مسلسل التطبيع:

بعد الاكتفاء بجولة سـريعة على أبرز ما تناولته وسـائل الإعـلام الصهيونية مـن تعليقـات منددّة بالسـلوك غير الدبلوماسي لوزارة الخارجية، يبدو من السطحية بمكان النظر إلى هذا الحادث بصورة جزئية، دون الأخذ بعين الاعتبار أبرز ملامح الأزمة بـين تركيا والكيان الصهيوني منذ عام تقريباً، وإليك الشواهد التالية:

١ - الموقف الشـهير لـ «أردوغان» حين انسـحب من جلسةٍ جَمَعتْه بالرئيس الصهيوني «بيريز» في مؤتمر دافوس بسويسرا؛ احتجاجاً على عدم إعطائه الوقت الكافي للحديث عن العدوان على غزة.

٢ - مَنْع تركيا الجيش الصهيوني من المشاركة في مناورة: «نسر الأناضول»، وأرجعت هذا الموقف إلى القلق العام بشأن العملية العسكرية الإسرائيلية على غزة.

في المقابـل، لا تبدو الصورة موحَّـدة في تل أبيب تجاه انتقاد وزارة الخارجية؛ فقد كان مقـدِّم البرامج التلفزيونية السياسية الأشهر في الكيان الصهيوني «دان مرغليت»، أكثر حدَّة في توجيه اتهامات قاسية ولاذعة للموقف التركي، مؤكداً أن أنقـرة - فعلاً - تريد العودة إلى مرحلة «الرجل المريض»؛ إذ يقـول: إنها لحظة جنون تصيـب تركيا بقيادة «أردوغان»، وهو يتصرف كـ «المخدر»، ويحتاج كميات متزايدة من المخدر ذي الرائحة «غير السـامية». كل يوم يجلب معه توسيع «وباء» التحريض، ولعله يفكر باستعادة عهد الإمبراطورية العثمانية، الذي انتهى في نهاية الحرب العالمية الأولى، ولن يعود أبداً».

بينما كان البروفسـور «إفـرايم عنبار»، أسـتاذ العلوم السياسـية في جامعة بار إيـلان، ومدير مركـز (بيغين - السادات)، أكثر صراحة وعقلانية حين طالب صناع القرار في تل أبيب بالتـروي في ردِّ الفعـل «المتشنج» تجـاه تركيـا؛ لأنه - كما قال -: «ما أزال متأمِّلاً، برغـم العلامـات الكثيرة التي تشـهد بأنها (أي: تركيا) أخذت تنزلق في منحدر «التطرف الإسـلامي»؛ فإن إسـرائيل ملزَمة إلى جانب العالم الغربي بجذب «الديمقراطية التركية» نحوها؛ لأن خسـارتها لصالح ما وصفه بـ: «الإسـلام المتطرف» ستكون ضربة استراتيجية شديدة للكيان والغرب».

ومـن ثَمَّ؛ فإن البرود الحاصل فـي العلاقات الصهيونية التركية (وإن جاء محصلة لتراكمات سياسية وأمنيـة) يشيـر - كما تقرأ ذلك المحافـل الصهيونية جيداً - إلى قرار تركي جِـدِّي بـ «النأي» عن تل أبيب مهمـا كان الثمن غالياً، ومهما كانت واشنطن سخية في دفع مليارات الدولارات؛ لتمويل جدول أعمال العلاقات العسكرية الأمنية (الصهيونية التركية).

وهو ما خَلَص إليه «رون بن يشـاي» رئيس ديوان الإعلام في مكتب الرئيـس الصهيوني حين قال: «يجب أن نصل إلى فَهْم الحقيقة «المرَّة»؛ إذ علينا الاعتراف بأن أنقرة، في الوقت الراهن - على الأقل - توقفت عن أن تكون شريكاً استراتيجياً أمنياً موثوقاً لنا، وهي حقيقة تمثِّل ضرراً فعلياً لأمننا القومي، وكل من ينظر في خريطة المنطقة سيفهم ذلك دون صعوبة.

وهو ما دفع بجملة من الأوسـاط داخل المحافل الأمنية والاستخبارية الصهيونية للحديث عن حلول لكيفية الرد على الأزمة؛ حيث نصح «يوسـي يهوشـع» الصحفـي المقرَّب من الأجهزة الأمنية بأن: «الانبطاح» أمام الأتراك لن يجدي نفعاً فـي هـذه المرحلة؛ لأن الحكومة فـي أنقرة - حالياً على الأقل - مصممة على «هجر» التحالف مع تل أبيب!

أخيـراً: بالرغـم مـن الصـورة السـوداوية في العلاقـة القائمـة حـالياً بـين تـركيـا والكيـان الصهيـوني؛ فـإن المراقـب لطبـيعـة السلوك السـياسـي الصهيـوني تجـاه التـوتـر الحاصـل مع تـركيـا، يخـرج بقـنـاعـة أن تـل أبيب لن تواصل إعـلان غضبـتها - عـلى الأقل إعلامياً ودبلوماسـياً - لسـبب هام (جيوسياسي) بالدرجـة الأولـى، وهو أن مـوقع تـركـيا (جغرافياً واسـتراتيجياً وسياسياً) لا يجـب أن يخضـع من وجهَة نظـر الصهاينة لردود الفعـل «الترقة والمنفعلـة»، بل يجب أن تعـاد الأمور إلى نصابها، على نار هادئة؛ فهل تنجح في ذلك؟

إخوان الصفا

جناح فكري للباطنية

أ. د. محمد أمحزون

انتماؤهم الفكري:

إخـوان الصفا: جماعـة فكرية ظهـرت بالبصرة في القـرن الرابع الهجـري. وهـم في الظاهر جماعة مـن الأصدقـاء العقـلاء، والإخـوان الألبَّـاء؛ سـلموا مـن الشـوائب البشـرية وتحلَّـوا بأوصـاف الكمالات الروحانية[١].

وهم أيضاً في نظر آخرين: «عصابة قد تآلفت بالعِشرة، وتصافـت بالصداقـة، واجتمعـت على القـدس والطهارة والنصيحة؛ فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قرَّبوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله...»[٢].

ولكنهم في واقع الأمر جماعة سرية باطنية، مزجت الفلسفة الإغريقية والعقيدة الباطنية ببعض المبادئ الإسلامية. ونتيجة لذلك؛ فهي أُولَى ثمار الحركة الباطنية التي اسـتغلت التشيع والتصوف الفلسـفي وجعلت من ذلك سـتاراً؛ لنشر رسائلها وأفكارها الهدَّامة بأسـلوب متلوِّن غير صريح وغامض؛ حيث جمجموا[٣] ولم يفصحوا للتلبيس على الأتباع.

ولذلك خفي أمرهم على كثير من الناس حتى في عصرنا هذا، وأصبحوا لغزاً مبهَماً في التاريخ الإسـلامي، واختلف الباحثون والعلماء في تصنيفهم، إلا القليل من العلماء النقَّاد المحققين الذين كشـفوا عن هويتهم وأهدافهم، وعن فحوى رسائلهم[٤].

يعرِّفهم ابن تيمية بقوله: «كانوا من الصابئة المتفلسـفة المتحنِّفة؛ جمعوا - بزعمهم - بين دين الصابئة المبدِّلين وبين الحنيفية، وأتوا بكلام المتفلسفة وبأشياء من الشريعة، وفيه من الكفر والجهل شيء كثير...»[٥].

وقال الذهبي حـين ترجم لأبي حامد الغزالي في كتاب السِّـيَر: «وحُبِّبَ إليه إدمان النظر في كتاب (رسائل إخوان الصفا) وهو داء عضال، وجَرَبٌ مُرْدٍ، وسُـمٌّ قاتل، ولـولا أن أبا حامد من كبار الأذكياء لتَلَف»[٦].

(١) خير الله سعيد: النظام الداخلي لحركة إخوان الصفا، ص. ٣٥.
(٢) أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، الليلة السابعة عشرة: ص ١٢٣.
(٣) جمجم: لم يُبَيِّن كلامه، لسان العرب : مادة (جمم).
(٤) من كتاب (الباطنية وموقف الإسلام منهم)، د. جميل أبو العلاء، دار المعارف بمصر، وكذلك (فضائح الباطنية) للغزالي، تحقيق: محمد قطب، نشر: المكتبة العربية بيروت.
(٥) مجموع الفتاوى: ٤/ ٧٩.
(٦) سيَر أعلام النبلاء: ١٩/ ٣٢٨.

وفعلاً كما يقول ابن تيمية والذهبي - رحمهما الله - لقد ضل إخوان الصفا وزاغوا عن الصراط المستقيم، وشطحوا شطحات كثيرة لا سيما في تأثُّرهم ببعض المِلَل الزائغة والعقائد الوثنية، وإن كانت هذه الوثنية غامضة الملامح؛ ليست بالإغريقية الصرفة، ولا بالبابلية والآشورية الخالصة، وليست مزدكية ولا مانوية، وإنما هي خليط من جميع هذه العناصر المختلفة.

وهكذا نجد أن المبادئ العامة التي بنى عليها إخوان الصفا نظرياتهم مقتبَسة من الديانات المختلفة (موحِّدة ومجوسية) جاهدين في التوفيق بينها كلها.

وقد انتهت بهم نزعتهم التلفيقية هذه إلى أن يَرَوا في جميع المذاهب الفلسفية والوثنية والموحدية مذهباً واحداً يوفِّق بين جوهر الأديان، ولهذا قالوا: «الرجل الكامل يكون فارسي النسب، عربي الدين، عراقي الأدب، عبراني المخبَر، مسيحي المنهج، شامي النسك، يوناني العلم، هندي البصيرة، صوفي السيرة، ملَكيَّ الأخلاق»[1].

وقالوا كذلك: «ينبغي لإخواننا ألاَّ يعادوا عِلماً من العلوم أو يهجروا كتاباً من الكتب ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب؛ لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم كلها»[2].

إن هذه الرؤية محاولة لوضع نظام ديني جديد يَحُل مَحَل الشريعة الإسلامية التي يزعم إخوان الصفا أنها أصبحت لا تؤدي رسالتها، وهي دعوة إلى دين عالمي جديد وضْعي، على غرار ما يفعل الماديون الغربيون المعاصرون؛ بوضعهم أسس نظام عالمي جديد يقوم على القوانين الوضعية التي تعارف عليها البشر؛ قِوامه الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، وبلورتُها العولمة في شتى المجالات (السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإعلامية) وتمخَّض عنها الإنسان الكوني الذي تجتمع فيه الصفات التي ينبغي - في زعمهم وحسب أهوائهم - أن تكون قاسماً مشترَكاً بين بني البشر.

وبالجملة؛ فإننا نجد في توجُّه إخوان الصفا نزعة باطنية ذات مسحة شيعية عامة؛ تتجلى في بعض مقاطع الرسائل، كما سنرى. إلاَّ أن الفكر الذي يحمله هؤلاء يتعدى حدود المذاهب الشيعية المتعددة، كما يخرج على حدود الفِرق الإسلامية المعروفة؛ فهو فكر انتقائي يجمع بين الكثير من المعتقدات الدينية والمذاهب الفكرية، وينفتح أصحابه على أفكار كل نِحلة، ويبتغون جَمْعَ حكمة كل الأمم والأديان والمِلل؛ مذهبهم حسب تعبيرهم: «يستغرق المذاهب كلها، ويجمع العلوم جميعها، وذلك أنه بالنظر في جميع الموجودات بأسْرِها (الحسية والعقلية، من أولها إلى آخرها، ظاهرها وباطنها، جليِّها وخفيِّها) بعين الحقيقة من حيث هي كلها مبدأ واحد، وعلَّة واحدة، وعالَم واحد»[3].

بعض أمثلة التأويل عند إخوان الصفا:

أوَّلَ إخوان الصفا الثواب والعقاب الحسي الموجود في الجنة والنار؛ فزعموا: «أن جهنم هي: عالم الكون والفساد التي هي دون فلك القمر، وأن الجنة هي: عالم الأرواح وسعة السموات، وأن أهل جهنم هم: النفوس المتعلقة بأجساد الحيوانات التي تنالها الآلام والأوجاع دون سائر الموجودات»[4].

وهم في سبيل البرهان على معتقداتهم؛ يعمدون إلى تأويل الآيات القرآنية التي تتحدث عن عذاب جهنم ونعيم الجنة.

فمن الآراء الفاسدة في زعمهم: «من يظنون أن جهنم هي خندق محفور، كبير واسع، مملوء من نيران تشتعل وتلتهب، وأن الله - تعالى - يأمر الملائكة - قصداً منه وغيظاً على الكفار - أن يأخذوهم ويرموهم في ذلك الخندق، ثم إنه كلما احترقت أجسادهم وصارت فحماً ورماداً أعاد فيها الرطوبة والدم حتى تشتعل من الرأس ثانياً كما اشتعل أول مرة، وهكذا يكون دأبهم أبداً»[5].

وهذا الرأي على حد زعمهم يعني الإساءة إلى الله - تعالى - والاعتقاد بأن فيه من الحقد وقِلَّة الرحمة لخلقه[6] تعالى الله عمَّا يقولون علواً كبيراً.

ويرون أن من الاعتقادات والآراء المحيِّرة، والتي تبعث على الشك والريبة، أن يعتقد الإنسان أنه يباشر الأبكار في الجنة ويلتذ بها، وأن يرجو الجنة بعد خراب السموات وطيها كطي السجل للكتب، وأن يعتقد أن الأعمال تُجعل في كفتي الميزان، وأن يعتقد سؤال منكر ونكير في القبر من جسد الميت، وأن يعتقد أن في الجحيم تنانين وثعابين وأفاعيَ يأكلن الفساق، وما شاكل هذه الاعتقادات المؤلِمة لنفوس معتقديها[7].

بَيْد أن هذا الكلام ينفي القدرة والحكمة عن الله - تعالى - حين يرى إخوان الصفا أنه لا مجال لرجاء الجنة بعد خراب السموات وطيها كطي السجل للكتب، وفيه

(١) رسائل إخوان الصفا: ٤/ ٢٤٠.
(٢) المصدر السابق: ٤/ ٤٢.
(٣) المصدر السابق: ٤/ ٤٢.
(٤) رسائل إخوان الصفا: ٣/ ٦٣.
(٥) المصدر السابق: ٣/ ٦٢.
(٦) المصدر السابق: ٣/ ٦٢.
(٧) المصدر السابق: ٣/ ٨٧.

إلحاد في أسمائه - تعالى - وتعطيلها عن معانيها وجحد حقائقها؛ فقدرة الله - عز وجل - طليقة لا يحدها شيء؛ إذا قضى أمراً، فإنما يقول له: كن فيكون، كما أن أفعاله - تعالى - على مقتضى الحكمة من جميع الوجوه؛ إذ لا بد من مجازاة المسيء بالعقاب والعذاب ومجازاة المحسن بالفضل والجنة، كما قال - تعالى -: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١] ويوم الدين هو ميقات الفصل بين العباد: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٤٠].

ولأجل ذلك؛ فإن اعتقادهم هذا من أعظم الإلحاد في أسماء الله الحسنى وصفاته العلا؛ عقلاً وشرعاً ولغة وفطرة: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠] ومَرَدُّ ذلك أن إخوان الصفا استنبطوا اعتقاد الفلاسفة الماديين الذين سلبوا الله - تعالى - صفات كماله، وجحدوها وعطلوها.

وقد أدى تأويلهم للبعث والقيامة إلى إنكار الحشر والنشور؛ إذ اعتقدوا أن خراب العالم وحشر الأجساد يوم القيامة شيء يأباه العقل، وإنما هي أحوال تطرأ على النفس بعد الموت أو حين تنتبه من غفلتها في الدنيا، في كلام متناقض مضطرب لا يوقن بحقائق الآخرة. يقولون: «إن البعث والقيامة أمور تقال لعامة الناس ولمن لا يعرف من الأمور شيئاً. أما الخاص ومن نظر في العلوم، فإن هذا لا يصلح لهم؛ وذلك لأن كثيراً من العقلاء والحكماء (الفلاسفة) ينكرون خراب السموات ويأبون ذلك إباءً شديداً، والجيد لهم أن يعتقدوا أمر الآخرة، وأن لها عَوداً متأخراً عن الكون في الدنيا، كما كان في الدنيا موجوداً متأخراً عن الكون في الرحم، وكما كانت أيام الشيخوخة متأخرة عن أيام الشباب... وهي أحوال تطرأ على النفس بعد مفارقتها الجسد إذا هي انتبهت من نوم غفلتها في الدنيا واستيقظت من رقدة جهالتها قبل الممات»[1].

وهذه عقيدة مستوحاة من نظرة الفلاسفة الماديين إلى الكون والحياة؛ إذ يؤمنون بقِدَم العالم وخلوده، وأنه لا يلحقه الزوال والخراب، وأنه لا بعث ولا حساب على الإنسان بعد مماته؛ ولهذا ينكر إخوان الصفا اليوم الآخر، كما جاء في الكتاب العزيز والأحاديث الشريفة ويؤمن به المسلمون.

كما أنكروا في رسائلهم أيضاً وجود إبليس والشياطين؛ فالاعتقاد بوجودهم - على حد زعمهم - من الآراء الفاسدة. يقولون: «ومن الآراء الفاسدة من يعتقد أن الله خلق خلقاً وربَّاه وأنماه وأنشأه وسلَّطه وقوَّاه على عباده متمكناً في بلاده، ثم ناصبه العداوة والبغضاء، وهو إبليس وجنوده من الشياطين»[2].

وبالجملة؛ فإن المتأمل في رسائلهم يرى بجلاء ووضوح أنهم لا يؤمنون بالأمور الغيبية مطلقاً، رغم أنها شرط في صحة الإيمان بالله - تعالى -: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، بل أوَّلُوها إلى أمور حسية، كما رأينا في تأويلاتهم للجنة والنار متأثرين بلوثة وترَّهات الفلاسفة الماديين الذين انسدَّت في قلوبهم مدارك البصيرة، والمعرضين عن آيات الله - تعالى - التي لا تحصى في الآفاق والأنفس.

من خلال ما تقدم نلاحظ بوضوح أن رسائل إخوان الصفا كانت مقدِّمة لتحويل الدعوة الباطنية إلى مؤامرة خطيرة لتدمير العقيدة والشريعة الإسلامية معاً، وتفكيك الدولة الإسلامية.

فإخوان الصفا جماعة سِرِّية من الباطنية المجوس والزنادقة الحاقدين على الإسلام واللغة العربية؛ كان هدفهم من كتابة هذه الرسائل وضع مخطط لتقويض المجتمع الإسلامي؛ إذ لما تعذَّر عليهم مَطلَبُهم وعزَّ عليهم مرامهم؛ بالنيل من الإسلام، لجؤوا إلى حقن جسد الأمة الإسلامية بأنسجة فاسدة، وما ذلك إلا التلفيق بين دين الأمة وهويتها وخصوصيتها الحضارية، وبين ما يناقض دينها ويصادم هويتها وينتهك خصوصيتها الحضارية؛ من المناهج الفكرية الدخيلة الضارة.

وقد أسهم في تنفيذ هذا المخطط الذي وضع لبِنَاته، إخوان الصفا، العبيديون في بلاد المغرب ومصر، والحشاشون في بلاد فارس، والدروز والنصيرية في بلاد الشام.

كما حاول إخوان الصفا وضع دين عالمي جديد يحل محل دين الإسلام بعقيدته وشريعته التي يزعمون أنها أصبحت عتيقة لا تؤدي رسالتها.

وقد أخفقت محاولتهم إخفاقاً تاماً؛ فلم تنتج نظاماً علمياً، ولم تنشئ مجتمعاً جديداً يقوم على أساسها،

(١) المصدر السابق: ٤/ ٤٠.

(٢) المصدر السابق: ٤/ ٦٢.

وأصبحت في مدة قريبة مـــن الآثار التاريخية التي لا تأثير لها في حيـــاة الناس، وإن تلقَّفت الفِـــرق الباطنية الأخرى أفكارها واستعانت بها في تقويض دعائم المجتمع الإسلامي في فترات من تاريخه.

وفي العصر الحديـــث كان من أبرز أعمال الغزو الثقافي والتغريب ممثلاً في الاستشـــراق والتنصيـــر، هو إعادة طبع وإحياء رسائل إخوان الصفا من جديد؛ بهدف التشويش على خط الإســـلام الأصيل الذي يمثله القرآن والسُّـــنة؛ فقامت المطبعة الكاثوليكية في بيـــروت بإعـــادة طبـــع هذه الرسائل.

ثـــم جاء دعاة التغريب وتلاميذ المستشـــرقين في العالم الإســـلامي فأعلَوْا من قيمة هذه الرسائل وقالوا: هي أعظم ذخيرة أدبية وفلسفية، هكذا علَّمهم المستشرقون. وعلى رأس هؤلاء طه حسين الذي ادعى أن إخوان الصفا قوم مجدِّدون مصلِحون، قدَّمـــوا للمجتمع الفلســـفات اليونانية والهندية والفارسية؛ لإنشاء ثقافة جديدة، هي الثقافة التي يجب على الرجل المســـتنير أن يظفر بها! وهذا خداع من طه حســـين لقومه؛ فإن رسائل إخوان الصفا ما وُضِعَت إلا لهدم الإسلام وما جُدد طَبْعها ونَشْرها إلا لهذا الغرض.

ومن المشروعات التلفيقية التي ظهرت في عصرنا متأثرة بفكر إخوان الصفا مشـــروع (اليسار الإسلامي) الذي حاول التوفيق بين الإســـلام والماركسية؛ إذ أراد هذا المولود المشوَّه المعاق أن يتبنى قضايا الثورة والاشتراكية والعدل الاجتماعي وغيرها من القضايا.

و(إخوان الصفا الجدد) دعاة هذا المشـــروع المشبوه لـمَّا انفض الناس عن دعوتهم الاشـــتراكية التي فشلت في عُقْر دارها، ونفر الناس من مبادئهم اليســـارية، لجؤوا إلى حيلة التوفيق أسوة بأسلافهم الباطنيين والزنادقة.

وهذا أســـلوب المنافقـين فـي كل زمـــان، كما قال الله – تعالى – عنهم في التنزيل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦١ – ٦٢].

وقد حمل راية هذا المشـــروع المشوَّه لفيف من الزنادقة الباطنيـــين والعلمانيين، أمثـــال: فتحي عثمـــان، ومحمود إسماعيل، وسيف الإسلام محمد، ومحمد عابد الجابري... وغيرهـــم؛ غير أن الـــذي تولى كِبْرَه فـــي النهوض بهذا هو (حسن حنفي) صاحب مجلة «اليسار الإسلامي».

كانوا من الصابئة المتفلسفة المتحنِّفة؛ جمعوا بزعمهم بين دين الصابئة المبدِّلين وبين الحنيفية، وأتوا بكلام المتفلسفة وبأشياء من الشريعة، وفيه من الكفر والجهل شيء كثير

وخلاصة القول:

على الرغم من طَبْع ونَشْـــر رسائل إخوان الصفا كجزء من مخطط التغريب والغزو الثقافي الذي دشنه المستشرقون وتلامذتهم المنتســـبون للإســـلام، وعلى الرغم من رفع أهل التخريب العقدي مـــن إخوان الصفا الجدد عقيرتهم للجمع بين التيارات المتناقضة تحت عباءة اليسار الإسلامي؛ لنسف الإســـلام وتفكيكه من الداخل، فإن مخططات هؤلاء جميعاً للنيل من الإسلام الدين الحق باءت بالفشل ولله الحمد، كما قال الشاعر العربي:

كناطحٍ صخـــرةً يومـــاً ليوهنها
فلم يُضِرْها وأوهى قرنه الوعِلُ[1]

على أنه قد ظهـــر قديماً وحديثاً من علماء المســـلمين من تصدَّى لكشـــف زيف رسائل إخوان الصفا؛ فما هي إلا ســـموم عرفها أهل الأصالة الإسلامية، وضلال وزيغ أبانوا عن فســـاده: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

وحســـبك أن تكون هـــذه التوفيقية المتلونة في رســـائل إخوان الصفا منهج الكافريـــن حقاً؛ إذ لم تُنتِج إلا التناقض والارتباك، والحيرة والاضطراب، وهذه – لعمرُ الله – ثمرات النفاق الاعتقادي والكفر بالله والإشراك به.

لقـــد فضح الله – عز وجل – دعاة هذه المناهج التلفيقية المشبوهة وهتك سترهم بقوله – جلَّ ذِكْره –: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠ – ١٥١].

(١) ديوان الأعشى ميمون بن قيس: ص ٦١.

دعوة إلى إحياء علم الفقه الافتراضي

إحيـــاء علم الفقـــه الافتراضي (المفتـــرض)، في اهتمام المؤسسات الشرعية والجامعات ومراكز البحوث والدراســـات والمجامع الفقهية، واجب يجب العمل على تحقيقه مع ازدياد الحاجة إليه.

وعلـــم الفقه الافتراضي (المفتـــرض): مجال فقهي خصيب وطريف، نشـــط بصـــورة واضحـــة في بعض البيئات الحضرية كـ (العراق)، وبعض المدارس الفقهية؛ وبالأخص عنـــد الفقهاء الأحنـــاف[1]. ويمكن أن نعرِّفه بإيجاز بأنه: نشـــاط فقهي تُنزَّل فيه الأحكام الشرعية ذهنيّاً على صور افتراضية لم تقع.

وهو يصدر عن النظام المعرفي للفقه العـــام، أو ما يمكن أن نسميه – لتمييزه – بالفقـه المعاشـي أو الواقعي، ولكنه يختلف عنه فـــي أن الفقه العام (الواقعي) يكون عند طلـــب البيان أو الحاجة. أمـــا الفقه الافتراضي؛ فإنه يسبق وقوع الحاجة وطَلَب البيان لمعالجتها، وذلك؛ لأن الفقيه المفترِض ينشئ تصورات ذهنية لمسائل غير واقعة (يفترض وقوعهـــا)، ومن ثَمَّ يُنزِّل عليها الأحكام الشـــرعية، مثل: لو أن رجلاً صلـــى المغرب، ثم ارتقى في الســـماء فرأى الشمس ولـمَّا تغرب، ثم غربت؛ فهل يعيـــد صلاته، أم تجزئه صلاة المغرب التي صلاَّها في الأرض؟ ولو أن حاملاً أسقطت جنينها، فجاءت أخرى فأخـــذت الجنين ووضعته في رحمهـــا؛ فهل يجوز لها هذا؟ وإلى من يُنسَب الجنين؟ ومَن أمه؟ ولو أن رجـــلاً بحـــريّـــاً؛ أي: يعيش في ميـــاه البحـــر، وأصـــاب جنـــابة وهـــو فـــي البحـــر؛ فهـــل يغتســـل أم يجزئه كونه في البحـــر.

وهـــي بالضرورة أحكام غيـــر ملزمة ولا مانعة من الاجتهاد؛ لكونها أحكاماً افتراضية غير متصلة بالواقع الحقيقـــي. وغايتهـــا رياضية علمية؛ وهي: تنشـــيط الأفهام، وتحرير القواعـــد الأصولية، وتمرين الذهنية الفقهيـــة على المســـائل والهيئات المركَّبـــة، والصفات الممكنة الحدوث.

ونحـــن في هذا العصـــر بحاجة إلـــى إحياء هذا النشـــاط الفقهي المغيَّب؛ لأنه يسبق إلى إيجاد الحلول الأخلاقية النافعة، ويسهم في تجاوز فكرة البدائل إلى التسريع بصنع النماذج الفاعلة لمشكلات قد تقع أو يقع ما يشابهها في أية لحظة، ويجعل من العقل الفقهي أكثر مرونة في تقبُّله للمفاجآت، وأكثر قدرة على التعامل مع الحاجات الطارئة، وأقدر على تجاوز الفتور والدهشة، ويقلل من (تعثُّر الفتوى الرشـــيدة) الناشئة عن الحاجز النفسي المانع من استقامة التمثّل العقلي؛ بحكم انطباع العادة، وضعف تصوُّر الحاجات والتطلع للمستقبل لدى المؤسسة الفقهية المعتبرة.

وأحســـب أن مصطلـح الفقـــه الافتراضـــي أو المفترض، أفضل من مصطلحَي: الفقه الذهني أو الفقه التخيلي (المتخيل)؛ لأن النشـــاط الفقهي سواء منه ما كان واقعيـــاً أو متخيلاً، هو في جوهره نشـــاط ذهني، فلا تمايز بينهما في هذا الجانب يســـتدعي تخصيص أحدهما بوصـــف (الذهني) دون الآخر، كما أن إطلاق مصطلـــح التخيلي (الخيالي) على هذا النشـــاط، فيه حَبْس له فـــي فرع واحد دون الآخر؛ ذاك أن نشـــاط الفقه الافتراضي أو المفترض يجمع بين نوعين أصيلين، هما: النوع الناشـــئ عن التصور الخيالي لصور لم تقع ولا يتصور وقوعها وقت افتراضها، وبين النوع الناشـــئ عـــن تصوُّر لوقائع لم تقع حال الافتراض، ولكن يُتَصوَّر أن تقـــع في الواقع الذي يعيش فيه الفقيه؛ غير أنها لم تقم الحاجة لبيانها أو لم يطالَب الفقيه بذلك.

أحمد علي آل مريع

باحث وأكاديمي سعودي

aaljoonIhotmail.com

---

(1) الوقوف على مصطلح فقه أبي حنيفة الفقهي الافتراضي وأثره في تطوره، رفيع الفقيري، ومصطفى محمد القباني الفقي، الشواهين للدراسات والنشر، [illegible]

وقفات في بداية عقد جديد

تنقضي أعمارنا يوماً بعد يوم، وكلما زاد عمر الإنسان نقص عمره في الحقيقة. ها نحن قد ودَّعنا العقد الماضي، وهو عشر سنوات (١٤٢١ - ١٤٣٠هـ) كان فيها ما فيها: من خير وشر، وصلاح وفساد، وأمل وألم. ودخلنا في عقد جديد (١٤٣١ - ١٤٤٠هـ). ولا يعلم ما يكون فيه إلا علاَّم الغيوب.

من سنن الله الكونية أن الإنسان لا يبقى على حال، وقد أقسم الله في كتابة على هذا، فقال - سبحانه -: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٦ - ١٩].

لن تستمر أحوالنا على ما هي عليه الآن إلى آخر العقد، بل ستتغير الأحوال في كل فرد، وفي كل أسرة، وفي كل مجتمع، بل وفي العالم أجمع؛ وهذه سُنة الله - تعالى - في خَلْقه. ولنذكر شاهداً من أول التاريخ الإسلامي المشرق؛ ففي السنة السادسة من الهجرة وقع الصلح بين المسلمين وكفار قريش في الحديبية، وكانت مدة الصلح عشر سنوات؛ أي: عقداً من الزمان: من سنة ٦ للهجرة إلى سنة ١٥ للهجرة، وكان المسلمون يومئذٍ ألفاً وأربعمائة، ولم يكن يعلم أحد منهم أنه في ذلك العقد من الزمان ستتغير الأحوال بما لا يخطر على البال؛ ففي ذلك العقد فُتحت مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ومات النبي ﷺ، ثم تولَّى الخلافة أبو بكر ثم عمر - رضي الله عنهما - وفتح المسلمون فارس والروم، وأعلى الله كلمته، وأعز جنده. من كان يظن أن هذا كله سيحدث في عشر سنوات؟

شاهد آخر: دخل العقد الرابع الهجري سنة ٣١ وكلمة المسلمين مجتمعة، ورايات الجهاد في مشارق الأرض ومغاربها مرفرفة، وقد فاضت الأموال، وكثرت الخيرات، وما كان أحد من المسلمين يعلم أنه في ذلك العقد ستتغير الأحوال بما لا يخطر على البال؛ فقد قُتِل الخليفة عثمان - رضي الله عنه - وماجت الفتن بعد ذلك موجاً، وحصل ما حصل بين المسلمين، وتفرَّقت الأمة، واختلفت الكلمة، ومن كان يظن أن هذا كله سيحدث في عشر سنوات؟

نماذج لمشاريع مقترحة:

إذا حفظت في كل يوم نصف صفحة من الكتاب العزيز؛ فستحفظه في أربع سنوات.

أما السُّنة فَحِفْظها أسهل، ومن خير ما يُحفظ من السُّنة: كتاب رياض الصالحين للنووي وبلوغ المرام لابن حجر، رحمهما الله؛ فلو حفظت كل يوم حديثاً واحداً فقط، فستحفظ أحاديث هذين الكتابين في نحو تسع سنوات؛ أي: نحو ثلاثة آلاف حديث.

ويستطيع رب الأسرة أن يعلِّم زوجه وأولاده دينهم؛ فيشجعهم على حِفْظ القرآن أو ما تيسر منه، وحِفْظ ما تيسر من السُّنة، لا سيما أحاديث الأربعين النووية، وينبغي أن يجمعهم في كل أسبوع مرة على الأقل في أي وقت مناسب لهم، وإن رأى منهم إعراضاً، فلا بأس أن يرغِّبهم ويحفِّزهم ببعض الهدايا أو الجوائز.

تغيُّر الأحوال من آيات الله العظيمة، وسننه الحكيمة، قال الله - تعالى -: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]. ومعرفة المسلم بهذا تجعله يعتني بما خُلِق له من العبادة، وأن يجعل نيته الدار الآخرة الباقية؛ فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال الصالحة؛ فستكون فتن كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً، ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا»[1].

كتبه

أبو الحارث محمد المطري

(١) رواه مسلم: (١٨١).

كيف نواجه الحزبية...؟

أحمـد بن عبـد الرحمـن الصويان

العصبية الحزبية المتجذرة في ساحة العمل الإسلامي ظاهرة مؤذية: أذهبت ريح الدعوة، وأثقلت صفوف الدعاة بالتدابر والتنازع، وقلّ من يَسْلم منها؛ حتى بعض الناس الذين لا ينتمون إلى تجمعات حزبية. نعم! ربما تكون هناك مسوغات فكرية أو منهجية تؤدي أحياناً لمثل هذه الخلافات، لكن الواقع يشهد أيضاً خلافات أخرى ليس لها تفسير مقنع إلا الهوى والتعنت والتعصب! وقد كُتِبَ في هذا الموضوع كتابات عديدة ومفيدة، وتنادَى لعلاجها الناصحون. وأحسب أننا أمام قضية كبيرة لا يمكن معالجتها بالتباكي وإلقاء التبعة والملامة على الآخرين، لكننا في حاجة ماسَّة للبحث عن الحلول العملية التي قد تُسهِم في التخفيف من حدة الخلاف؛ إن لم تقتلع جذوره. ولا أقل من أن تزيل بعض مظاهر البغي أو الاحتقان والجفوة...

ومن المقترحات التي أضعها بين يدي الدعاة الكرام ما يلي:

أولاً: التواصل الأخوي:

جزء كبير من الجفوة الحاصلة بين الدعاة إنما هو بسبب الإعراض والقطيعة وتناقُل الكلام بين الأتباع؛ فإذا حرصوا على التزاور وأداء الحقوق الشرعية الواجبة: كإجابة الدعوة وزيارة المريض... ونحو ذلك؛ كان هذا سبباً في الأُلفة والأُنس... ومثل هذه اللقاءات ليست مضيعة للوقت أو إهداراً للجهد؛ كما قد يظن بعضهم، بل فيها من المصالح الدعوية العاجلة والآجلة ما يَجِل عن الوصف، وقد صح عن النبي ﷺ قوله: «ليس الواصل بالمكافئ»[1].

وكثير من أحكام الناس على الآخرين ناتجة في بعض الأحيان عن انطباعات متناقَلة، أو وقيعة معترضة، أو فظ يتجاهل الإنصاف، وهو ما قد يتحول إلى مجازفات أو تعميمات لا تتسم بالموضوعية أو الإنصاف، لكن حين يجلس الدعاة مع إخوانهم، ويسمعون منهم مباشرة وبدون واسطة، ويبذلون لهم النصيحة بصدق وإشفاق، ويديرون حواراً راشداً وهادئاً... تتضح لهم منطلقاتهم واجتهاداتهم؛ فيشيع بذلك حُسْن الظن والتماس العذر، وليس من الضروري أن يحصل الاتفاق في جميع الاجتهادات.

(١) أخرجه: البخاري في كتاب الأدب، رقم (٥٩٩١).

ولم أرَ لردِّ قالة السوء وتناقُل الشائعات في حق العلماء والدعاة، مثل اللقاء والتواصل المباشر؛ فهما البلسم الذي يشفي القلوب ويقطع سبل الشيطان، وهذا من الدفع بالتي هي أحسن المأمور به شرعاً. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾. [فصلت: ٣٤ – ٣٥]

ثانياً: المشاريع المشتركة:

التعاون في تنفيذ مشاريع دعوية مشتركة، مع الحرص على الوضوح والشفافية والضبط الإداري والمالي عند التنفيذ؛ حتى لا تكون الأخطاء اليسيرة سبباً للتهارش والتدافع، ومن ذلك: عَقْد الندوات أو المؤتمرات أو الدورات التدريبية... ونحوها. وهذه الأعمال المشتَرَكة فرصة كبيرة للتعارف وكَسْر حاجز الجفوة.

لقد وجدت أن الأعمال الدعوية المشتركة تبني من معاني الإخاء والمودة بين الدعاة ما لا يخطر على بال، كما أن الطلاب والأتباع عندما يتابعون هذه البرامج المشتركة وينظرون إلى اجتماع الرموز الدعوية وتعاونها، فإن ذلك يكون سبباً في امتصاص بعض الاحتقان الذي قد يطغى في بعض الأحيان بينها؛ والقدوةُ لها أثر في التربية كبير.

وهناك عدة عوامل تساعد على إنجاح هذه المشاريع المشتركة من المهم استصحابها والحرص عليها. منها:

١ – اختيار نوعية خاصة من الدعاة والرموز لمثل هذه الأعمال، من أهم ما يتميزون به: الأَرْيَحِيَّة والتطاوُع وسَعة الصدر والقدرة على احتمال الآخرين واستيعاب اجتهاداتهم وآرائهم. والشخصية التوافقية السمحة لها أثر كبير في لَمِّ الشعث، وتطهير القلوب، وتقريب النفوس، كما أن الإنسان الحاد اللجوج الماري لن يجني إلا الخصومة، وهذا أحد مقتضيات قول رسول الله ﷺ: «تطاوعا ولا تختلفا»[١].

٢ – الحرص في المشاريع المشتركة على استدعاء جوانب الاتفاق، وتجنُّب إثارة مسائل الاختلاف قَدْر الإمكان. وأحسب أن هذا مدخل مهم للتآلف وترسيخ أواصر الأخوة والتعاون. ومجالات الاتفاق كثيرة جداً، ويمكن أن نبني من خلالها صروحاً من التعاون الجاد والمثمر، ومن ذلك – مثلاً –: (التعاون في نصرة النبي ﷺ، والدفاع عن المسجد الأقصى، وحماية الأخلاق من طوفان الرذيلة ...) ونحوها كثير ولله الحمد.

٣ – ينبغي أن يكون التعاون بادئ الأمر في المشاريع قصيرة المدى، من أجل تعزيز الثقة والطمأنينة، وبناء جسور التواصل والتكاتف... وإذا لاحت بوادر الاختلاف، فعلى العقلاء أن يبادروا إلى درئه قَدْر الإمكان؛ حتى ولو أدى ذلك إلى تأجيل التعاون، ولعل ذلك من دلائل قول النبي ﷺ: «اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم؛ فإذا اختلفتم فقوموا عنه»[٢].

٤ – الأعمال المشتَركة لا يمكن أن تنجح على الإطلاق إذا عُرِضت على الآخرين بمنطق المشيخة والأستاذية، أو بروح الوصاية والاستعلاء. والطريق الصحيح للنجاح يتحقق بالحرص على الموضوعية والإنصاف، والعبرة ليست بأن يتقدَّم فلان أو يتأخر فلان، وإنما العبرة بمن يحقق الهدف الدعوي المشترك في أمثل صورة، وما أجمل قول الإمام الشافعي: (ما كلَّمت أحداً قط إلا ولم أبالِ بيَّن الله الحق على لساني أو لسانه)[٣]!

وأحسب أن التسابق على التصدر، والتدافع على الظهور، من أعظم أسباب الاختلاف في الأعمال المشتركة، وقد تنبَّه الفضيل بن عياض إلى هذا وهو يقول: (ما من أحد أحب الرياسة إلا حَسَد وبغى، وتتبع عيوب الناس، وكره أن يُذكَر أحد بخير)[٤].

٥ – من المهم إعطاء الطرف الآخر قَدْره ومكانته اللائقة به، والتعامل معه بما يحفظ له هيبته، بلا تكلُّف ولا تصنُّع، كما جاء في حديث عائشة – رضي الله عنها –: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نُنْزِل الناس منازلهم»[٥].

والبحث عن الكمال المطلق فيمن نتعاون معهم متعذر، لكن العبرة بكثرة المحاسن وغلبة المحامد، (والمنصف من اغتفر قليلَ خطأ المرء في كثير صوابه)[٦].

خلاصة الأمر: إن بناء أرضية مشتركة تجتمع في رحابها

(١) أخرجه: البخاري في كتاب الأدب، رقم (٢٤٨٨)، ومسلم في كتاب الجهاد، رقم (١٧٣٣).

(٢) أخرجه: البخاري في كتاب فضائل القرآن، رقم (٥٠٦٠)، و (٥٠٦١)، ومسلم في كتاب العلم، رقم (٢٦٦٧).

(٣) مناقب الشافعي للرازي: (ص ٣٦٠ ـ ٣٦١)، والفقيه والمتفقه: (٢/ ٢٦).

(٤) جامع بيان العلم وفضله: (١/ ١٤٣).

(٥) ذكره مسلم في مقدمة صحيحه معلَّقاً: (١/ ٦).

(٦) من كلام الحافظ ابن رجب في كتاب القواعد: (ص ٣).

القوى الدعوية الفاعلة بتآلف وتكامل، سيحقق نقلة نوعية في رؤيتنا وبرامجنا الدعوية، وسيؤسس لقاعدة صلبة من الإخاء والتعاون.

ومن الحزبية المقيتة التي تُسقط المروءة، أن يُؤذَى أحد العلماء، أو يُتَّهم بالباطل، أو تُسلَّط عليه سهام الإعلام الآثمة؛ فيُنْظَر إلى ذلك نظرة لامبالاة وعدم اكتراث

ثالثاً: الذبُّ عن أعراض الدعاة والدفاع عن حقوقهم:

إذا كان القيل والقال وتتبُّع الشائعات وانتشار النقد الجارح، من أسباب الفرقة ومثيرات التعصب والخلاف، فإن حُسْن الصلة، والذب عن أعراض الدعاة، والدفاع عنهم، والانتصار لهم بالحق، من أعظم أسباب الألفة وتقريب وجهات النظر؛ ويتأكد ذلك في مواجهة الاتجاهات العَلمانية أو الليبرالية التي لا ترقب في مؤمن إلّاً ولا ذمة.

وأحسب أن هذا ليس من أبواب التفضل أو المنَّة، أو الإدلال على الآخرين؛ بل هو واجب شرعي أمر به النبي ﷺ بقوله: «من ذبَّ عن لحم أخيه بالغيبة كان حقاً على الله أن يعتقه من النار»[1]، ويؤكد ذلك قول النبي ﷺ: «المؤمن أخو المؤمن، يكف عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه»[2].

ومن الحزبية المقيتة التي تُسقط المروءة، بَلْهَ العدالة، أن يُؤذَى أحد العلماء، أو يُتَّهم بالباطل، أو تُسلَّط عليه سهام الإعلام الآثمة؛ فيُنْظَر إلى ذلك نظرةً لا مبالاة فيها وبعدم اكتراث؛ بحجة أنه ليس من أصحابه. بل قد يصل الحال عند بعضهم إلى اللوم والتقريع وأنَّ ما يحصل له إنما كان بسبب قصوره ومنهجه المضطرب...!

وهذا - والعياذ بالله - من قلة التوفيق، ومن أعظم الخذلان، وقد صحَّ عن النبي ﷺ قوله: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله»[3].

(١) أخرجه: أحمد: (٤٥/٤٨٣)، رقم (٢٧٦٠٩)، وصححه الألباني في غاية المرام (٤٣١)، وصحيح الجامع، رقم (٦١١٦).

(٢) أخرجه: أبو داود في كتاب الأدب، رقم (٤٩١٨)، وحسَّنه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم (٩٢٦).

رابعاً: التنسيق عند النوازل:

التشاور عند النوازل وتدارس المواقف المستجدة، يقرب وجهات النظر، وربما يوحِّد الآراء ويدرأ كثيراً من اللغط والقيل والقال.

ويتطلب ذلك شعوراً بالمسؤولية، وإحساساً بقيمة الطرف الآخر ومكانته.

وقد جرب الدعاة في بعض الدول التنسيق في الانتخابات الطلابية في الجامعات - مثلاً - فوجدوا أن التعاون والتكاتف يحقق نتائج إيجابية للجميع، كما أن التدابر يفتح الطريق ممهَّداً للعَلمانيين وبقايا الشيوعيين وأعداء الإسلام.

وإذا لم يتحقق التعاون أو التنسيق، فليس أقل من التعايش السلمي بين الإسلاميين، كما يعبِّر عنه أحد المفكرين[4]، أو الحرص على كفِّ الأذى كما يرى كاتب آخر[5].

صحيح أننا إزاء تراكمات تاريخية تتثاقل علينا بآثارها السلبية جيلاً بعد جيل، ولا شك أن اقتلاع الحزبية من جذورها متعذر جداً؛ فأمام ذلك عقبات كثيرة، لكن الإحباط واليأس لن يُغيرا شيئاً من الواقع، وأرى أننا في أمسِّ الحاجة إلى مبادرات جادة ومخلصة تتحمل تبعات ذلك ولوازمه. ولعلَّ هذا أحد مقتضيات قول النبي ﷺ: «المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»[6].

ومفتاح النجاح للمقبل على الإصلاح في مدارج هذا الطريق: تجريد القصد لله - عز وجل - وتطهير القلب من الأهواء والتطلعات الأخرى، التي تفسد العمل وتذهب بحلاوته. قال الله - تعالى -: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٥]، وقال - سبحانه -: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

(٣) أخرجه: مسلم في كتاب البر والصلة من حديث أبي هريرة، رقم (٢٥٦٤)، وأخرجه البخاري في كتاب المظالم والإكراه من حديث عبد الله بن عمر، رقم (٢٤٤٢) و (٦٩٥١) بلفظ: «لا يظلمه ولا يُسْلمه».

(٤) قاله الأستاذ راشد الغنوشي في كتاب: حركة الاتجاه الإسلامي في تونس - مقالات في فقه الحركة، رقم (١).

(٥) قاله الأستاذ أحمد فهمي في دراسة له منشورة في تقرير البيان الارتيادي السابع، (ص ٢١١).

(٦) أخرجه: أحمد (٩/٦٤)، رقم (٥٠٢٢)، والترمذي في كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥٠٧)، وابن ماجة في كتاب الفتن، (٤٠٣٢).

مجلة

البيان

www.albayan-magazine.com

تفاعل معنا إلكترونياً

YouTube

bayan@albayan.co.uk

Badr: 0508948947

مؤسسة أبا الخيل للمقاولات

مقاولات معمارية - حدادة - نجارة - خراطة

فلل للبيع والتقسيط

القصيم ـ البدائع ص.ب ١٥ ت: مكتب : ٣٣٢٠٢٩٦ فاكس : ٣٣١٠١٣٣ حدادة: ٣٣٢٢٢٣١ المنجرة : ٣٣٢٢١٤٧

ملحق

مجلة
إسلامية
شهرية
جامعة

البيان
AL BAYAN

السنة الخامسة والعشرون . العدد ٢٧١ . ربيع الأول ١٤٣١ هـ . مارس ٢٠١٠ م

+15

BEIJING + 15

الأمم المتحدة وتغيير القيم

سعر العدد:السعودية ١٠ ريالات . الكويت ٨٠٠ فلس . مصر ٥ جنيهات . المغرب ١٢ درهماً . قطر ١٠ ريالات . اليمن ١٥٠ ريالاً . السودان ٣٠٠ دينار . سلطنة عُمان ٨٠٠ بيزة . الأردن ٧٥ فلسً . الإمارات العربية ١٠ دراهم . البحرين دينار واحد . فلسطين نصف دولار أمريكي

مجلة
البيان
إسلامية . شهرية . جامعة

خدمة العملاء

السعودية
ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
هاتف خدمة العملاء مباشر: ٢٢٥١٩٦٧
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس:٤٥٣٢١٢١

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير
editors@albayan.co.uk
خدمة العملاء
sub@albayan.co.uk
التسويق
sales@albayan.co.uk

الموزعون

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣.
الإمارات العربية المتحدة : شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩ هاتف : ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦ .
سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠ .
البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ **المنامة:** ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
السعودية : الشركة الوطنية للتوزيع: هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.
قطر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ – ٤٥٥٧٨١١ – ٤٥٥٧٨١٢ – فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.
المغرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
اليمن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء : ص.ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥

رئيس التحرير
أحمد بن عبد الرحمن الصويان
alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير
د. عبد الله بن سليمان الفراج

هيئة التحرير
أحمد بن عبد العزيز العامر
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
د. يوسف بن صالح الصغير
فهد بن صالح العجلان
أحمد بن عبد المحسن العساف
فيصل بن علي أحمد الكاملي

سكرتير التحرير
إسلام السيد علي

الإخراج الفني
خالد حسن عمارة

عنوان المجلة على الشبكة العالمية
www.albayan-magazine.com

الحسابات

السعودية: مصرف الراجحي
آي بان: SA١٣٨٠٠٠٠٢٩٦٦٠٨٠١٠٠٢١٠٠٧

الاشتراكات

السعودية ودول الخليج	١٢٠	ريال سعودي
بريطانيا وايرلندا	٤٧	يورو
أوروبا	٥٥	يورو
البلاد العربية وإفريقيا	٤٥	يورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥	يورو
المؤسسات الرسمية	٦٠	يورو

افتتاحية الملف

٢ **الأمم المتحدة... وتغيير القيم**
التحرير

ملف العدد

٣ **حوار مع الدكتور فؤاد آل عبد الكريم**
أجرى الحوار: مجلة البيان

٨ **تحرير المرأة المصرية (في عصر السيداو)**
الهيثم زعفان

١٢ **ظاهرة الشذوذ في العالم العربي (الأسباب والنتائج وآليات الحل)**
د. نهى قاطرجي

١٩ **التغيُّر الاجتماعي وصراع القيم**
د. عبد الله بن ناصر الصبيح

٢٢ **المرأة وحصان طروادة**
محمد بن شاكر الشريف

٢٦ **المرأة رأس حربة للحرب (القديمة الجديدة)**
خالد بن صالح الغيص

٣٠ **المرأة المسلمة وصيانتها من أخطار العولمة**
د. عبد الله وكيل الشيخ

الأمم المتحدة... وتغيير القيم

تأسست (هيئة الأمم المتحدة) في عام (١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م) من أجل حفظ السلم والأمن العالميين، ولتحقيق التعاون الدولي وتنمية العلاقات الودية بين الأمم، ولتكون مظلة لحقن الدماء ومواجهة الصراعات والحروب.

لكن الأمم المتحدة فشلت فشلاً ذريعاً في مواجهة الحروب، بل أصبح مجلس الأمن أداة تستخدمها الدول الخمس الكبرى (دائمة العضوية)؛ لفرض سيادتها ومصالحها على بقية دول العالم.

الوجه الثقافي والاجتماعي للأمم المتحدة يختلف تماماً عن تلك الصورة البارزة في الإعلام؛ فهو يحقق نجاحات خطيرة، قلَّ من يلتفت لها ويهتم بأبعادها؛ فالأمم المتحدة تسعى لبناء وحدة ثقافية واجتماعية تشترك فيها جميع الشعوب والثقافات.

ونجح الغرب في فرض رؤيته الثقافية، وإشاعة قيمه في العالم، على اعتبار أنها المشترك الإنساني والحضاري؛ فأصبح الشذوذ الجنسي والزنا والإجهاض... ونحوها جزءاً من الحريات الشخصية التي تُسوِّق لها الأمم المتحدة، بل تسعى لفرضها على الحكومات، وإلزام الشعوب بها، من خلال الاتفاقيات والمواثيق الدولية.

يوم (٨ مارس) هو يوم المرأة العالمي، وفي الشهر نفسه من هذا العام تعقد الأمم المتحدة في نيويورك مؤتمرها عن المرأة بعنوان (بكين + ١٥)، وهدفه الرئيس: متابعة تقارير الحكومات لما جرى تنفيذه من بنود مؤتمر بكين الذي انعقد في الصين عام (١٩٩٥م).

ولمتابعة أبعاد هذا المؤتمر وأهدافه وتداعياته في المستقبل، تخصص مجلة البيان هذا الملحق بعنوان: (الأمم المتحدة... وتغيير القيم).

بدأناه بحوار مع الدكتور (فؤاد آل عبد الكريم) لفهم طبيعة وخلفيات مؤتمرات الأمم المتحدة الخاصة بالمرأة، ثم بدراسة عن ظاهرة الشذوذ الجنسي في العالم العربي ودور الأمم المتحدة في نشره، ثم مقالة عن تحرير المرأة المصرية في عصر السيداو، ثم ختمناه بعدد من المقالات التي تهدف لحماية المرأة وتحصين الأسرة المسلمة من طوفان التغريب والإفساد.

الدكتور فؤاد آل عبد الكريم للبيان:

الأمم المتحدة تمارس ضغوطاً على الدول لتطبيق أهداف الحركة النسوية الغربية

أجرى الحوار: مجلة البيان

البيان: بكين ١٩٩٥م، بكين + ٥، بكين + ١٠، بكين + ١٥... ما الأمر؟

■ بالنسبة لهذه العناوين التي ذُكِرَت؛ فإن يعود الأمر فيها إلى أن الجمعية العامة للأمم المتحدة أقامت أربعة مؤتمرات عن المرأة: الأول كان عام ١٩٧٥م في المكسيك، والثاني كان في الدنمارك عام ١٩٨٠م، والثالث كان في كينيا عام ١٩٨٥م، ثم الرابع الذي كان عنوانه: (المؤتمر العالمي الرابع المعني بالمرأة)، وكان في بكين بالصين عام ١٩٩٥م، وهو أشهر هذه المؤتمرات الأربعة؛ حيث تضمَّن المنهاجَ الكامل للحركة النسوية الغربية المتطرفة، وسمي: (إعلان ومنهاج عمل بكين)، وكان في هذا المؤتمر تصريح بكثير من القضايا القيمية، والأخلاقية، والسلوكية، التي يراد فَرْضها على المرأة في العالم عامة، وفي العالم الإسلامي والعربي خصوصاً؛ رغم أن فيها تجاوزات كثيرة جداً ليست فقط فيما يتعلق بأحكام الشريعة، بل حتى ببقايا الأديان السماوية الصحيحة، وأيضاً كان فيها مخالفة للفطرة البشرية السوية؛ ولذلك أحدث هذا المؤتمر ضجة عالمية كبرى، وقد اعترضت جهات كثيرة على ما ورد في هذا المؤتمر، سواء أكانت إسلامية (وفود الدول الإسلامية عربية وغير العربية)، أو جهات غير إسلامية، مثل الدول الكاثوليكية (الأرجنتين - البيرو - باراغواي... إلخ)، أو حتى ما يسمى بـ: (الكرسي الرسولي)؛ فقد اعترض على كثير مما ورد في وثيقة هذا المؤتمر، أو منهاج عمل هذا المؤتمر: كقضية الحرية الجنسية والحرية المثلية والإجهاض... وغيرها من القضايا التي كان فيها - فعلاً - مخالفات شرعية وفطرية.

فهذا المؤتمر الذي أقيم في بكين يعبِّر بجلاء عمَّا وصلت إليه الحركة النسوية الغربية المتطرفة: من شذوذ وانحراف عقدي وفكري وأخلاقي، وتبعاً لذلك سُجِّلَت تحفظات الدول في ملحق في آخر وثيقة هذا المؤتمر، وبعد مُضِيِّ خمس سنوات على انتهاء هذا المؤتمر (أي: في عام ٢٠٠٠م)، أقيم مؤتمر تنسيقي؛ لمتابعة تنفيذ توصيات هذا المؤتمر، وهو الذي سمي: (بكين + ٥)، أي: مرور خمس سنوات على إقامة مؤتمر المرأة الرابع في بكين، وقد أقيم في نيويورك وأعطي اسماً آخر هو: (المرأة والسلام)، ودعي إلى ذلك المؤتمر مجموعة كبيرة من رؤساء وملوك وأمراء دول العالم؛ من أجل الضغط على هذه الدول لسحب تحفظاتها على مؤتمر بكين الذي أقيم قبل خمس سنوات، كما كان هناك أيضاً ضغط على دول العالم التي لم توقِّع على اتفاقية (السيداو)، أو ما تسمى: (اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة) من أجل التوقيع على هذه الاتفاقية، وبالفعل حصل هذا الأمر، وقبل هذا المؤتمر أي: (بكين + ٥) وبَعْدَه كانت تُعْقَد اجتماعات، وورش عمل، ودورات تدريبية، تعقدها لجان ومنظمات المرأة في هيئة الأمم المتحدة لوفود الدول الأعضاء في الأمم المتحدة؛ من أجل متابعة تنفيذ توصيات مؤتمر بكين، من حيث ما جرى تطبيقه من هذه التوصيات وكيف يعزَّز؟ والذي لم يجرِ: ما هي عوائق عدم التنفيذ؟ وكيف يجري التغلب عليها؟

كل ذلك كان يجري من خلال هذه الاجتماعات التنسيقية، وهذا الأمر يبيِّن خطورة مثل هذه المؤتمرات، وأنها ليست مجرد مؤتمرات تُعْقَد وتنتهي - كما هو الحال - للأسف - في دولنا الإسلامية والعربية - وإنما كان يجري تفعيل توصياتها بشكل مقنَّن ومخطَّط له بشكل مؤسسي ومدروس.

وبعد مُضِيِّ خمس سنوات، أي: في عام ٢٠٠٥م، جرى عقد مؤتمر تنسيقي من قِبَل الأمم المتحدة سمي: (بكين + ١٠)؛ أي: مرور عشر سنوات على انعقاد المؤتمر العالمي الرابع في بكين، وأيضاً كان فيه متابعة دقيقة للدول؛ لمراجعة ما جرى التوصل إليه في قضية تنفيذ أجندة وتوصيات المؤتمر؛ لأنه كان شاملاً لأهم قضايا المرأة والأسرة، وقد سحبت - للأسف - بعض الدول الإسلامية والعربية بعض تحفظاتها التي سجَّلتها عام ١٩٩٥ على التوصيات التي فيها مخالفة صريحة وواضحة للشريعة الإسلامية؛ وقد كان ذلك بسبب ضغوط هيئة الأمم ومنظماتها الدولية؛ وأيضاً لوجود بعض الأفراد في بعض هذه الوفود الإسلامية، من الذين يحملون أفكاراً مشابهة لأفكار الحركة النسوية المتطرفة الغربية.

وبعد أيام قلائل (من ١٠/١ مارس عام ٢٠١٠م)، سيكون

هناك مؤتمر تنسيقي أو لقاء (بكين + ١٥)، وهو أيضاً يعني: مرور ١٥ عاماً على مؤتمر بكين الأصلي، وهو ليس مؤتمراً، إنما هو لقاء لمراجعة ما جرى تنفيذه من أجندة وتوصيات مؤتمر بكين فيما يتعلق بالمجالات المختلفة لحياة المرأة: (الأخلاقية، والاجتماعية، والتعليمية، والصحية، والاقتصادية، والسياسية)، وكيفية التغلب على المعوقات.

وفي يومَي (٢٧ - ٢٨) فبراير سيكون هناك لقاء تنسيقي في نيويورك للمنظمات غير الحكومية في الأمم المتحدة.

البيان: هل نفهم من ذلك أن مؤتمر بكين ١٩٩٥م يعبِّر بالفعل عن منهاج عمل الحركة النسوية الغربية؟

■ نعم! وأضيف: إن هناك مؤتمراً للسكان سبق مؤتمر بكين بسنة واحدة، وهو المؤتمر العالمي الثالث للسكان وسمي: (المؤتمر الدولي للسكان والتنمية)، وقد عُقِدَ هذا المؤتمر في القاهرة عام ١٩٩٤م وكانت وثيقته تحوي مجموعة قضايا فيها تمهيد لهذه الآراء المتطرفة التي لم يُعْلَن عنها من قَبْل: كالإجهاض والجندر (النوع الاجتماعي)، والحرية، والمثلية الجنسية... إلخ؛ لذلك أرى أن سنة ١٩٩٤م تُعدُّ سنة فاصلة في الجهر بهذه الأجندة المنحرفة. أما المؤتمرات التي أقيمت قبل هذه السنة؛ فقد كانت أخفَّ بكثير في حدَّتها وانحرافها وشططها.

أما في المؤتمر العالمي الرابع في بكين؛ فقد جرى التصريح فيه بالمنهاج الكامل المعولَم للحياة الاجتماعية، الذي يراد له أن يُنفَّذ بحذافيره، وسبب ذلك هو: سيطرة أصحاب هذا الفكر الشاذ والمنحرف على منظمات الأمم المتحدة، ومن ثَمَّ كانت وثيقة هذا المؤتمر تعكس القيم الغربية الكبرى التي يؤمنون بها، وهي: الحرية (وتتضمن الحرية الجنسية) والمساواة، والفردية.

وكانت الوثيقة شاملة لقضايا كثيرة جداً، وهناك تفصيل مُمِلٌّ في هذه الوثيقة التي بلغ عدد صفحاتها ٢٢٠ صفحة، يشمل كيفية تنفيذ هذه الأفكار المتطرفة، والآليات المقترحة لذلك، أي: الترتيبات المؤسسية، سواء على الصعيد الوطني، أو على الصعيد الإقليمي، أو على الصعيد الدولي، ثم الترتيبات المالية.

وحقيقة فإن منهاج عمل بكين ضخم جداً، وللعلم فقد عُقِد لهذا المؤتمر أكثر من أربعين اجتماعاً، وحضره أكثر من ألف خبير وخبيرة، وفعلاً بدؤوا فيه بقوة، وبتفصيل كبير جداً؛ حتى يُضمَن تنفيذ هذا المنهاج فيما يتعلق بالمرأة والفقر، وتعليم المرأة، والمرأة والصحة، والعنف ضد المرأة، والمرأة والنزاع المسلح، والمرأة والاقتصاد، والمرأة في مواقع السلطة وأصحاب القرار... إلى آخر ذلك من القضايا التي ذكروها في هذا المؤتمر.

تاريخ مؤتمرات المرأة الدولية

- **المؤتمر العالمي الأول للسكان، المنعقد في (بوخارست/ رومانيا)، عام (١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م).**
- **المؤتمر العالمي للسنة الدولية للمرأة، المنعقد في مكسيكو عام (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م).**
- **المؤتمر العالمي الذي عقدته الأمم المتحدة للمرأة في كوبنهاجن عام (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).**
- **المؤتمر الدولي المعني بالسكان، المنعقد في مكسيكو عام (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).**
- **دورة اللجنة المعنية بالقضاء على التمييز ضد المرأة، المنعقدة في نيويورك عام (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).**
- **المؤتمر العالمي لاستعراض (عقد الأمم المتحدة للمرأة) وتقييمه، المنعقد بنيروبي عام (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).**
- **مؤتمر الأمم المتحدة عن البيئة والتنمية، المنعقد في ريودي جانيرو عام (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).**
- **مؤتمر الأمم المتحدة عن حقوق الإنسان، المنعقد في فيينا عام (١٤١٣هـ - ١٩٩٣م).**
- **المؤتمر الأمم الدولي عن السكان والتنمية، المنعقد بالقاهرة عام (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م).**
- **مؤتمر الأمم المتحدة عن التنمية الاجتماعية، المنعقد في كوبنهاجن عام (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).**
- **المؤتمر الدولي الرابع المعني بالمرأة، المنعقد في بكين عام (١٤١٦هـ - ١٩٩٥م).**
- **مؤتمر الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية (الموئل الثاني)، المنعقد في إسطنبول/تركيا، عام (١٤١٧هـ - ١٩٩٦م).**
- **مؤتمر الأمم المتحدة للمرأة عام ٢٠٠٠م المساواة والتنمية والسلام، الذي انعقد في نيويورك، وقد عُرِف باسم: (بكين + ٥).**

هذا، بالإضافة إلى صدور عدد من الصكوك والمواثيق الدولية ذات الصلة بالمسألة الاجتماعية، مثل:

- **ميثاق الأمم المتحدة، الصادر بتاريخ ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م.**
- **الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الصادر بتاريخ ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م.**
- **الاتفاقية الخاصة بالحقوق السياسية للمرأة، عام ١٣٧٢هـ - ١٩٥٢م.**
- **العهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، عام ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.**
- **العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية، عام ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.**
- **الإعلان الخاص بالقضاء على التمييز ضد المرأة، عام ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.**
- **إعلان طهران عام ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.**
- **اتفاقية القضاء على كافة أشكال التمييز ضد المرأة، عام ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.**
- **استراتيجيات نيروبي التطلعية للنهوض بالمرأة، عام ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.**

البيان: ما أبرز ما دعا إليه هذا المنهاج؟

■ لقد أشرت إشارة سريعة في إجابة السؤال الثاني إلى هذه القضية، وذكرت أنهم وضعوها وسموها: أهدافاً وإجراءات استراتيجية؛ فلو نظرنا إلى الأهداف الاستراتيجية التي نصُّوا عليها وقسَّموها إلى فِقَرات، نجدها كما يلي:

١ - عبء الفقر الدائم والمتزايد الواقع على المرأة.

٢ - تعليم المرأة وتدريبها.

٣ - المرأة والصحة.

٤ - العنف ضد المرأة.

٥ - المرأة والنزاع المسلح.

٦ - المرأة والاقتصاد.

٧ - المرأة في مواقع السلطة وصُنْع القرار.

٨ - الآليات المؤسسية للنهوض بالمرأة.

٩ - حقوق الإنسان للمرأة.

١٠ - المرأة ووسائط الإعلام.

١١ - المرأة والبيئة.

١٢ - الطفلة.

ثم فصَّلوا الحقيقة في الإعلان نفسه، وهو موجود في بداية الوثيقة: من (ص ٥ إلى ص ٩)، وقد جاء في الفصل الأول ص ١١ بعنوان: (بيان المهمة) ما يلي: (منهاج العمل هو جدول أعمال لتمكين المرأة، وهو يهدف إلى التعجيل بتنفيذ استراتيجات نيروبي التطلعية؛ للنهوض بالمرأة وإزالة جميع العوائق التي تَحُول دون مشاركة المرأة مشاركة فعالة في جميع مجالات الحياة العامة والخاصة؛ من خلال حصولها على نصيبها الكامل والمنصف في صُنْع القرارات (الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية)، وهذا يعني أيضاً: إقرار مبدأ تقاسم السلطة والمسؤولية بين المرأة والرجل: في البيت، وفي مواقع العمل، وفي المجتمعات الوطنية والدولية بصورتها الأعم. والمساواة بين المرأة والرجل هي مسألة تتعلق بحقوق الإنسان، وشرط لتحقيق العدالة الاجتماعية، وهي أيضاً: متطلب ضروري وأساسي لتحقيق المساواة والتنمية والسِّلم...).

البيان: هل هناك علاقة بين اتفاقية السيداو ومنهاج بكين؟

■ نعم! اتفاقية السيداو - باختصار؛ حتى يطلع القارئ عليها - هي: اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة، وتم إعلانها عام ١٩٧٩م؛ أي: قبل المؤتمر الثاني للمرأة الذي أقيم في كوبنهاجن بالدنمارك، وهذه الاتفاقية تتكون من ثلاثين مادة، ومن يطلع عليها يجد أنها تُعَدُّ دستور الحركة النسوية الغربية المتطرفة، ويحتاج الحديث عنها إلى لقاء خاص، وما أتى بعد ذلك من قِبَل هيئة الأمم المتحدة، من مؤتمرات، واتفاقيات، واجتماعات، وورش عمل، وحلقات نقاشية، ودورات تدريبية، كله يأتي لبيان هذا الدستور وتطبيقه؛ حتى إعلان منهاج بكين الذي تكلَّمنا عنه في إجابات الأسئلة الماضية يمثل - حقيقة - تفسيراً وتحليلاً لهذه الاتفاقية الخطيرة؛ ولذلك اعتبر أن هذه الاتفاقية - حقيقة - هي دستور الحركة النسوية. ولأجل فرض هذه الاتفاقية على دول العالم، كانت هناك خطة تقضي بأنه: بحلول عام ٢٠٠٠م ستكون جميع دول العالم قد وقَّعت على هذه الاتفاقية، وقد أشرت في إجابة عن سؤال سابق إلى أنه جرى - فعلاً - في عام ٢٠٠٠م دعوة كثير من ملوك ورؤساء دول العالم إلى مؤتمر بكين + ٥، وبالفعل؛ فإن الدول التي لم توقع على هذه الاتفاقية جرى التفاوض معها للتوقيع على هذه الاتفاقية، وتم التوقيع مع تسجيل تحفظات على بعض مواد هذه الاتفاقية.

ومن يدخل موقع هذه الاتفاقية على الشبكة العنكبوتية سيجد أن هناك جداولاً للدول العربية والإسلامية التي وقَّعت، مع تحفظاتها التي نصت عليها، مع العلم أن المادة ٢٨ من هذه الاتفاقية لا تعترف بأي تحفُّظ على أي مادة من موادِّها.

وتبرز خطورة هذه الاتفاقية - عموماً - في ثلاثة أمور:

القضية الأولَى: أنها تعتبر الدين شكلاً من أشكال التمييز ضد المرأة.

القضية الثانية: أنه لا يجوز التحفظ على أي بند من بنودها.

القضية الثالثة: أنه يلزم تطبيق هذه الاتفاقية ولا يجوز الانسحاب منها.

وهذه القضية في الحقيقة جعلت الحركة النسوية الغربية - ممثلة في اللجنة المعنية بالقضاء على التمييز ضد المرأة في الأمم المتحدة - تمارس ضغوطاً شديدة على الدول، وتطالبُها بتقديم تقارير سنوية عن مدى تطبيق الدول لهذه الاتفاقية، ثم تطالبها بتقديم تقرير شامل واسع كلَّ أربع سنوات؛ حيث تجري مساءلة كل دولة عن مدى تطبيقها لكل مادة من مواد الاتفاقية على حدة.

بناءً على ذلك أقول: من يطلع على هذه الاتفاقية - وهي متوفرة على الإنترنت - ويقرأ بنودها خاصة: المادة الثانية، والتاسعة، والخامسة عشرة، وغيرها من المواد، فسيجد - فعلاً - أن هناك تشابهاً كبيراً جداً بين هذه الاتفاقية وبين منهاج عمل بكين، لكن الذي يختلف أن منهاج عمل بكين كان فيه تفصيل وتفسير أكثر لهذه المواد الموجودة في هذه الاتفاقية.

البيان: ما المتوقع من اجتماع بكين + ١٥ القادم؟

■ سبق أن أشرت إلى أن (بكين + ١٥) ليس مؤتمراً؛ بحيث يكون له محاور وأوراق عمـل... إلخ، إنما هو اجتماع مراجعة لمـا جرى تنفيذه في الفترة الماضيـة. وللعلم؛ فمنذ مؤتمر عام ١٩٩٥م لم تُقِم الأمم المتحـدة أي مؤتمر عالمي عن المرأة (كما هو الحال في مؤتمر بكين وما سـبقه من مؤتمرات)، لكن هي لقاءات تشاورية ومراجعات لكل دولة: ماذا قدَّمت؟ وقد قسموا دول العالم إلى سـت مجموعات، ثـم كل مجموعة فيها عدد مـن الدول، وبعد ذلـك كل مجموعة تقـدِّم تقريرها العام ثم تجتمع هذه المجموعات وتعرض ما قدَّمت، وما جرى تنفيذه من توصيات، وما لم يجرِ تنفيذه - كما أشـرت قبل قليل - وأيضاً الصعوبـات التي منعت من تطبيق هذه التوصيات، ثم وسـائل إزالة هذه المعوقات.

والملتقى القادم ينطبـق عليه هذا الأمر؛ ولذلك من يدخل إلى الشبكة العنكبوتية ويتتبع (بكين + ١٥) لن يجد في الحقيقة محـاوراً، إنما هي مجـرد اجتماعات يتخللهـا كلمات وبعض الفِقَرات، وليست بمعنى المؤتمر المتعارف عليه، طبعاً سيلاحظ أنه يجري في شهر مارس من ١ إلى ١٠، وهذا يعني: أنه يتوافق مع ما يسمى باليوم العالمي للمرأة الموافق لـ ٨ مارس.

البيان: ما دور المنظمات غير الحكومية في تمرير توصيات المؤتمرات والاتفاقيات الأممية؟

■ المنظمـات غير الحكومية على نوعين: منظمات داخلية، أي: داخل البلاد الإسـلامية والعربية، ومنظمات دولية، أو إن شئت سـمِّها: منظمات خارجية ومنظمات داخلية، وهي تمثل الإلزام الخارجي والإلزام الداخلي.

فلو بدأنا بما يسـمى بالإلزام الخارجـي: وهي المنظمات الدولية الخارجية غير الحكومية، فسـنجد أن هناك منظمات دولية كثيرة: كمنظمة العفو الدولية، ومنظمة حقوق الإنسـان، ولجنة القضـاء على التمييز ضد المـرأة، ولجنة القضاء على العنف ضـد المرأة بـالأمم المتحدة، ولجنة حقـوق الطفل... وغيرها، وهذه المنظمات العالمية أصبحت تقدِّم أكثر من تقرير في السـنة الواحدة عن الدول العربية والإسلامية وغيرها من الدول، يجري فيها الضغط على هذه الدول، من خلال تضخيم بعض الحوادث الفردية المتعلقة بالنساء؛ فتستغل تلك المنظمات هذه الأحداث، وتنادي - مـن خلال تقارير تصدرها - بأن حقوق المرأة أو الطفل ما زالت مهضومة، وأن من أهم أسـباب ذلك، عدم تنفيذ الدول لأجنـدة وتوصيات المؤتمرات الأممية العالمية المتعلقة بالمـرأة، وبناءً على ذلك أصبحت هذه التقارير أداة حقيقية للضغـط، يضاف إلى ذلك أدوات ضغط متعددة: كالضغوط الدبلوماسية والسياسية، والأدوات الضخمة لمختلف وسـائل الإعلام (المشـاهد، والمقروء، والمسـموع) والمنظمات الاقتصادية العالمية: كالبنك الدولـي، وصندوق النقد الدولي، ومنظمة التجارة العالميـة، وغيرها من الصناديق العالمية، التي تُسـتَخدم للضغط على هذه الدول حتى تنفذ هذه التوصيات، باسم: حقوق المرأة وحقوق الإنسان.

كما أصبحت هذه المنظمات الدولية - للأسـف الشديد - تسـتفيد من بعض المنظمات غير الحكوميـة في داخل بعض الدول الإسلامية، وهي تمثل:

الجزء الثاني الذي نسميه: (الإلزام الداخلي)، ويحدث هذا الأمر من خلال التجمعات النسـوية الليبرالية في بعض البلاد الإسلامية، وهي تحمل أفكار التيارات النسوية الغربية المتطرفة نفسَـها؛ فتبدأ بالضغط الداخلي، وهذا اتجاه بدأت منظمات الأمم المتحدة تسـتخدمه بقوة؛ من أجل ممارسة الضغوط من داخل المجتمعات الإسلامية، وبعض هذه المؤسسات التي تُسمَى: مؤسسات مدنيـة، أو منظمـات غيـر حكومية، تكون مدعومة - فـي الغالب - إما من دول غربية حكومية مبـاشـرة، أو من خلال بعض الشـركات التجارية الغربية الكبرى، أو من خلال منظمات غير حكومية غربية أيضاً، ومن ثَمَّ فإن هذه التجمعات أو المنظمـات غير الحكومية الداخليـة تحمل الأجندة الغربية نفسـها، وتطالب بهذه الحقوق وتنادي بالشـعارات المشهورة الخاصة بالأمم المتحدة؛ كشـعار: القضاء علـى التمييز ضد المرأة، أو شعار: القضاء على العنف ضد المرأة (بالمفهوم الغربي المخالف لمفهوم الإسلام)، أو شعار: تمكين المرأة، أو شعار حقوق المرأة... إلى غير ذلك من الشعارات.

البيان: ما هو موقف الوفود الرسمية الإسلامية في هذه المؤتمرات والاتفاقيات وما يصدر عنها من توصيات؟

■ أشـرت في بداية حديثي إلى أنه في مؤتمر المرأة العالمي الرابـع المعني بالمرأة، والمقام ببكين، كانـت هناك تحفظات من الوفود الإسـلامية والعربية على كثير من القضايا التي طُرِحت، وكان موقفهـا إيجابيـاً، ولكن في اللقاءات التـي تلت ذلك في الأعـوام المتتاليـة اختلف الأمر؛ حيث أصبح يشـارك في هذه الوفود بعض من يحمل هذه الأفكار المخالفة للإسـلام؛ ولذلك كان هناك نوع من الضعف فـي بيان الموقف الواضح تجاه هذه المطالبات، وأصبحت بعض وفود الدول الإسـلامية تتنازل فعلاً، وتسـحب بعض تحفظاتها؛ حتى إن بعض الدول سـحبت جميع تحفظاتها على مؤتمر بكين.

البيان: هل رفعت الدول الإسلامية والعربية تحفظاتها على اتفاقية السيداو والمؤتمر العالمي الرابع أيضاً؟

■ نعم! بعض الدول سحبت تحفظاتها بسبب بعض الضغوط الخارجية من المنظمات غير الحكومية، ومن بعض المنظمات التابعة للأمم المتحدة أثناء الاجتماعات واللقاءات الأممية، وفي بعض الأحيان بسبب وجود تيارات نسوية أو رجال يحملون الأفكار المتطرفة الغربية نفسها تجاه المرأة، ومن ثَمَّ أصبح هناك خلل في موقف هذه الوفود من الأطروحات الأممية؛ فبدأت بعض الوفود تقدِّم تنازلاتها، خاصة فيما يتعلق باجتماعات بكين سواء + ٥ أو + ١٠، أو ما يتعلق أيضاً بالتقارير التي تقدَّم فيما يتعلق باتفاقية السيداو.

وبالمناسبة هناك ما يسمى بتقارير الظل، وهذه التقارير تقدِّمها في الغالب المنظمات غير الحكومية، حسب أنظمة الأمم المتحدة الخاصة بالمرأة؛ حيث يفترض أن تقدِّم هذه المنظمات غير الحكومية داخل البلاد الإسلامية تقاريراً تكون مغايرة للتقارير الرسمية التي تقدِّمها الحكومات، وهذه التقارير هي التي يقدِّمها في الغالب نساء أو رجال ينتمون لتلك المنظمات غير الحكومية، ويحملون الأفكار الغربية المتطرفة، وتبعاً لذلك يتنادون بتضخيم واقع المرأة أو الأسرة في الدول العربية والإسلامية، ويصفونه بالسيئ جداً، وأنه واقع مرير لا يمكن السكوت عنه، والنتيجة النهائية أنهم يطالبون بما تطالب به المنظمات الغربية غير الحكومية نفسه.

البيان: كيف تستثمر المنظمات النسوية والنسائية في عالمنا العربي تلك المؤتمرات والاتفاقيات الغربية؟

■ أما بالنسبة للمنظمات النسوية، ونقصد بها: المنظمات التي تحمل الأفكار النسوية المتطرفة، فقد أشرت إلى أنها تستثمر هذه الاتفاقيات والمؤتمرات العالمية التي تقيمها الأمم المتحدة استثماراً سلبياً؛ وذلك بالضغط على الحكومات في بلادها؛ حتى تُقِرَّ تشريعات وتنظيمات، وقوانين تتوافق مع ما تدعو إليه تلك المؤتمرات والاتفاقيات: كاتفاقية السيداو، أو اتفاقية حقوق الطفل، أو غيرها من الاتفاقيات الدولية، وهذا مع الأسف حاصل الآن في أكثر الدول الإسلامية.

أما المنظمات النسائية وأقصد: التي تحمل منهج الإسلام وتدعو إليه، فدورها الآن ضعيف جداً في مواجهة مثل هذه المؤتمرات والاتفاقيات، بخلاف دورها في السابق؛ حيث كان في الجملة جيداً، لكن للأسف مع مرور الوقت نلاحظ أن هناك ضعفاً في دور هذه المؤسسات والمنظمات النسائية، مع أن الواجب مع شدة الهجوم على قوانين الأسرة والطفل، ومحاولة تغييرها في البلاد العربية والإسلامية أن يكون هناك موقف جِدِّي، وقوي، ومعارض، تجاه هذه المحاولات التغريبية، وكان من واجب هذه المؤسسات أن تقوم بنشاطات أكثر، وجهود أكبر، في صد العدوان العولمي الاجتماعي، لكن الملاحَظ أيضاً أن أنشطة البناء والتصدي ضعيفة جداً. نعم! قد أستثني جهة واحدة أو جهتين، وأذكر على سبيل المثال: اللجنة الإسلامية العالمية للمرأة والطفل في القاهرة؛ حيث إن لها جهوداً مباركة لمواجهة هذا السيل العرم من الإفساد النسوي العالمي. أما بقية المؤسسات الإسلامية فتحتاج إلى مزيد من الجهد، وإدراك كثير من مخاطر هذه الاتفاقيات والمؤتمرات الدولية، والسعي لمواجهتها.

البيان: ذكرتم أن اللجنة الإسلامية العالمية لها دور إيجابي؛ فهل لكم في مركز (باحثات لدراسات المرأة) من موقف إيجابي؟

■ نحن في المركز لنا اهتمام يُعنَى بهذه الموضوعات؛ فنحن نرصد ونتابع هذه المؤتمرات والاتفاقيات، وكذلك نتابع التقارير الصادرة عن المنظمات الدولية عن المرأة، وقد كتب المركز بحثاً مختصاً عن هذه التقارير.

كما أن المركز سيقيم - إن شاء الله - مع جمعية (مودَّة) الخيرية في البحرين مؤتمراً عن اتفاقيات ومؤتمرات المرأة الدولية وآثارها على العالم الإسلامي، وسيقام المؤتمر في المنامة ٢٨ ربيع الثاني من هذا العام ١٤٣١ الموافق ١٣ أبريل ٢٠١٠م. وهذا المؤتمر فيه ثلاثة محاور رئيسية:

المحور الأول: سيكون عن النشأة والإلزام، وستكون أوراق العمل في هذا المحور عن المؤتمرات والاتفاقيات الدولية عن المرأة، والإلزام الخارجي، والإلزام الداخلي.

المحور الثاني: سيكون عن آثار هذه الاتفاقيات والمؤتمرات الدولية على بعض دول العالم الإسلامي، وستكون أوراق العمل في هذا المحور عن خمس دول كأمثلة.

المحور الثالث: سيكون عن التوظيف الإيجابي لهذه المؤتمرات وواجب المؤسسات في الدول الإسلامية تجاهها، وستكون الورقة الأولى عن التوظيف الإيجابي لهذه الاتفاقيات والمؤتمرات، والورقة الثانية عن دور المؤسسات الشرعية والإسلامية، والورقة الثالثة عن دور المؤسسات التشريعية والحقوقية، والورقة الرابعة عن واجب المؤسسات الاجتماعية، والورقة الخامسة عن دور المؤسسات الإعلامية والثقافية، والورقة الأخيرة عن دور المؤسسات التربوية والتعليمية.

كما سيكون هناك - إن شاء الله - ورش عمل مصاحبة حول هذه القضايا، وكذلك هناك محاضرة افتتاحية ومحاضرة ختامية.

هذا ما يتعلق بمجمل هذا المؤتمر الذي يعتبر - حسب علمي - أول مؤتمر دولي يُعْقَد عن هذه الاتفاقيات والمؤتمرات الخاصة بالمرأة، انطلاقاً من رؤية إسلامية.

والله أعلم

تحرير المرأة المصرية

(في عصر (سيداو)

الهيثم زعفان
Azeg333@yahoo.com

مصطلح (تحرير المرأة) له مع العالم الإسلامي موجتان:

الأولى: صُدِّر فيها المصطلح من الغرب إلى الشرق في نهاية القرن التاسع عشر؛ وذلك ضمن منظومة الأفكار التغريبية؛ حيث نُقلت الأفكار في بدايتها من خلال كتاب: (تحرير المرأة) لقاسم أمين، ثم بُلورت الأفكار بصورة أكثر وضوحاً في الكتاب الثاني لقاسم أمين: (المرأة الجديدة)، والذي نُشِر عام ١٩٠٠م. وكانت الدعوات حينها تدعو إلى تحرير المرأة من الآداب الإسلامية والأحكام الشرعية الخاصة بها، مثل: الحجاب، وتقييد الطلاق، ومنع تعدُّد الزوجات، والمساواة في الميراث، وتقليد المرأة الغربية في كل أمر.

ثم أتت بعد ذلك الموجة الثانية بعد أن أعاد الغرب صياغة مصطلح تحرير المرأة ليدخل حقيبة مصطلحات الأجندة العولمية، مشتملاً على مضامين أكثر تحررية من نسخة القرن التاسع عشر، من خلال مقررات عَلمانية صادرة عن مؤتمرات دولية ترعاها الأمم المتحدة، و يُصوَّر زيفاً أنها تمثل إلزاماً[1].

(١) الهيثم زعفان: المصطلحات الوافدة وأثرها على الهوية الإسلامية، فصل مصطلح تحرير المرأة، مركز الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية، القاهرة، ١٤٣١هـ.

وقد أخذت تلك الدعوات التحررية في الانتشار من خلال المؤسسات والمنظمات النسوية في العالم العربي، وشهد المجتمع المصري - على وجه الخصوص - نشاطاً مكثفاً من قِبَل نشيطات الحركة النسوية المدعومات من مؤسسات التمويل الدولية؛ لتطبيق مقررات الأمم المتحدة المتعلقة بالمرأة في المجتمع المصري، ويأتي على رأس تلك المقررات اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة (سيداو)، والتي تعمل على إلغاء كافة الفوارق - حتى البيولوجية منها - بين الجنسين، وما يترتب عليها من أدوار داخل الأسرة، وكذلك وثيقة المؤتمر الرابع للمرأة الذي عقد في العاصمة الصينية بكين عام ١٩٩٥، ويُعقَد له كل خمس سنوات في نيويورك مؤتمر تقييمي يُعرَف بـ: (بكين + ٥، بكين + ١٠، بكين + ١٥).

وإذا كانت «سيداو» هي دستور الحركة النسوية، فإن «وثيقة بكين» هي اللائحة التنفيذية لهذا الدستور، وكلاهما بمثابة المرجعية الرئيسية والوحيدة للنسويات.

وهي مقررات قامت بصياغتها ورعايتها لجنة المرأة بالأمم المتحدة، والتي تقول عنها البروفيسورة «كاثرين بالم فورث»: «إن لجنة المرأة في الأمم المتحدة شكَّلتها امرأة إسكندنافية كانت تؤمن بالزواج المفتوح ورَفْض الأسرة، وكانت تعتبر الزواج قيداً، وأن الحرية الشخصية لا بد أن تكون مُطْلقة. وإن المواثيق والاتفاقيات الدولية التي تخص المرأة والأسرة والسكان

تصـــاغ الآن في وكالات ولجان تســـيطر عليها فئات ثلاث: (الأنثويـــة المتطـــرفـــة) و (أعـــداء الإنجـــاب والســـكان) و (الشاذون والشاذات جنسياً)»[1].

وتعنـــي الحرية المطلقة للمرأة أن تقوم كل امرأة برســـم مجرى حياتها وَفْق هواها ودون اعتبار لأية معايير وضوابط دينية، ويُعَدُّ هذا أبرز وأهـــم مكونات الموجة الثانية لتحرير المرأة؛ حيث نصت المادة الثانية عشـــرة مـــن «إعلان منهاج العمـــل»[2] الصـــادر عن مؤتمـــر بكين علـــى: «تمكين المرأة والنهـــوض بها، بما في ذلك الحق في حرية الفكر والضمير والديـــن والمعتقـــد، وبذلك تكفل لهم إمكانيـــة إطلاق كامل طاقاتهم في المجتمع برســـم مجرى حياتهم وَفْقاً لتطلعاتهم هم أنفسهم».

لكـــن إذا كان هـــذا هو التنظير؛ فهل هنـــاك أثر عملي له في المجتمعات الإســـلامية؟ وهـــل التغييرات التي حدثت في المجتمعـــات العربية في الآونة الأخيرة فيما يخص المرأة المسلمة لها علاقة بتلك المقررات الدولية؟

ســـنحاول من خلال هـــذا المقال دراســـة حالة المجتمع المصـــري وما طـــرأ عليه مـــن تغييرات عمديـــة مرجعيتها «ســـيداو» و «وثيقة بكين»؛ وذلك كي نتمكن من الإجابة عن هذين السؤالين. ويتضح ذلك من خلال القضايا التالية:

١ - التمكين السياسي للمرأة في مصر:

«التمكين السياســـي للمرأة» فســـرته وثيقة بكين بأنه: «وصول المـــرأة إلى مراكز صنع القـــرار، والمراكز التي تؤثر في صنع القرار ووضع السياسات»، مع إزالة كافة الحواجز والعراقيل؛ حتى ولو كانت دينيـــة، والتي - بنظرهم - تعيق تحقيق المرأة الجديدة لهدف السيطرة على السلطة، ومواقع صنع القرار.

وقد وضعت «وثيقة بكين» هدفـــاً أولياً تَمثَّل في وصول المرأة لمواقع صنع القرار بنســـبة ٣٠ ٪ كخطوة أولى؛ لتحقيق الهدف المرجو؛ وهو الوصول بالنسبة إلى ٥٠ ٪.

وبعيداً عن الأحكام الشـــرعية الضابطة لمســـألة تولي المرأة للمناصب السيادية، فإن الملاحَظ - في الحالة العربية بصفـــة عامة والمصرية بصفة خاصة - أن تعيينات المرأة في مواقـــع صنع القرار تركِّز على البُعْـــد الكَمِّي والنوعي فقط بعيداً عن بُعْد الكفاءة التي تكون في كثير من الأحيان ضعيفة للغاية، والخطورة الكامنة في هذا التنصيب السياسي، هي: أن وَضْع بعض النســـويات ذوات التوجـــه الغربي في مواقع صنع القرار، يســـمح لهن بسَنِّ تشريعات وصياغة سياسات مرجعيتها اتفاقية سيداو ومقررات مؤتمر بكين.

وعلى كلٍّ فقد أخذ التمكين السياســـي للمرأة في مصر الصور التالية:

١ - المناصب الوزارية: حيث يضم مجلس الوزراء المصري ثلاث وزيرات وذلك بنســـبة ٥,٩٪ من جملـــة الوزراء، وتُعدُّ وزارة الأســـرة والسكان المستحدثة مؤخراً أكثر وزارة تتطابق سياساتها مع مقررات الأمم المتحدة.

٢ - القضـــاء: تم تعيين أول قاضية فـــي عام ٢٠٠٣م، وذلك بالمحكمة الدســـتورية العليا، ثم توالى بعد ذلك تعيين القاضيات في سلك القضاء المصري؛ حتى بلغن ٤٢ قاضية، وذلـــك رغم المعارضات الشـــديدة من قِبَل علماء الشـــريعة لتلك التعيينات؛ لمخالفتها الأحكام الشرعية، ورَفْض جمهور الفقهاء لتولي المرأة للقضاء.

٣ - مجلس الشـــعب: تمثل المرأة المصرية ٢٪ من جملة أعضاء مجلس الشعب المصري، و ٦,٧ ٪ في مجلس الشورى وغالبيتهـــن معيَّنـــات؛ لأن نجاح المرأة فـــي الانتخابات كان ضئيلاً. وقد جرى مؤخراً سنُّ قانون لنظام الحصة (الكوتا) يخصص ٦٤ مقعداً للنســـاء في البرلمان المصري لمدة عشر سنوات على دورتين، وخطورة هذا الثقل النسوي في المجلس التشريعي، هي: تمرير التشريعات ذات الصبغة النسوية، أو التشـــويش على المناقشـــات النيابية التي لا تأتي على هوى نشيطات الحركة النسوية.

٢ - رَفْعُ سنِّ الزواج وتجريم الزواج المبكر:

مـــن أكثر النقاط التي دندنت عليها أجندة تحرير المرأة، هي: محاربة الزواج المبكر باعتباره - في نظرهم - عنفاً ضد الفتيات، وفي هذا الصدد جرى في مصر إقرار قانون يمنع توثيق عقد الزواج لمن لم تبلغ ســـن الثامنة عشرة، مع تجريم كل من يزوج الفتاة تحت هذا السن بالسجن لسنوات.

ويأتي هذا التضييق على المنفذ الشرعي الحلال ليتوافق مع المادة ٢٧٤ مـــن وثيقة مؤتمر بكـــين، والتي نصت على:

(١) كاثرين بالم فورث: ندوة حول اتفاقية السيداو، ٤ يناير ٢٠٠٠م، على هامش مؤتمر المرأة والعولمة الذي عقد بالخرطوم، د.مثنى أمين الكردستاني: حركات تحرير المرأة من المساواة إلى الجندر (دراسة إسلامية نقدية)، دار القلم للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٤، ص ٢٩٢.

(٢) منهاج عمل بكين: اعتمده المؤتمر العالمي الرابع المعني بالمرأة في ١٥ سبتمبر ١٩٩٥، وتُعقَد له تقييمات تتبُّعية كل خمس سنوات، ترفع فيها الحكومات والمنظمات غير الحكومية تقاريرها التي توضح فيها حجم تطبيقاتها لهذا المنهاج في مجتمعاتها.

«ضرورة سَـنِّ القوانين المتعلقة بالحد القانوني الأدنى لسن الرشـد، والحد الأدنى لسـن الزواج وإنفـاذ تلك القوانين (بصرامة)، ورفع الحد الأدنى لسِنِّ الزواج عند الاقتضاء».

٣ - التهـاون مـع الزنـا وإثبـات نَسَـب ابـن الزنا لأمه:

فـي الوقت الـذي يجري فيـه التضييق علـى الزواج الشرعي، جرى في مصر سَنُّ قانون يسمح للزانية أن تسجل وليدها من الزنا في الوثائق الرسـمية للدولة باسمها، وقد اعتبر العلماء المصريون أن في ذلك تيسيراً للزنا في المجتمع المصري، وخاصة أن الأم تعترف رسمياً بأنها زانية، ومع ذلك لا تُوقَع عليها أية عقوبـات، والعجيب أن الطفل المولود من الزنا يجري إثباته في الوثائق الرسـمية، بينما الآخر المولود من الطريق الشرعي لا يسـتطيع الأبوان اللذان لم يتجاوزا الثماني عشرة سـنة إثباته في الأوراق الرسمية، بل يجري تجريمهما على مخالفتهما للقانون الوضعي وتطبيقهما شرع اللـه في أمر الزواج، على حين يجـري تكريم الزانية الأقل من ١٨ سـنة، والدعوة لالتماس الأعذار لها عندما تمارس الزنا، وفي هذا الصدد تقول وزيرة الأسرة والسكان: «ينبغي عدم اتهام أي فتاة دون سـن الـ ١٨ بممارسة الدعارة، وإن الطفـل الذي يجري ضبطه في قضايـا دعارة يجب النظر إليه بصفته ضحية وليس كمجـرم، ومن واجبنا أن نوفر له الحماية المجتمعية».

إن هذه الفوضى الجنسـية الانحلالية وترك النسـاء يمارسن الفاحشة وقتما شـئن ودون أدنى رادع، يتوافق مع المادة ٩٦ من منهاج عمل بكـين التي تنص على أن: «للمرأة حقها في أن تتحكم وأن تبت (بحُريَّة) ومسؤولية في المسائل المتصلـة بحياتهـا الجنسـية؛ دون (إكـراه) أو (تمييز) أو (عنف)».

٤ - نَشْر ثقافة الطلاق في المجتمع المصري بديلاً عن المصالحة:

وهـذا الأمر يجري تحـت عنوان: «التوعيـة القانونية للمرأة»، وفي سـبيل ذلك يجري فتح الخطوط السـاخنة، وتنفيذ المنظمات غير الحكومية لجملة من البرامج الميدانية والدورات التثقيفية وعَرْض المسـاعدات القانونية المجانية؛ لإتمـام عملية التفريق بين الزوجين، مـع فتح مكاتب لتلقِّي الشـكاوى ضد الأزواج باعتبارها شـكاوى تدخل تحت بند العنـف ضد المرأة، وعلى إثرها يجري تحريض المرأة لتقديم الشـكاوى ضد هذا الزوج من أجل تقويم ما يرونه نشـوزاً وعنفاً من الزوج.

٥ - تعيين المرأة في مصر مأذونة:

المأذون في مصر هو من يوثِّق الزواج رسمياً، وذلك بعد إجراء مراسم العقد والتأكد من موافقة الزوجة وإتمام صيغة النكاح بين الولي والزوج، وعلى مـدار التاريخ الحديث كان القائم بتلك المهمة رجل؛ وذلك لاعتبار المأذونية إحدى المهام الفرعية للقضاء الشرعي، لكن مؤخراً تم في مصر السماح للمرأة بتولي تلك المهمة، وقد اعتبرت الحركة النسـوية في مصـر أن اقتناص هذا المنصب يعد انتصاراً للمرأة المصرية في كسرها حاجز وظيفة عامة كانت حكراً على الرجل.

والجديـر بالذكر هنا أنه قد بُحِثَت مسـألة تولي المرأة لوظيفة المأذون باستفاضة في رسالة جامعية بجامعة الأزهر أشرف عليها وناقشـها مجموعة من كبار أساتذة الفقه في مصر، وقد ذهبت الرسـالة إلى عدم جواز تولي المرأة لهذه الوظيفة؛ باعتبارها إحدى مهام القاضي واستدلت في عدم الجواز بالعديد من الأدلة والأحكام الشرعية[1].

وبالعمـوم؛ فإن تلاعب النسـوة في موضـوع القضاء والوظائـف المرتبطة بها والمحتكة بموضوع «الشـهادة» يثير الكثير من المخاوف في ظل دندنة النسوة حول تحقيق المساواة بين الرجل والمرأة في موضوع «شهادة المرأة» المعلوم من الدين بالضرورة، وذلك اقتداءً بما حدث في دولة البحرين.

٦ - تجريم ختان الإناث:

ليس معنى أن هناك خلافاً شـرعياً في مسـألة ختان الإناث أن يجري مصادرة الرأي المخالف، بل تجريم من يقوم بهذه المكرمة بجملة من العقوبات الزجرية، وهذا ما جرى في مصر بصدور قانون يجرِّم ختان الإناث، ويوقع العقوبات على الأطباء الذين يقومون بإجراء عمليات الختان للإناث.

٧ - التعليم وإعادة صياغة المناهج وَفْق الأجندة النسوية:

تم في مصر تشكيل لجان لإعادة صياغة الكتب المدرسية في المراحل التعليمية الأولى؛ بغية:

أولاً: تنقيحها مما يتعارض مع الطروحات النسوية؛ حتى

(١) أيمن سامي: حُكْم تولي المرأة الوظائف العامة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر.

لو كان المطلوب تنقيحه نصوصاً دينية.

ثـم يجري ثانية: دمج المناهـج التعليمية بما يتوافق مع الأجندة النسوية.

وفـي هذا الصدد يمكننا رصد ما تم تضمينه في كتاب: (الدراسـات الاجتماعية للصف الخامس الابتدائي) المطبَّق على التعليم المدني والتعليـم الأزهري في مصر؛ حيث جاء في الصفحة الخامسة عشرة: «ينتشر بين أهل الريف بعض العادات «غير المستحبة»، مثل: الزواج المبكر، وكثرة الإنجاب، وزواج الأقارب، وقد أنشأت الدولة العديد من مراكز تنظيم الأسـرة؛ لتوعية الريفيات؛ لتعديل هذه العـادات... بينما يتميز سكان البيئة الصناعية ببعض العادات والتقاليد التي تناسـبها، ومنها: مشـاركة المرأة للرجل في العمل، وتولِّيها بعض المراكز القيادية، وتأخُّر سـن الزواج؛ لارتفاع مستوى التعليم بين الفتيات».

وهـذا المحتوى التربوي الذي ينشـأ عليه أطفال مصر يتفق مع ما جاء في المادة (٩٣) من «وثيقة بكين»، والتي جاء فيها: «الزواج المبكر والأمومة المبكرة للشابات يمكن أن يَحُدَّا بدرجة كبيرة من فرصة التعليم والعمل».

إن من يحاول تحليل محتوى المناهج التعليمية في المجتمع المصري، سيتبين له الكثير من مواضع الحذف والإحلال وَفْق الطرح النسوي الأممي.

٨ - الإعلام وتكريس الأجندة النسوية:

يُعَدُّ الإعلام (المرئي والمسموع والمقروء) من أكثر الأدوات التي تسـتخدمها الحركة النسوية في مصر من أجل خلخلة المجتمع وهزِّ ثوابته القيمية لصالح الأجندة النسـوية، وفي سبيل ذلك يجري الدفع بمئات المسلسلات والأفلام والبرامج والإعلانات والمقـالات والحـوارات والتحقيقات؛ وجميعها تصاغ مادتها الإعلامية وَفْق ما تهدف إليه نشيطات الحركة النسوية.

٩ - التضييق على المنتقبات ومحاربة النقاب:

حيـث جـرى التضييق علـى المنتقبات فـي المدارس والجامعات المصريـة، وذلك بصدور جملة من القرارات من الوزراء ورؤسـاء الجامعات؛ لمنع المنتقبات من دخول قاعات الامتحانـات المختلطة وهُنَّ يرتدين النقاب، وهو الأمر الذي دفعهن إلى اللجوء للتقاضي؛ لدفع تلك القرارات التعسـفية بحقهـن، والأمر ذاته حدث من قَبْلُ بقرار وزير الصحة بمنع

إن هـذه الفوضـى الجنسـية الانحلاليـة وتـرك النسـاء يمارسـن الفاحشـة وقتما شـئن ودون أدنى رادع، يتوافق مع المادة ٩٦ مـن منهـاج عمل بكـين التي تنص علـى أن: «للمرأة حقها في أن تتحكـم وأن تبـت (بحُريَّـة) ومسـؤولية في المسـائل المتصلة بحياتها الجنسـية؛ دون (إكراه) أو (تمييز) أو (عنف)».

الطبيبات والممرضات من ارتداء النقاب في المستشفيات.

وتسـير تلك القرارات بالتزامن مع تشويه صورة النقاب فـي الإعلام وفـي تصريحات المسـؤولين، ضاربين عرض الحائط بمبدأ: «حرية المرأة» في اختيار الزي الذي تريده.

١٠ - المنظمـات غـير الحكوميـة والعمـل علـى المستوى المجتمعي:

تنتشـر في مصر المنظمات غير الحكومية المدعومة من مؤسسـات التمويل الأجنبية ذات الأصول اليهودية والأدوار المشـبوهة؛ وذلك من أجل تنفيذ مقـررات مؤتمر بكين في المجتمع المصري، ويجري هذا الدور من خلال استراتيجيات تحرُّك وأدوات تنفيذ تسـمح لها بالوصول لأكبر عدد ممكن من المجتمع المصري، ونَشْر الأجندة النسوية في ربوعه[1].

هـذا - باختصـار - ما يحدث فـي المجتمع المصري، ويعدُّونه تحريراً للمرأة، وعلى الوتيرة نفسها تسير الخطى في باقي بلدان العالم الإسـلامي، وهو ما يجيب على التساؤلين المطروحَين في بداية المقال حول: تطابق التغييرات العمدية الحادثة مع الأجندة الأمميـة، وهو الأمر الذي يحتاج لمزيد من التحرك الشـرعي؛ لإحداث نوع مـن التوازن قبالة تلك السيطرة النسوية ذات المرجعيات العَلْمانية الانحلالية.

(١) لمزيد من التفاصيل حول هذا الشأن يمكن مراجعة فصل: «المجتمع المصري بين الحركة النسوية والمنظمات غير الحكومية» في كتاب: الحركة النسوية وخلخلة المجتمعات الإسلامية «المجتمع المصري أنموذجاً»، تحرير الهيثم زعفان، كتاب البيان، ١٤٢٧هـ.

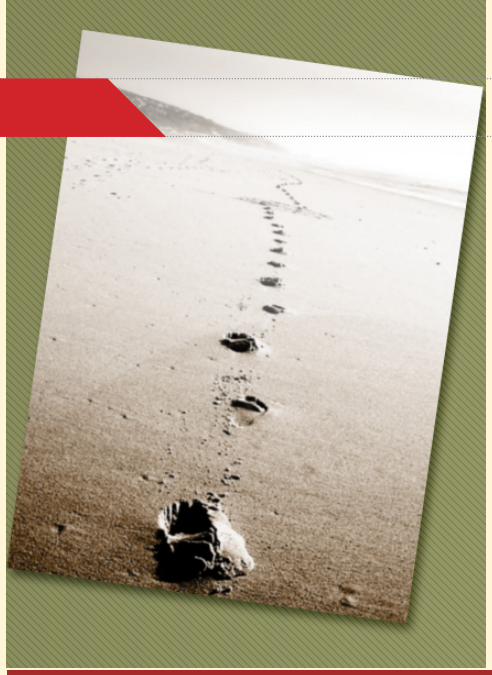

ظاهرة الشذوذ في العالم العربي

(الأسباب والنتائج وآليات الحل)

د. نهى قاطرجي

المقدمة

يعد موضوع الشـــذوذ الجنسي من أحدث المواضيع التي تثير اهتمام الناس على مختلف مشاربهم (الدينية والفكرية والاجتماعية)؛ وذلك بســـبب انتشار هذه الظاهرة في العالم العربـــي، وانتقال دعاتهـــا من مرحلة الدفـــاع إلى الهجوم، وتحدِّيهم للقوانين والشرائع التي تُحرِّم هذا الفعل وتجرِّمه.

إن هذه الأسباب إضافة إلى أسباب أخرى سَيَرِد ذكرها في هذه الدراســـة - إن شـــاء الله تعالى - هي التي تجعل مثل هذه الدراسة حاجة وضرورة تساعد في تحديد الأبعاد والأســـباب والنتائج التي تترتب على تزايد هذه الظاهرة في المجتمعات العربية.

هذا وقد واجهت الدراسة بعض الصعوبات كان من بينها:

١ - ندرة الأبحاث والدراسات التي تناولت هذا الموضوع بشـــكل مباشر. ولعل من أهم الكتب التي عثرت عليها، ثلاثة كتب، هي: كتاب: «الحب الممنوع، حياة المثليين والمثلييات في الشرق الأوسط» لـ «براين ويتاكر»، وكتاب: «المتعة المحظورة، الشـــذوذ الجنســـي في تاريخ العرب» لـ «إبراهيم محمود»، وكتاب: «الشذوذ الجنسي عند المرأة» لـ «هدى الخرسة».

٢ - صعوبة الحصول على الأرقام الصحيحة حول مدى انتشـــار هذه الظاهرة، والســـبب في ذلك يعود: إما لغياب الإحصاءات الرسمية، أو بســـبب تضخيم الجهات الداعمة للشذوذ الجنسي لبعض الأرقام؛ وذلك من أجل التعظيم من شأن الشواذ ومدى انتشـــارهم، وأخيراً بسبب التكتم الذي يحيط بمثل هذه الانحرافات في بعض المجتمعات.

هذا وقد عمدت في هذا البحث إلى التعريف بالمصطلح ودلالته، وبمدى انتشـــار هذه الظاهرة عبر التاريخ إلى يومنا الحالي، وبيان موقف الأديان من هذا الجرم، والعوامل والآثار والنتائج المترتبة على هذا الفعل.

أولا: مفهوم الشذوذ الجنسي ودلالته:

وردت في اللغة العربية ألفاظ وعبارات كثيرة استُخدِمت في التعبير عن الشـــذوذ الجنسي، منها: اللواط، المساحقة، إتيان البهائم، جِمَاع الأموات... وغير ذلك من الألفاظ التي تعبِّر عن فَعْل واحد من أفعال الشذوذ. أما استخدام عبارة: (الشـــذوذ[1] الجنســـي) للدلالة على هذه الأفعال مجتمِعة، فقـــد جاء مع الانفتاح الفكري فـــي الغرب، وما نتج عنه من علوم عُنِيت بتحليل بعض الظواهر الاجتماعية المنتشـــرة في المجتمعات وبيان أســـبابها ونتائجهـــا. ومن هذه العلوم: علم النفس الذي ساوى بين لفظة الشـــذوذ والانحراف، واعتبر أن الشاذ أو المنحرف، هو: «الذي يمارس انحرافات أو صور نشاط تناسلي ليس في اتفاق مع الثقافة أو الأعراف العامة لمجتمعه أو دولته»[2].

على أن هذا التعريف لـ «الشـــذوذ الجنسي» لم يبقَ على حاله؛ فمع بدء الدعوات إلى التعاطف مع الشـــاذين جنسياً في العالم، بدأت تغيب عبارة: «الشـــذوذ الجنسي» من كتب علم النفس، وجرى استبدالها بعبارة: «المثلية الجنسية»، وهي تعريب للمصطلح الإنكليـــزي: Homosexuality. وكذلك حصل هذا التبديل في الطب العصبي، الذي كان حتى ســـنة ١٩٥٣ م يصنف الجنسية المثلية على أنها نوع من الاضطراب

(١) الشذوذ في اللغة يدل على الانفراد والندرة، انظر: ابن منظور، لسان العرب: ٣/ ٤٩٤.
(٢) كمال دسوقي، ذخيرة علوم النفس، وكالة الأهرام للتوزيع، ١٩٩٠م، ص ١٠٦٥.

الجنسي لشخصية مصابة بمرض عقلي «psychopathic personality»؛ إلا أنه إثر تحرُّك بعض الناشطين المؤيدين للشـذوذ الجنسي، تم حذف مصطلح الجنسـية المثلية من دليل الأمراض العقلية؛ ليوضع مكانه: «اضطراب في التوجه الجنسي «sexual orientation disturbance»[1].

ثانياً: واقع الشذوذ الجنسي في العالم العربي:

لم يعد الشذوذ الجنسي أمراً مخفياً في كثير من المجتمعات والطبقات، بل إن هذا الفعـل أصبح أمراً مجاهراً به؛ حتى إن أي مراقب يسـتطيع أن يكتشـف الشاب المثلي من غيره بمجرد مراقبة تصرفاته ولباسـه. يقول أحدهم: «إن المثليين يفصحون اليوم عن جنسانيتهم من خلال أسلوب ثيابهم: إن ارتديت تي شـيرتاً ضيقاً أو صارخ اللون، فسـيظن الرجال الأسـوياء أنني أحاول التباهي وحسب. (يتابع وهو يبتسم): لكن الرجال المثليين الآخرين سيدركون الحقيقة»[2].

إن هذا الخروج للعلن الـذي يتَّبعه مثليو العالم العربي اليـوم، يعود إلى سـعيهم الـدؤوب على الصعيـد الفردي والجماعي من أجل دفع الناس إلى تقبُّلهم، مستفيدين بذلك مـن الدعم الذي تقدِّمه لهم المؤسسـات الدولية، وجمعيات الدفاع عن حقوق الشاذين في العالم. وقد تجلى هذا الدعم في مواقف عدة، من بينها: ذلك الموقف الذي حدث في عام ٢٠٠٨م؛ عندمـا قامت ١١٧ منظمة تعمل في مجال الصحة وحقوق الإنسـان بالاعتراض على حكم محكمة (جُنَح قصر النيل) التي قضت بالحكم ٥ سـنوات على خمسة مصريين، بتهمة الشذوذ [3].

إن هذا الدعم الكبير الذي يناله هؤلاء الشاذون، ساهم فـي تزايد عدد المثليين في العالم العربي؛ بينما قدَّر الكاتب نبيل فيـاض[4] (أحد المدافعين عن حقوق الأقليات) أن عدد المثليين والسحاقيات في بلد مثل سوريا يفوق كل التوقعات؛ حيث بلغت نسـبتهم ٢٠ ٪[5]، نجد أن بيروت تحتل الصدارة في هذا المجال[6]؛ حيث أصبح لهؤلاء ظهورهم العلني، ولهم جمعياتهم الخاصة التي تدافع عنهم.

ثالثاً: صور التعبير عن الشذوذ في العالم العربي:

١ - الملتقيات المباشرة للشاذين جنسياً:

تتشـابه الأماكن التي يلتقي بها الشـاذون في البلدان العربيـة. والخطير في هذه اللقـاءات أن بعضها يجري في المدارس والجامعات؛ ففي دراسـة أعدتهـا كلية الطب في جامعة الملـك عبد العزيز في جدة شـملت أكثر من ١٢٠٠ طالـب، تبيَّن فيها أن ثلث العينة سـبق لهـا أن وقعت في ممارسة جنسية خاطئة، منهم ١٢ ٪ شاذون جنسياً (لواط)؛ أي: ما يمثل ٤٢٠ شخصاً [7].

وهـذه النتيجة قد تكون ضئيلة نسـبة إلى بلدان أخرى؛ ففـي لبنان - مثـلاً - ادَّعى طالب جامعي سـابق لصحيفة «دايلي سـتار» التي تصدر بالإنكليزية أن المثلية قد اكتسـبت طابعاً اجتماعيـاً في جامعته في لبنان، وقـال أيضاً مبالغاً في تقدير حجم الشـذوذ: «٧٠ ٪ من شـباب جامعتي - على الأقل - قد ناموا مع شـباب آخرين، ولا أظن أن السـبب هو عدم اسـتطاعتهم إيجاد صديقات، بل السبب هو رواج الأمر فحسب»[8].

هذا ولا تقتصر التصرفات الشـاذة على الجامعات التي قد تتطلب مسـتوىً ثقافياً معيناً، بل إن هذا الفعل منتشـر أيضاً في كل الأوساط الاجتماعية. ووسائل وأماكن التعارف بين الشـاذين جنسياً متعددة؛ ففي السعودية - مثلاً - يعتبر أبرز أماكن تعارف هؤلاء، هو: مراكز التسـوق وعلى ناصية بعض الشوارع، وفي أثناء الحفلات الخاصة[9].

وفي البحرين تعتبـر الأماكن المفضلة للشـاذين، هي: صالونـات التدليـك والديسـكوهات، كما أنهـم يقومون باحتفـالات عامة في بعض الأماكن السـياحية. وقد ذكرت جريـدة «أخبار الخليـج» خبر ذلك الاحتفـال الذي قام به بعض الشاذين جنسياً في أحد المواقع السياحية في منطقة الصخير[10].

أما في العراق؛ فالوضع يختلف قليلاً عن سـائر الدول الخليجية،؛ إذ إن الشـاذين في المجتمـع العراقي يواجهون مجتمعهم بشيء من الجرأة في اللباس والمظهر والتصرفات التي لم تكن معهودة سابقاً. والسبب في ذلك يعود للاحتلال

(١) هدى الخرسة، الشذوذ الجنسي عند المرأة، ص ٢٠٧.
(٢) براين ويتاكر، الحب الممنوع، حياة المثليين والمثليات في الشرق الأوسط، ص٧٠.
(٣) السجن ٣ سنوات لخمسة مصريين مارسوا «الشذوذ الجنسي». أربعة منهم مصابون بالإيدز.
(٤) رويدا مبادري، المثليون في سورية يخرجون من الظل بموقع إلكتروني وبيان يدعو إلى التسامح.
(٥) هذا الرقم مبالغ فيه - حتماً - فإذا كانت نسبة الشذوذ في أمريكا لا تزيد عن ٢ ٪ في أكثر الأرقام ارتفاعاً، فلا يمكن أن تكون هذه الأرقام صحيحة في المجتمعات العربية والإسلامية التي تتخذ الإسلام ديناً، وهو الذي يحرِّم الفاحشة بكل أنواعها. لمزيد من المعلومات حول أسباب رفع الإحصاءات يمكن العودة إلى مقال: مافيا الشذوذ الجنسي في أمريكا «العالم في خزانة» للدكتور أحمد خير العربي، نشر في مجلة القدس العربي، ٥/٥/٢٠٠٩.
(٦) براين ويتاكر، الحب الممنوع، حياة المثليين والمثليات في الشرق الأوسط، ص٦١.
(٧) فهيد الغيثي، الشذوذ الجنسي... انحراف الفرد خطوة لتقويض المجتمع.
(٨) براين ويتاكر، الحب الممنوع، حياة المثليين والمثليات في الشرق الأوسط، ص٢٦١ - ٢٦٢، عن «دايلي ستار»، ٢٦ نيسان / أبريل ١٩٩٨.
(٩) المرجع السابق، ص٧٠ - ٧٣.
(١٠) ميلود الشلح، الشذوذ الجنسي بين مؤيد ومعارض.

الأميركي للبلاد الذي ساهم في التشجيع على هذا الفعل. وقد أكدت صحيفة نيويورك تايمز الأمريكية هذه الحقيقة بقولها: «إن الأمن والهدوء سمح للعراقيين أن يتمتعوا بالحريات (الأمريكية)، ومن بينها حرية الشذوذ التي لم يكن من المتصور أن تحدث قبل بضعة أعوام» [١].

وقد كان لهذا الظهور العلني الجريء في ظل غياب الدور الرقابي والقانوني للحكومة العراقية بسبب الاحتلال، أثره في قيام بعض المسلحين بقتل نحو ٢٥ شاباً ورجلاً لممارستهم الشذوذ في مدينة الصدر بالعراق؛ وذلك بعد أن تبرأت منهم قبائلهم؛ فقررت التخلص منهم وإحراق المقاهي التي يتجمعون فيها[٢].

وإذا كان غياب تطبيق الشريعة والقانون في العراق قد ساهم في تمتُّع هؤلا الشاذين بالحرية، فإنه في بلاد المغرب العربي تقوم السلطات الأمنية المغربية بتشديد الحصار على هؤلاء الشاذين الذي يستغلون المناسبات الدينية والشعبية من أجل ممارسة طقوسهم على مرأى ومسمع من الجميع[٣].

هذا ويعد الظهور العلني والالتقاء في الأماكن العامة نقاط مشتركة في كل من: دمشق ولبنان ومصر والأردن:

– ففي دمشق تعتبر نقاط التقاء هؤلاء في شوارع دمشق الراقية، وفي حديقة عامة بالقرب من فندق شهير، وفي حانات في دمشق القديمة [٤].

– أما في لبنان؛ فأبرز اللقاءات تتم في الأماكن العامة، وخاصة في المقاهي والمطاعم وعلى الشواطئ؛ حيث إن لهؤلاء شاطئ خاص «يديره ثنائي، وكذلك هناك حمامات تركية تستقبل المثليين» [٥].

– وفي مصر يلتقي هؤلاء في مقاهٍ معينة في القاهرة، كما أكد الصحافي «مصطفى فتحي» الذي أصدر كتاباً عن المثلية تحت عنوان: «في بلد الولاد» ذكر فيه أن الشذوذ الجنسي منتشر في مصر بشكل لا يتصوره العقل [٦].

وفي الأردن ذكرت صحيفة «الحقيقة الدولية» أن الذكور وبعض الإناث الشواذ جنسياً يتخذون من «كوفي شوب» – تحفَّظت الصحيفة عن ذكر اسمه – نقطة التقاء يومية لهم للتنسيق وممارسة شذوذهم، وقد كان هؤلاء ينوون إشهار تنظيمهم بشكل رسمي، وإعلان موقعهم الخاص على الشبكة العنبكوتية، لكن نَشْر الصحيفة للتحقيق حولهم جعلهم يمتنعون عن هذا الإعلان وعن افتتاح الموقع [٧].

٢ – الملتقيات غير المباشرة للشاذين جنسياً:

يسعى الشاذون جنسياً من أجل تثبيت وجودهم إلى الاستفادة من التكنولوجيا الجديدة، مثل الشبكة العنكبوتية (الإنترنت). وقد عمد عدد كبير من هؤلاء في عدد من الدول العربية، مثل: المغرب، والسعودية، والأردن، وسوريا، إلى تأسيس مجموعات وصفحات على الإنترنت يتلاقون فيها[٨]، كان أهمها عدداً من المجموعات على الموقع الاجتماعي Facebook. و من هذه المجموعات واحدة سعودية اسمها «شواذ جدة»، وتضم أكثر من ٥٠٠ عضو، ومنها واحدة سورية تضم نحو ٢٠٠ مثليٍّ وقد سموها: «مثلي مثلك» [٩].

وكذلك أنشأ هؤلاء مواقعهم وصفحاتهم الخاصة. منها – على سبيل المثال – موقع (المثليون في سورية)، وموقع آخر لم تفلح السلطات المصرية في إقفاله بسبب كونه مسجلاً في لندن، وهو يستخدم موفراً (server) في كاليفورنيا[١٠].

هذا إضافة إلى المدونات الخاصة التي يسعى أصحابها لتحقيق أهداف عدة من ورائها، منها: السعي إلى نفي الصورة الكوميدية المنتشرة عن الرجال والنساء الشاذين جنسياً التي تشبِّههم بأفعال وتصرفات الجنس الآخر. والتعبير عن مشاعرهم وتجاربهم بحرية، ومن دون خجل. ونَشْر الدراسات والأبحاث المعاصرة والتاريخية التي تثبت أن هذا الفعل كان معروفاً ومقبولاً في السابق.

٣ – إنشاء الجمعيات الداعمة للشذوذ الجنسي:

أُسِّسَت جمعية «حلم»، والكلمة تتألف من الحروف الأُولَى لعبارة: «حماية لبنانية للمثليين» في عام ٢٠٠٤م، وهي الجمعية الأولى من نوعها في العالم العربي التي تهدف إلى حماية المثليات والمثليين، والثنائيي الجنس والمتحولي الجنس.

وقد سجلت حلم بدءاً من كندا كجمعية لا تبغي الربح، لكنها تعتبر نفسها الآن مسجلة قانونياً في لبنان، وتضم

(١) حسن عثمان، مدونات مكتوب، صحيفة نيويورك تايمز: الحرية الأمريكية نشرت الشذوذ الجنسي بالعراق.
(٢) المرجع السابق.
(٣) إبراهيم كامل، مهرجان شواذ المغرب في مولد علي بن حمدوش.
(٤) رويدا مبادري، المثليون في سورية يخرجون من الظل بموقع إلكتروني وبيان يدعو إلى التسامح.
(٥) براين ويتاكر، الحب الممنوع، حياة المثليين والمثليات في الشرق الأوسط، ص ٥٤ – ٥٥.
(٦) مصطفى فتحي، المثلية منتشرة في مصر بشكل لا يتصوره عقل.
(٧) تجمُّع للشاذين جنسياً في الأردن.
(٨) شكك الدكتور أحمد خيري العمري في أن تكون المعلومات الواردة في هذه المدونات والأشخاص الواردة أسماؤهم أشخاصاً حقيقيين واستشهد بمقال أوردته «الواشنطن بوست» في ١٩/ ١١/ ٢٠٠٧، ورد فيها أن وزارة الخارجية الأميركية تستخدم فريق عمل يجيد العربية مهمته كتابة التعليقات في المواقع العربية الأكثر انتشاراً.
(٩) يوسف رفايعة، المثليون العرب يملؤون facebook ويبحثون عن أصدقاء.
(١٠) براين ويتاكر، الحب الممنوع، حياة المثليين والمثليات في الشرق الأوسط، ص٦٤.

الجمعية أكثر من ٣٠٠ شخص، وهي تتباهى برفع علم قوس القزح[١] في مكاتبها. وقد كان لها نشاطات عدة، منها: إطلاق كتاب: «رهاب المثلية»، إضافة إلى موقع على الإنترنت، ومجلة خاصة تحمل عنوان: «برا»، خصصت مواضيعها للحديث عن الشواذ والقضايا التي تهمهم. وقد دُعِمت الجمعية في ٢٠٠٩/١٠/٢٩م. بحفل توقيع لكتيِّبها الجديد عن المثلية: «مش عن النبات» في أحد فنادق بيروت المشهورة.

وبالإضافة إلى جمعية «حلم»؛ فقد أُسست في لبنان جمعية أخرى خاصة بالمثليات، وهي جمعية «ميم»، ولها موقع ومجلة إلكترونية تصدر عنها.

هذا ولا يقتصر تأسيس الجمعيات على لبنان فقط؛ فقد أعلن المثليون المغاربة عن تأسيس جمعيتهم الخاصة التي أسموها: «كيف... كيف» ومعناها: «سواسية». وللجمعية موقع خاص عبر الشبكة العنكبوتية، وهي تحظى بدعم كبير من إحدى التنظيمات السويسرية التي تحمل اسم: «best homo»، والتي خصصت مبلغ مليون يورو لتنظيم الاحتفال بتأسيس جمعية: «كيف... كيف» الذي جرى في إحدى الفيلات في مدينة الدار البيضاء[٢].

ثالثاً: العوامل المساهمة في انتشار الشذوذ الجنسي:

عوامل عديدة تساهم في زيادة نسبة المجاهرة في فعل الشذوذ الجنسي، ومن هذه العوامل:

١ - العوامل الخارجية:

أ - دور الأمم المتحدة ومنظماتها:

بدأ تركيز الأمم المتحدة على تشريع الشذوذ الجنسي في عام ١٩٥١م. مع فرض معاهدة الأمم المتحدة للاجئين على الدول؛ لتأمين الحماية لأي شخص لديه خشية من «التعرض للاضطهاد نتيجة أسبابٍ عرقية أو دينية أو ترتبط بهويته الجنسية، بانتمائه إلى مجموعة اجتماعية معينة، أو بسبب رأيه السياسي» [٣].

وبعد ذلك بدأ موضوع الشذوذ يأخذ طابعاً أكثر تخصصية مع تلك المؤتمرات والاتفاقيات الدولية التي تُعْنى بالأمور الجنسية، وعلى رأسها حقوق المثليين الجنسيين في العالم. وكان من نتائج تحركات منظمة الأمم المتحدة أن وقَّع في كانون الأول (ديسمبر) ٢٠٠٨ ستة وستون بلداً في الجمعية العامة للأمم المتحدة بياناً يتعلق برفع العقوبة عن المثلية [٤].

ولعل من أهم المؤتمرات التي تناولت قضية الشذوذ الجنسي مؤتمر القاهرة الذي عُقِد في عام ١٩٩٤م، والذي حفلت وثائقه الأساسية بمصطلحات خطيرة، منها: مصطلح: «الحقوق الجنسية»، ومصطلح: «المتحدين والمتعايشين (COUPLE)».

أما مؤتمر بكين الذي عُقِد عام ١٩٩٥م، فقد تميز بالتظاهرة الكبيرة التي مشت فيها ٧٠٠٠ امرأة مناديات بحقوق السحاقيات والشواذ، وكان من المصطلحات التي أُطلقت في هذا المؤتمر مصطلح: (Sexual Orientation) الذي يفيد حرية الحياة غير النمطية، ومصطلح الهوية الجندرية: «Gender Identity» التي اعتبرتها الموسوعة البريطانية «غير ثابتة بالولادة، بل تؤثر فيها العوامل النفسية والاجتماعية، وهي تتغير وتتوسع بتأثير العوامل الاجتماعية[٥].

وإضافة إلى المؤتمرات والاتفاقيات الدولية يظهر أيضاً عمل الأمم المتحدة في المنظمات التابعة لها التي تعمل على تكريس هذه المفاهيم في برامجها من جهة، وفي دعم الشاذين جنسياً في العالم من جهة أخرى.

ب - الدعم الدولي للشاذين جنسياً:

لا يقتصر الدعم الدولي للشذوذ الجنسي في العالم العربي على منظمات الأمم المتحدة، بل إن هذا الدعم قد يأتي من قِبَل الدول والحكومات الغربية التي تقدِّم التسهيلات للشاذين جنسياً، ومن ذلك: مَنْحُهم حق اللجوء السياسي.

والجدير بالذكر هنا أن فتح باب الهجرة للشاذين لا يقتصر على الدول الغربية، بل إن إسرائيل التي شرَّعت العلاقة المثلية عام ١٩٨٨م، باتت طريق الفرار المعتادة للفلسطينيين الشاذين. وهؤلاء غالباً ما يقعون ضحية للاستخبارات الإسرائيلية؛ فيتحول معظمهم إلى تعاطي البغاء من أجل كسب قُوتِهم بعد أن رفضهم مجتمعهم[٦].

ومن نماذج الدعم من قِبَل المنظمات غير الحكومية الغربية ما تحظى به جمعية «حلم» اللبنانية من تأييد مجموعات لها في: أستراليا وفرنسا والولايات المتحدة الأميركية. وهي تؤمِّن لها إضافة إلى التمويل المادي الحماية

(١) يُعرَف هذا العَلَم عالمياً بأنه رمز للمثلية.
(٢) عبد الرحمن خيزران، جمعية خاصة لشواذ المغرب بدعم دولي.
(٣) براين ويتاكر، الحب المنوع، حياة المثليين والمثليات في الشرق الأوسط، ص ٤٠ - ٤١.
(٤) رويدا مبادري، المثليون في سورية يخرجون من الظل بموقع إلكتروني وبيان يدعو إلى التسامح.
(٥) نزار محمد عثمان، الجندرة مطية الشذوذ الجنسي.
(٦) براين ويتاكر، الحب المنوع، حياة المثليين والمثليات في الشرق الأوسط، ص ٤٥ - ٥٠.

من تعسُّف «السلطات اللبنانية التي تدرك أنها ستواجه شكاوى خارجية في حال اتخذت خطوات قمعية»[1].

٢ - العوامل الداخلية:

تتعدد العوامل الداخلية التي تساهم في انتشار الفساد الأخلاقي بشكل عام والشذوذ الجنسي بشكل خاص. وأول هذه العوامل تبدأ من الأسرة التي ينشأ فيها الطفل، والتي تساهم بشكل كبير في تكوين شخصيته وتوجيه سلوكه. وما نشاهده في بعض الأسر من تنشئة خاطئة تبدأ منذ الصغر، تلعب دوراً كبيراً في عدم تقبُّل الطفل لهويته الذكورية أو الأنثوية في المستقبل. ومن نماذج هذه التصرفات: قيام بعض الأهل بإطالة شعر أبنائهم الذكور، والسماح لهم باللعب بألعاب البنات وإلباسهم لباس الفتيات، وكذلك تسمية البنات بأسماء الذكور، والسماح لهن باللعب معهم في ألعابهم الخاصة التي تتسم في بعض الأحيان بالعنف.

إضافة إلى ذلك؛ فإن تعرُّض الأطفال في صغرهم إلى التحرش الجنسي من قِبَل أحد أفراد العائلة أو من المقربين أو المكلفين بحمايتهم، له دور كبير في التحول إلى الشذوذ الجنسي.

هذا ويساهم المجتمع بدور كبير في تفشي هذه الظاهرة وقبولها، ويبدأ دور هذا المجتمع في المدارس والجامعات التي تُعَدُّ المصدر الثاني للثقافة الجنسية من بعد الأهل. وقد بدأت هذه المدارس؛ نتيجة تأثُّرها بالموجة التغريبية بتغيير سياستها التربوية، وبدأت الأصوات تعلو من أجل تدريس الشذوذ الجنسي في المدارس تحت راية الثقافة الجنسية وحقِّ الطفل بالاطلاع على جميع الممارسات الجنسية؛ على أن يختار هو ما يتناسب مع ميوله وتوجهاته.

وقد بدأت هذه السياسات تظهر نتائجها على الأرض؛ حيث بدأت جمعية «حلم» بعقد حلقات نقاش في الجامعات اللبنانية للتعريف بحقوق المثليين[2].

هذا ولا يقتصر خطر المدرسة على المناهج التربوية، بل إن وجود الاختلاط غير المنضبط في المدارس والجامعات قد ينعكس سلبياً على شخصية كلٍّ من: الذكر والأنثى، وكذلك التشديد في منع الاختلاط من دون وجود رقابة مدرسية وبيتية من العوامل التي تساهم في انتشار هذا الفعل.

٣ - العوامل الثقافية:

لم يهتم المؤرخون العرب بدراسة ظاهرة الشذوذ الجنسي؛ لأنها كانت نادرة ومن ثَمَّ؛ فهي غير مهمة بالنسبة إليهم، ولكن الذي أتى على ذكرها وتوثيقها هم بعض الأدباء العرب، الذين عبَّروا في قصصهم وطرائفهم وأشعارهم عن مواقفهم المؤيدة أو الرافضة لهذا الفعل. و لعل أبرز الشعراء المؤيدين هو الشاعر أبو نواس. أما أبو العتاهية؛ فقد كتب مستنكراً الشذوذ الجنسي عند النساء؛ فكان مما قاله:

لعنَ الإلهُ سواحقَ الرأسِ؛
فلقَد فَضَحْنَ حرائرَ الإنسِ
أبدَين حرْباً لا طعان بها
إلا اتقاءَ الترسِ بالترسِ

هذا في العصر القديم. أما في العصر الحالي؛ فإن الحديث عن الشذوذ الجنسي في الأدب العربي لم يأخذ طابع المجاهرة إلا في السنوات الأخيرة. أما قبل ذلك؛ فإن الأدباء والرواة كانوا يكتفون بالتلميح دون التصريح. وقد صدر حديثاً كتاب: «الشذوذ الجنسي في الأدب المصري» للكاتب مصطفى بيومي، تناول فيه الشذوذ في كتابات بعض الأدباء المعاصرين، أمثال: «علاء أسواني» و «نجيب محفوظ» و «يحيى حقي»[3].

هذا وقد بدأ التأثير الغربي على الثقافة العربية يظهر بوضوح مع ظهور كتابات روائية تتحدث عن الشذوذ بشكل علني وصريح. من هذه الكتابات ما كتبته أديبات نسويات، أمثال: اللبنانية «حنان الشيخ» في روايتها: «مسك الغزال»، وكتاب: «رائحة القرفة» للروائية السورية «سمر يزبك»، ورواية: «أنا هي أنت» للكاتبة اللبنانية إلهام منصور، و «الذي يُعدُّ الكتاب الوحيد باللغة العربية الذي يمكن اعتباره رواية مثلية نسائية فعلاً؛ وهو يركز على مشكلات امرأة مثلية تحاول الدفاع عن هويتها في مجتمع مشتهٍ للغير»[4].

٤ - العوامل الإعلامية:

يقوم الإعلام العربي بدور كبير في الترويج للشذوذ الجنسي ودفع الناس إلى تقبُّله، مصوراً حالات الشذوذ الخاصة التي ينتقيها من المجتمع على أنها حالات عامة، وعلى أنها أمور طبيعية، لا تتعدى كونها حبّاً كأي حب بين الجنسين.

وقد بدأ اهتمام الإعلام العربي بموضوع الشواذ ضمن خطة عالمية من أجل تغيير ثقافة الشعوب وعقائدهم، ويؤكد على هذا الأمر العديد من الخبراء الإعلاميين الذين يرون

(١) المرجع السابق، ص ٦٠.

(٢) نفى مسؤولها للعربية. نت تلقيهم دعماً إسرائيلياً، اتهامات لجمعية لبنانية بتشكيل تنظيم عام لنشر اللواط وتزويج الشواذ.

(٣) محمد الكفراوي، الشذوذ الجنسي في الأدب المصري، شخوص ترصد تغيرات الوعي بالعالم.

(٤) براين ويتاكر، الحب الممنوع، حياة المثليين والمثليات في الشرق الأوسط، ص ١٠٥.

أن بدء طرح المواضيع الجنسية، مثل: الصحة الإنجابية، والحرية الجنسية، والشذوذ الجنسي في الفضائيات العربية، إنما يعود إلى سياسة تنفيذ برامج الأمم المتحدة وعلى رأسها مؤتمر بكين. ولعل أشهر هذه البرامج، برنامج: «أحمر بالخط العريض» على قناة Lbc، الذي كان لعرض حلقته حول الشذوذ ردة فعل كبيرة ليس فقط على الصعيد الشعبي، ولكن أيضاً على صعيد الشاذين أنفسهم؛ كما فعلت جمعية «حلم» باعتراضها على محتوى الحلقة.

وإضافة إلى البرامج الجادة، هناك بعض البرامج الساخرة التي تصوِّر شخصيات شاذة من أجل إضحاك الناس والترفيه عنهم، بينما هي في الحقيقة تؤسس - بوعي أو بغير وعي - لقبول بعض التصرفات الشاذة التي لا يقبلها دين ولا شرع.

وإذا كان هذا التصوير لمشاهد الشذوذ عبر التلفاز بهدف إضحاك الناس؛ فإن هذا التصوير في السينما هو بهدف نَقْل الواقع الحي؛ لذلك كثيراً ما تتضمن الأفلام الجنسية التي تتحدث عن الشذوذ بعض المشاهد الجنسية الصريحة. كمثل تلك التي قامت بها الفنانتان: «غادة عبد الرازق» و «سمية الخشاب» في فيلم «حين ميسرة».

إن هذا النوع من الأفلام الذي كان فيما مضى يقتصر على التلميح كما في أفلام يوسف شاهين، والذي كان يُعرَض في إطار النقد والرفض والاستنكار، بدأ ينتقل اليوم إلى شيء من العلانية، والقبول بالأمر الواقع وطَلَب التعاطف. ولعل أبرز من قام بإخراج هذا النوع من الأفلام: المخرجة «إيناس الدغيدي» التي أثار أحد أفلامها ضجة وصلت إلى مجلس الشعب المصري، وكذلك المخرج «خالد يوسف» الذي تخلل فيلمه الذي عُرِض على الفضائيات مشاهد فاضحة تروج للسحاق بين بعض بطلاته. وكذلك فيلم «عمارة يعقوبيان» الذي هلل له الغربيون كثيراً، ومنحوه الجوائز العالمية؛ لنجاحه في خرق المحرمات والتحدث عن الشذوذ الجنسي بشكل صريح.

هذا ولا يقتصر عرض موضوع الشذوذ على الإعلام المرئي، بل هناك إضافة إلى مواقع الإنترنت والمدونات الخاصة، والصحف والمجلات التي بدأت تنشر التحقيقات حول انتشار هذه الظاهرة في الأوساط الشبابية، بعض المجلات الخاصة التي أخذت طريقها إلى الأسواق، مثل: مجلة «برا» التابعة لجمعية «حلم». ومجلة «بخصوص» الإلكترونية التي تصدرها جمعية «ميم»، وهي مخصصة للشاذات. هذا إضافة إلى مجلة جنسية جديدة اسمها: «جسد» تتناول - بالصورة والكلمة - المواضيع الجنسية الإباحية ومن بينها الشذوذ الجنسي.

رابعاً: الآثار الناجمة عن الشذوذ:

إن الآثار الناجمة عن الشذوذ الجنسي عديدة جداً؛ فهي تؤدي إلى أضرار فادحة في صحة الفرد. وحصل بذلك ما حذَّر منه رسول الله ﷺ بقوله: «لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا»[1]. ومن الآثار التي تنتج عن انتشار الشذوذ، ما يلي:

١ - الخلل في القيم والمعايير الدينية والأخلاقية؛ فيصبح الحلال حراماً والحرام حلالاً، ويزيد الاستهتار بالدين الذي يحرِّم الشذوذ بكل أنواعه، وتكثر الجرائم بكل أنواعها: من قتل، وسرقة، وإدمان الخمور، وتعاطي المخدرات، واستعمال العنف والشدة، والاعتداء على الآخرين وخاصة الأطفال.

٢ - انتشار الأمراض بين الشاذين جنسياً، ومن هذه الأمراض تلك المنتقلة بالجنس، وعلى رأسها مرض نقصان المناعة والمقاومة في الجسم: (الإيدز)، والأمراض الزهرية الأخرى. إضافة إلى ذلك تنتشر بين الشاذين الأمراض الجسدية، مثل: الوباء الكبدي (ب) ومرض «متلازمة أمعاء الشواذ»، والحمى المضخِّمة للخلايا، إضافة إلى الأمراض العصبية والاضطرابات النفسية، مثل: القلق والاكتئاب والشعور وبالنقص والسادية... وما إلى ذلك من اضطربات نفسية قد تصل بأصحابها إلى الانتحار أو القتل.

٣ - تقويض عرى الأسرة المسلمة، وتغيُّر أشكالها الطبيعية المكوَّنة من امرأة ورجل وأطفال؛ إذ إن ممارسة الشذوذ تؤدي إلى عزوف الشباب عن الزواج الشرعي، كما يساهم في زيادة نسبة المشكلات الاجتماعية: من عنوسة، وطلاق، وخيانة زوجية، وعجز جنسي...

الخاتمة:

إن خطورة الشذوذ الجنسي لا تكمن في وجوده بالدرجة الأولى، ولكن تكمن في محاولة نقل التجربة الغربية إلى المجتمعات العربية، والسعي لإسقاطها على مجتمعاتنا كما هي، والدعوة إلى شرعنتها من الناحية الفقهية والقانونية، متناسين نتائج انتشار هذه الظاهرة في الدول الغربية والآثار السلبية الخطيرة التي تركتها على المجتمعات هناك.

من هنا؛ فإن الواجب على المسلمين وغير المسلمين التكاتف

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك.

والعمل يداً واحدة من أجل محاربة هذا الشـــذوذ بشـــتى الوسائل الفردية والجماعية، ومن هذه الوسائل:

١ – التشديد على استخدام مصطلح: (الشذوذ الجنسي) عند الحديث عن هذا الفعل، ورَفْض اســـتبداله بمصطلح: «المثلية الجنسية» المحايد الذي يُعَدُّ مجرد توصيف لما يسمى: الميل الجنسي للفرد. من دون أن يحتوي على أي حكم أخلاقي بتحريمه ورَفْضِه.

٢ – تضافر الجهود الرسمية والخاصة من أجل القضاء على هذه الظاهرة، وتوعية الناس حول مخاطر الشذوذ. ومن هذه الجهود: تعديل القانون المحلي لبعض الدول العربية التي لا تنص على عقاب الشـــذواذ إلا فـــي حالة عدم رضا أحد الأطراف. ومنها أيضاً تغليظ العقوبة على مرتكبي الشـــذوذ وعدم تشريع وجودهم ولا الترخيص لجمعياتهم.

٣ – التصدي للخطط الدولية التي تطالب بتعديل مناهج التدريس؛ حتى تتناســـب مع التوجه العالمي الذي يدعو إلى تقبُّل الشذوذ الجنسي وتقنينه.

٤ – الاهتمام بعلاج حالات الشـــذوذ، وتطوير الوسائل العلاجية التي تساعد الشاذ على التخلص من هذا الداء.

٥ – التركيز على التربية الأسرية الإسلامية الصحيحة، ودعوة الآباء إلى تطبيق سُـــنة رسول الله ﷺ في التعامل مع الأبناء، والتي من بينها التفريـــق بينهم في المضاجع، وعدم تفضيل الذكر على الأنثى، وعدم القســـوة عليهم... وما إلى ذلك من أمور تربوية أخرى.

٦ – إيجـــاد الحلـــول الاجتماعية والاقتصادية لمســـألة العنوسة وتأخُّر الزواج، والتشجيع على الزواج المبكر، وعدم وضع العراقيل أمام هذا الزواج.

٧ – الرقابـــة على الإعلام، خاصـــة المرئي منه، والذي يستورد كثيراً من البرامج الإباحية التي تشجع على الخلاعة والشذوذ الجنسي.

أخيراً: لا يجب أن نغفل عن أن هؤلاء الشـــواذ هم أبناء المسلمين، وقسم كبير منهم مضلَّلون جاهلون غافلون؛ لذلك من حقهم على علماء الأمـــة دعوتهم إلى التوبة والعودة إلى الله – عز وجل – وتعريفهم بالنصوص الشـــرعية التي تحرِّم هذا الفعل وتعتبره من الكبائر، وتوثيق الصلة بينهم وبين الله – ســـبحانه – وعـدم تيئيسـهم من رحمة اللـه – عز وجل – الذي يغفر الذنـوب جميعـاً. وصدق الله – عز وجل – الذي يقول: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْـرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر : ٥٣].

انتحار الأخلاق في محاضن التربية (الأمريكية)

«يشـــيع التحرش الجنسي في كل مراحل التعليم؛ فيبدأ التحرش اللفظي والجســـدي في المرحلة الابتدائيـــة، ويتعرض ٤ من بين كل ٥ أطفال لشـــكلٍ من أشـــكال التحرش الجنسي أو الاضطهاد. كما أن ٨ مـــن كل ١٠ يتعرضون لهذا في مرحلة ما من حياتهم الدراســـية. أما ٢٥ ٪ – تقريباً – فيتعرضون له بشـــكل متكـــرر. والأولاد أكثر ميلاً إلى التحرش بالآخرين جســـدياً واضطهادهم. كما أنهم أكثر عرضة للاضطهاد الجســـدي. أما البنات، فهنَّ أكثر ميلاً لممارســـة التحرش النفسي والاضطهاد. كما أنهنَّ الأكثر عرضة له.

إن ٦ من كل ١٠ طلاب وطالبات يتعرضون لشـــكل ما من أشكال التحرش الجنسي الجسدي».

في المسح الذي أجرته «الرابطة الأمريكية للنساء الجامعيات» عام ٢٠٠٢ على ٢٠٦٤ طالباً وطالبة في الصف الحادي عشر، تبيَّن أن:

- ٨٣ ٪ من البنات قد اعتدي عليهن جنسياً.
- ٧٨ ٪ من الأولاد قد اعتدي عليهم جنسياً.
- ٣٦ ٪ من موظفي المدرسة أو المدرسين قد تحرشوا بالطلاب.
- ٣٨ ٪ من الطلاب قد جرى التحرش بهم من قِبل موظفي المدرسة أو المدرسين.
- ٤٢ ٪ من موظفي المدرســـة أو المدرســـين قد تحرشوا ببعضهم البعض.

وفي المسح الأخير الذي أُجري عام ٢٠٠٦ حول التحرش الجنسي بطلبـــة الجامعات والكليات في الجامعة، ذكـــرت «الرابطة الأمريكية للنســـاء الجامعيات» أن كلاً من الرجال والنساء مستهدَف بالتحرش الجنسي وأن:

- ٦٢ ٪ مـــن طالبات الجامعة و ٦١ من طلاب الجامعة الذكور قد أَبلغوا عن تحرُّش جنسي في حرم الجامعة.
- ٦٦ ٪ من طلبة الجامعة (إناثاً وذكوراً) يعرفون بشكل مباشر مَنْ قد تعرَّض لتحرش جنسي.
- ١٠ ٪ أو أقل من ضحايا التحرش الجنســـي حاولوا إبلاغ موظف الجامعة عن هذا التحرش.
- ٣٥ ٪ أو أكثر من طلبة الجامعات الذين تعرضوا لتحرُّش جنسي لم يخبروا أحداً بذلك.
- ٨٠ ٪ من الطلاب الذين تعرضوا لتحرش جنسي قد أخبروا عن تعرُّضهم للتحرش الجنسي عن طريق طالب آخر أو سابق.
- ٣٩ ٪ مـــن الطلاب الذيـــن تعرضوا لتحرش جنســـي قالوا: إن الحادثة وقعت في سكن الجامعة.
- ٥١ ٪ مـــن طلاب الكلية الذكـــور اعترفوا بأنهم قد تحرشـــوا بشخص ما داخل الكلية.
- ٣١ ٪ من طالبات الكلية الإناث اعترفنَ بأنهنَّ قد قُمْنَ بالتحرش بشخص ما آخر داخل الجامعة أو الكلية.

http://www.sexualharassmentsupport.org/SHEd.html

ترجمة مركز الدراسات والبحوث في البيان

التغيُّر الاجتماعي وصراع القيم

د. عبدالله بن ناصر الصبيح(*)

حركة الأفراد داخل المجتمع وسعيهم لتحقيق مصالحهم وقضاء حاجاتهم، وتعاونُهم وتخاصُمهم وتأييدُهم لمؤسساته واعتراضُهم عليها، كل ذلك يسمى تفاعلاً اجتماعياً، ينتج عنه تغيُّر اجتماعي. وهذه العملية لا يمكن إيقافها؛ لأنها شرط لوجود المجتمع. وإذا كان التفاعل يستحيل منعه، فإن التغير الاجتماعي يستحيل إيقافه كذلك. وهو (أي: التغير الاجتماعي) يمكن أن يكون سريعاً أو بطيئاً، صاخباً أو هادئاً، سلمياً أو عنيفاً. وهذا يعتمد على القيم الاجتماعية التي تحكم المجتمع ويجري التفاعل الاجتماعي في ضوئها.

والتغيُّر الاجتماعي ربما كان تلقائياً؛ نتيجة لحركة المجتمع الرتيبة وتفاعله اليومي، وربما كان مقصوداً موجَّهاً يجري وَفْق خطة مدروسة؛ وهو حينئذٍ تغيير اجتماعي وليس تغيُّراً اجتماعياً. ومن خلال التفاعل الاجتماعي التلقائي يتغير المجتمع؛ فينمو ويشيخ وقد يتقدم أو يتأخر. ومن أوائل من تحدَّث عن التغير الاجتماعي ابن خلدون - رحمه الله - حينما تحدث عن المراحل التي تمر بها الدول والتغيرات التي تنتهي إليها المجتمعات، وأبان أنه إذا سيطر الترف على مجتمع ما كان ذلك مُؤْذِناً بضعفه وعجزه عن مدافعة عدوه، أو فشله أمام ضغوط الحياة. وليس الغرض هنا بسط نظرية ابن خلدون وإنما بيان موقع القيم في عملية التغير الاجتماعي: إنها فاعلة ومنفعلة؛ فالقيم توجِّه السلوك وتقود التغير وفي الوقت نفسه تتأثر بالتغير؛ فتنمو أو تضعف.

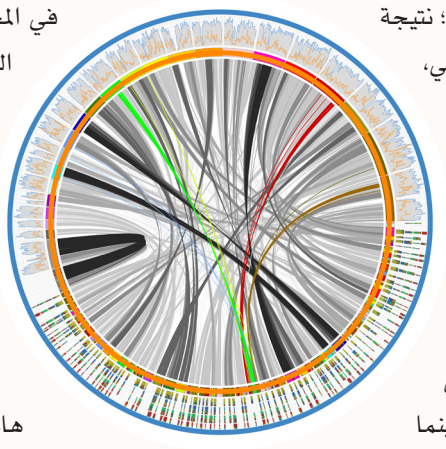

وفَهْم التفاعل الاجتماعي وضبط مسارات التغير الاجتماعي مرتبط بمعرفة القيم التي يجري التفاعل في ضوئها؛ فالقيم هي التي تمنح الشرعية لفعلٍ ما؛ فيكون مقبولاً في المجتمع أو مرفوضاً يُشْنَأ صاحبه. وهي بهذا تيسِّر التغيير الاجتماعي أو تعوقه، وترشده أو تحرفه.

والقيم هي مبادئ ومعايير مسلَّمة بين جميع أفراد المجتمع أو غالبيتهم؛ فهي بهذا تمثِّل مرجعية للسلوك. أما مصدرها، فربما كان الشريعة المنزلة، أو اجتهادات العلماء، أو ما تواضع عليه المجتمع، أو سِوَى ذلك مما استقر في المجتمع؛ نتيجة حوادث معينة عبر تاريخه الطويل.

وفي تاريخ كل مجتمع تنشأ في حال الرخاء والغنى قيم، وفي حال العوز والفقر تنشأ قيم، وفي حال الخوف تنشأ قيم، وفي حال الأمن تنشأ قيم. وهذه القيم ليست جميعها في مستوى واحد؛ فبعضها أساسي في ثقافة المجتمع وبعضها هامشي، وغايتها جميعاً ضبط السلوك داخل المجتمع وتيسير التفاعل بين أفراده.

والمجتمع لا يتسامح في التعدي على قيمه ولا سيما القيم الأساسية، ويتخذ في سبيل حمايتها عدداً من الإجراءات التي قد يكون منها معاقبة المخالف عقاباً بدنياً أو عقاباً معنوياً: كالإهمال والاحتقار.

والقيم مرتبطة بمنظومة من المفاهيم وأنماط من السلوك وببعض مؤسسات المجتمع. وفي بعض الأحيان يَعُدُّ المجتمع بعض الشخصيات العامة رموزاً ممثِّلة لبعض القيم؛

(*) أستاذ مشارك في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - قسم علم النفس.

فمثلاً: رجال السياسة وبعض المؤسسات السياسية يمثلون قيماً سياسية معينة، وبعض علماء الشريعة وبعض المؤسسات الدينية تمثل بعض القيم الدينية. وربما كانت الرموز أماكن أو أشياء أو سلوكاً وهيئات، ومن أمثلة ذلك: الرموز الدينية التي صدر قرار في فرنسا بمنع ارتدائها في المدارس العامة التي تُشرف عليها الدولة.

فالقيم إذن ليست منفصلة عن الواقع، وإنما هي ماثلة في الأذهان ظاهرة في الأعيان:

- فهي ماثلة في الذهن بمعناها وما يرتبط بها من مفاهيم.

- وظاهرة في المجتمع من خلال رموز وشخصيات ومؤسسات وسلوك يجسِّدها في المجتمع.

ولو انفصل الوجود المادي للقيم عن وجودها الذهني، لما كان للقيم قيمة ولا انتفى تأثيرها من المجتمع. وهذا يشمل قيم الحق وقيم الباطل. إن أي قيمة لا بد أن يكون لها وجود ذهني ووجود مادي في المجتمع. ومن عظَّم القيم في وجودها الذهني وهوَّن من وجودها المادي، فهو - في الحقيقة - يسعى لهدمها. وبعض معارضي القيم يسلكون هذا السبيل؛ فيعظمونها مجردة في الذهن؛ لأنهم لا يستطيعون إنكارها خوفاً من سطوة المجتمع، ولكنهم ينتقصون ما يمثلها من سلوك وينتقصون ما يمثلها من مؤسسات وهيئات.

ولبيان الوجود الذهني والمادي للقيم تأمَّل قول الله - تعالى - في سورة الفاتحة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]؛ فإنك لا بد أن تلاحظ قيمة الصراط المستقيم ضمن ما يمكن أن تلاحظه من قيم في الآية. والصراط المستقيم له وجود ذهني؛ فهو معرَّف في الذهن و له مواصفات تحميه من أن يلتبس بسواه، وهذا يمكن أن يوصف بأنه وجود ذهني للقيمة. وبعد ذلك يقول الله - تعالى -: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، وفي هذه الآية يظهر لنا الوجود المادي للصراط المستقيم؛ فهو ليس مجرد مواصفات ذهنية لا وجود لها في المجتمع، أو لا وجود لها في حياة البشرية عامة؛ فهذا الصراط له أهل مرتبطون به، وبهم يُعرف وهم أيضاً يُعرفون به عبر التاريخ البشري كله؛ إنهم الذين أنعم الله عليهم. وهؤلاء عرَّفت بهم آية أخرى. يقول الله - عز وجل -: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

إذن أي قيمة لها وجودان: أحدهما ذهني والآخر مادي (أو: وجود في الأذهان وآخر في الأعيان). والتمسك بالقيمة يقتضي المحافظة على الوجودين كليهما. ومن حاول التقليل من وجودها المادي، فهو في الحقيقة يهدم القيمة ذاتها.

إن هدم الوجود الذهني للقيم يبدأ عادة بهدم وجودها المادي، وإذا تسامح الناس في التعدي عليها هان عليهم سقوطها من أذهانهم.

والقيم إذا سقطت في مجتمع أو انهارت، انهار المجتمع؛ لأن حركته فقدت التوازن وأصبحت عشوائية؛ فهي حركة دائبة ولكن في غير مصلحة المجتمع وتنميته واستقراره، بل في هدمه وتجريد مؤسساته من صلاحياتها، وتفريغ أدوات الضبط فيه من قوَّتها المهيمنة. ولك أن تتخيل مجتمعاً تُتهَم فيه الأسرة بالجهل، والمعايير الاجتماعية بالتخلف، والقيم بأنها مثار اشمئزاز، ومؤسسات الأخلاق بأنها تتدخل فيما لا يعنيها، ومؤسسات الأمن بمجانبة العدل، والنظم والتشريعات بعدم الواقعية أو عدم المعاصرة، والحِراك الاجتماعي فيه يتخذ سبلاً غير شرعية وغير أخلاقية: كالواسطة والرشوة والنفوذ والقوة، ولا الأهلية والشرعية والحق، إن هذا المجتمع ليس مناسباً لنمو الإنسان بإنسانيته ولا لنشأة قيم مثل: العدل والحق والفضيلة، وإنما هو مجتمع ينشأ فيه البشر المتوحش وتنشأ فيه قيم الوحشية.

والقيم الاجتماعية تحظى في أي مجتمع بإيمان أفراده بها وتعظيمها وانقيادهم لها؛ ولهذا تأتي حركة المجتمع متسقة مع القيم. والتغير الاجتماعي الناتج عن الحركة لا يُنتج مجتمعاً نقيضاً للمجتمع القديم، وأصول المجتمع وثوابته وقيمه تبقى مستمرة معه في مراحل تطوره؛ ولهذا نلاحظ مجتمعات - رغم ما مرت به من تغيرات اجتماعية ضخمة وطفرات اقتصادية - لم تتغير قيمها ومعاييرها الاجتماعية كثيراً. والمجتمع السعودي مثال جيد في ذلك؛ فهو مرَّ بحركة تغير اجتماعي ضخمة حينما أصبح مجتمعاً بترولياً، وتعرَّض لحركة تحديث ضخمة أصبح بها منطقة جذب للأفراد والمؤسسات؛ فجاؤوا بثقافاتهم وأديانهم ومذاهبهم المختلفة والمتباينة، واستطاع أن يستوعب ذلك كله، وتحقق فيه قَدْر كبير من التحديث. ورغم أنه صاحب ذلك بعض الصور السلبية: كانتشار الجريمة واختلال بعض المعايير السلوكية؛ إلا أن المجتمع بقي محافظاً على قَدْر كبير من سمته العام. وهذا لم يتحقق لمجتمعات أخرى مجاورة؛

حيث عصف التحديث بكثير من قيمها ومعاييرها. إن السبب في ذلك يمكن أن يُعْزى لعدد من العوامل، ولكن من أهمها موضوع القيم؛ هذا الذي نتحدث عنه. إن حركة التحديث الماضية في المجتمع السعودي لم تصطدم مع القيم بصورة مقصودة، وما حدث من تصادم أو تناقض كان يوصف بأنه خطأ أو منكر ينبغي تغييره، وكانت الشرعية وصفاً للقيم والمعايير وليست للسلوك الطارئ أو القيمة المنافسة. وكانت هناك بعض المظاهر السلوكية السلبية التي استعصت على التغيير واستمرت في تناقض واضح مع قيم المجتمع، وقد تعامل معها المجتمع بمقدرة عجيبة؛ فبقيت تلك الظواهر محصورة في مجالات محددة لم تتجاوزها؛ فلم تصبح عرفاً عاماً، بل بقيت منكراً يرفضها المجتمع في أي مجال آخر غير الحيز الذي سُمح لها فيه. وأضرب مثلين في موضوعين حساسين جداً، بل هما أكثر ما يهيج صراع القيم داخل المجتمعات المسلمة:

الأول: الفائدة البنكية: وهي - كما هو معلوم - قيمة تتعارض مع قيمة حرمة الربا، وهذه قد بقيت في المجتمع السعودي محصورة في البنك لا تتجاوزه، ولم يسلِّم بها المجتمع ولم تُصدِر الدولة تشريعاً يمنحها الشرعية، بل إن مؤسسات الدولة الأخرى: كالقضاء ومجالس الإفتاء ومعاهد التعليم والجامعات لا ترى شرعية هذه القيمة ولا شرعية السلوك الناتج عنها.

والثاني: الاختلاط في المستشفيات والمراكز الصحية قيمة أخرى تتعارض - كما هو معلوم - مع قيمة الفصل بين الجنسين في مجالات العمل والحفلات وما شابه ذلك. إن ممارسة الاختلاط لم تكن قاعدة، بل كانت استثناء يعاقب عليها المجتمع ونُظُم الدولة. وربما يرى البعض في هذا تناقضاً، ومع ذلك؛ فقد كانت طريقة المجتمع في التعامل مع الممارسات السلوكية المعارضة لقيمه، هي حصرها في أضيق نطاق وتجريمها فيما سواه. وبهذه الطريقة استطاع المجتمع أن يستمر ويحافظ على قدر كبير من استقراره، بل استطاع السعي في تطوير قيمه فاتجه إلى تطوير بعض المعاملات البنكية الخالية من المعاملات الربوية وإنشاء مصرفية إسلامية وإيجاد مستشفيات نسائية بديلة.

لقد كان المجتمع في هذه المواجهات القيمية واقعياً؛ فكان واعياً بالتحدي الحضاري وواعياً أيضاً بمحدودية قدراته، وكان يبحث عن الحلول والبدائل؛ فكان ينجح مرة ويتعثر أخرى ولكنه لم يتوقف في بحثه. وطوال مرحلة التحديث لم تتعرض قيم المجتمع الأساسية للهجوم والتشكيك، ولم يتعرض وجودها المادي للمصادرة والإلغاء.

وبهذا لم يكن التغير الاجتماعي مصدر تهديد لقيم المجتمع ومعاييره، وكان يجري في إطار النسق العام الذي رضيه المجتمع، كما لم يكن غالبية أفراد المجتمع قلقين من عملية التحديث.

وإذا كان المجتمع نجح - إلى حدٍّ ما - في التعامل مع هاتين القضيتين: (الربا والاختلاط) مع شدة حساسيتهما؛ فنجاحه في غيرهما من باب أَوْلى.

وهذه الصورة تقابلها صورة أخرى للتغير الاجتماعي، كان صدام القيم فيها حاداً عاصفاً تبدَّل به المجتمع من صورة إلى أخرى وتغيرت معه معايير السلوك وقيم المجتمع. وللتدليل على ذلك أستشهد بموضوع المرأة؛ لأنه من أكثر قضايا القيم حساسية؛ فبسبب صراع القيم في عملية التغير الاجتماعي في بعض المجتمعات، نشأت صورة أخرى للمرأة مناقضة تماماً لما كانت عليه قبل صراع القيم، ولكي يدرك القارئ حجم هذا التغير عليه أن يراجع كتاباً أرَّخ للمرأة في المجتمع المسلم ككتاب الأستاذ عبدالله الداود: «هل يكذب التاريخ».

في هذا الكتاب حاول الداود أن يتخذ من التاريخ شاهداً في قضية المرأة؛ فأثبت أن صورة المرأة تكاد أن تكون واحدة في العالم الإسلامي كله؛ فهي هي بجلبابها وخمارها وحجابها في الرياض والقاهرة وبغداد ودمشق وإستنبول والبوسنة. أما الصورة التي حدثت بعد ذلك؛ حيث تختلط المرأة بالرجال في مجالات العمل وتتكشف، إنما هي صورة وفدت مع الاستعمار الغربي الذي فرض نوعاً من التغيير على العالم الإسلامي وصادم به قيمه الاجتماعية. وكانت معركة القيم في موضوع المرأة شاملة استخدم فيها الخصم كل الأسلحة: كمهاجمة القيمة نفسها، ومهاجمة مصدرها وحَمَلتها، والتشكيك في جدواها، واستكتب من يشكك ويسخر ويزور، وأثاب من وافقه وعاقب من خالفه، واستنطق كل أحد وأرسل الرويبضات تشتم كرام الناس ممن كانوا سور ممانعة يحافظون على قيم المجتمع؛ لئلا تنهار؛ وكانت النتيجة تَبدُّل المجتمع واستمرار القلق بين مواطنيه وسيطرة التوجس والخوف عليهم. وحدث في تلك المجتمعات ما لم يكن بالحسبان؛ فمثلاً: لم يكن أحد يظن أن المرأة المسلمة في القاهرة تحتاج إلى قرار من المحكمة كي تحضر بخمارها في قاعة الدرس في كلية الشريعة!

المرأة وحصان طروادة(*)

باستثناء بعض القضايا الهامشية التي يلمع بريقها في أعين بعض النسوة، والتي هي بمنزلة حبة القمح التي يضعها الصياد في شباكه ليصطاد بها ما أراد، لا نكاد نجد لهذه الحركة من مردود؛ سوى إثارة العداء بين مكونَي المجتمع (الرجل والمرأة) وتحويل العلاقة القائمة بينهما على التكامل والتعاضد إلى علاقة قائمة على التنافر ومحاولة إثبات الذات وقهر الآخر

محمد بن شاكر الشريف
alsharif@albayan.co.uk

حظيت المرأة (أماً أو أختاً أو زوجة أو بنتاً) برعاية كاملة وصيانة تامة في شرع الله، تعالى. وليس هذا من قبيل الكلام العاطفي ولا مجاراة أو التفافاً على مطالب الحركة النسوية، التي تُهين المرأة وتُفقِدها خصائصها بزعم تمكينها ومساواتها بالرجل! والناظر في كتاب الله - تعالى - وسُنة رسوله ﷺ وكلام أهل العلم من المذاهب المختلفة يدرك ذلك لا محالة؛ إلا أن يصدَّه عن ذلك هوى أو جهل، وقد خلق الله الخلق ونوَّعه بحكمته التي بهرت أولي الألباب والنُّهى؛ فجعل الله - سبحانه وتعالى - من خَلقه الأحياء والجمادات، وابتلى - سبحانه - من الأحياء مَنْ ابتلى بالأمر والنهي؛ فجعلهم فرقتين: فمنهم الذكر ومنهم الأنثى.

(*) تروي الأساطير الإغريقية أن الإغريق حاصروا مدينة طروادة لمدة عشر سنين لكنها استعصت عليهم فاحتالوا لذلك وصنعوا حصاناً خشبياً كبيراً وملؤوه بالجنود وأظهر بقية الجيش انسحابه، ففرح الطرواديون بذلك وأخذوا الحصان وأدخلوه الحصن وعندها خرج الجنود من الحصان وقاموا بفتح أبواب الحصن لبقية الجيش الذي سارع بدخول المدينة؛ حيث قتلوا الرجال جميعهم واسترقُّوا النساء والأطفال.

وقد اختص الله – تعالى – بحكمته الباهرة كل نوع منهما ببعض الأحكام الشرعية المناسبة لطبيعة الخِلقة التي خلقهم عليها والأعمال التي كُلِّفوا بها، وقد كانت النساء ممن خصهن الله – تبارك وتعالى – وميَّزهن عن الرجال ببعض الأحكام الشرعية المناسبة لطبيعة المرأة التي خُلِقت عليها، وللعمل المطلوب منها؛ وإن كان الرجال والنساء جميعهم يشتركون في الأعم الأغلب في الأمور المأمور بها أو المنهي عنها؛ وذلك تصديقاً لقوله – تعالى –: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]؛ فالله – تبارك وتعالى – هو الذي خلق المخلوقات جميعها وأعطى كل مخلوق الخِلقة التي أرادها له، ثم هدى كل مخلوق لِمَا خلقه له:

إما هداية كونية قدرية: بما فطرهم عليه من السعي في تحصيل المنافع المناسبة أو الملائمة لهم ودَفْع المضار عن أنفسهم.

وإما هداية دينية تشريعية: بما شرعه لهم من الشرائع التي يترتب على العمل بها الفلاح في الدنيا والنجاة والفوز في الآخرة.

ومع أن هذا التنوع الذي أوجده الله – سبحانه وتعالى – (شرعاً وقدراً، أو أمراً وخَلقاً)، هو من التكامل بين النوعين؛ وذلك في كل ما خلق الله – تعالى – من الأمم؛ كما قال – تعالى –: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨].

ومع أن كل الأمم المخلوقة قَبِلت هذا التنوع؛ إلا أن هناك فئة ممن اجتالتهم الشياطين من أمة البشر رفضت هذا التنوع وسعت بكل جهدها في مهاجمته ومحاولة إلغائه أو إلغاء نتائجه وما يترتب عليه، معتمدين في ذلك على ما يدَّعونه من ضرورة المساواة التامة بين الذكر والأنثى في جميع المجالات؛ وإلا كان الظلم والبعد عن قيم التحضر والإنسانية.

كيف يمكن أن تُجعَل الخليقة كلها نموذجاً واحداً يساوَى بينها في كل شيء، رغم الخلاف التكويني بين الذكر والأنثى الذي لا يمكن أن يُنكَر أو يُجحَد مهما فعل المخربون، ومهما كانت إرادتهم؟ وقد يتساءل الإنسان محتاراً: ما الذي يحمل هؤلاء على هذا المذهب؟ وما الذي يدعوهم إلى مخالفة ما استقرت عليه البشرية منذ خلق الله – عز وجل – آدم وزوجه؟ وهل هناك أمور جدَّت في الحياة تستوجب هذه المخالفة؟ لكن عندما يعلم الإنسان أن الشيطان هو قائد هذا التصور والتفكير، تزول حَيْرته وتتضح في ذهنه خطوات الشر المطلوبة، تلك التي لا تنتهي إلا بإخراج الناس من دين الله، تعالى. ولَعَمْرُ الحق: إن تلك المساواة التامة التي يدعون إليها في جميع المجالات من غير نظر إلى طبيعة جنس الإنسان وإمكاناته والدور المناط به في الحياة، لَهِي الظلم المبين.

لقد كانت تلك المحاور: (طبيعة الجنس، وإمكاناته، والدور المناط به في الحياة) من أهم العقبات التي اعترضت طريق أتباع الشيطان نظراً للتباين الواضح فيها بين الجنسين، والذي لا يمكن جحده أو ردُّه إلا بالمكابرة والمغالطة، وكان لا بد لهم من التغلب على ذلك وإلا كانت عاقبة مشروعهم الإخفاق، لكن كيف يمكنهم التغلب على ما ليس في أيديهم وليس لهم إليه طريق؟

لقد كان المطلوب أو المعروض بداية، هو ما أسموه زوراً: «تحرير المرأة» ثم تطور الأمر إلى المطالبة أو الدعوة إلى المساواة ثم انتقل الأمر إلى إلغاء الفروق التشريعية، عن طريق إبطال كل التشريعات التي تفترق فيها المرأة عن الرجل (ولو كانت التشريعات دينية)، والعمل على إلغاء الفروق البيولوجية أو إلغاء نتائجها؛ حيث اخترعوا مصطلحاً جديداً، هو: (الجندر) وفيه يُنظر للرجل أو المرأة على أنه نوع وليس جنساً؛ فهو مصطلح يراد إحلاله محل لفظ الجنس؛ إذ الأخير يعبِّر عن الفوارق البيولوجية بين الذكر والأنثى أما الجندر؛ فهو يعبِّر عن الفوارق الاجتماعية بينهما والدور الذي يرغب أحدهما في القيام به؛ فليست المرأة – وَفْق مصلح الجندر – مَنْ كانت تتوفر فيها خصائصها البيولوجية؛ وإنما من أراد أن يقوم بوظيفة المرأة ولو كان رجلاً. وكذلك ليس الرجل من توفرت فيه خصائصه البيولوجية وإنما من أراد أن يقوم بوظيفة الرجل حتى وإن كانت امرأة؛ ومن هنا يتزوج الرجل رجلاً آخر على أساس رغبته في القيام بوظيفة المرأة، وتتزوج المرأة امرأة أخرى على أساس رغبتها في القيام بوظيفة الرجل. لقد بدأ هذا الانحراف في أوله في دول الغرب النصراني والشرق الإلحادي، ثم بدأ الآن يتقدم بخطىً حثيثة نحو بلادنا الإسلامية مستعيناً في ذلك بغلبة الأنظمة العَلمانية على الكثير من بلاد المسلمين، مستخدماً آليات صنع القرارات والقوانين والتشريعات من خلال الديمقراطية الزائفة؛ لتحقيق تلك التصورات وفَرْضها في الواقع. وهذا يستتبع ويتطلب منا رَصْد هذه الاتجاهات وكشفها وبيان ما فيها من خلل وخَطَل وزلل والعمل على مقاومتها؛ حتى تنجو منها مجتمعاتنا الإسلامية، بإذن الله تعالى، كما قال الحسن البصري: أترغبون عن ذِكْر الفاجر؟ اذكروه بما فيه

حتى يحذره الناس.

وعندما نرصد الأصول الفكريـــة التي يرجع إليها الفكر النســـوي الغربي والحركة النســـوية القائمة عليه، نجد أنها تنطلـــق من زاوية أحادية تقوم على تمجيـــد الأنثى والتمركز حولهـــا حتى يصل هـــذا الفكر في غلوائه إلـــى جعل الأنثى معبودةً (أي: جَعْلها إلهاً). ولما كانت اللغة لا تســـاعدهم على ذلـــك؛ إذ ليس في اللغات – علـــى تعددها واختلافها – لفظ «إلهة»؛ فإنهم يسعون في تكوين قاموس نسوي؛ حتى يتمكنوا من إدخال مثل هذه الألفاظ.

ولما كانت الرسالات السماوية القائمة على الوحي الإلهي لا تذكـــر هذا الهراء أو تُقرُّه (وَهُم يرون أن الدين القائم على الوحي قد ربط الخبرة البشـــرية كلهـــا بلفظ المذكر وضمير التذكير)، فقد صار الدين عندهم هو العائق الذي يعوق تقدُّم المرأة وتحقيقها لوجودها وأهدافها، وأن المرأة لا يمكن لها أن تتقدم إلا إذا قامت بتحطيم الدين القائم على الوحي، ومن هنا انطلق الفكر النسوي المعادي لجميع الرسالات السماوية على تعدُّدها، وإن كانت خبرتهم في ذلك لا تتجاوز ما هو مسطور في الكتب النصرانية والأناجيل المحرَّفة؛ إذ كل ما بين أيديهم من نظرة دونية أو تصرُّف غير صحيح تجاه المرأة إنما هو من تلك الكتب ومن أفكار قسيســـيهم أو مفكريهم المستندة إليها، ولما كان الإنسان في غالب شأنه وأَمْره بحاجة إلى التدين؛ إذ لا يمكنـــه أن يعيش بغير دين، فقد اتجه الفكر النســـوي إلى الدعوة إلى الوثنية وعبـــادة الطبيعة انطلاقاً من أن الطبيعة أنثـــى، ومن ثَمَّ فإن المرأة من خلال عبادتها لأنثى مثلها – كما يفترون ويتصورون – يمكن أن تحقِّق وجودها. ولئن كان الفكر النسوي الغربي قد تجاوز الدعوة إلى تحرير المرأة من العقيدة الدينية القائمة على الوحي الإلهي في الغرب؛ فقد عمد إلى فرض ذلك على الدول والشعوب غير الغربية، وإلزامهم بتبنِّي أفكارهم وتصوراتهم ومناهجهم مستخدمين في ذلك المنظمة الدولية «منظمة الأمم المتحدة» التي تحولت إلى أكبر مسوِّق للفكر النســـوي عن طريق عقد المؤتمـــرات وطرح الأجندات والإلـــزام بالقرارات؛ مع أن هذه التصورات لا تمثل مشـــترَكاً إنســـانياً وإنما تمثل رؤية مجتمعات معيَّنة أو جماعات معيَّنة في هذه المجتمعات.

وفي ظل تفـــرُّد قطب واحد بالقـــوة المفرطة في العالم، ووقوع تلك المنظمة في أَســـرِه، تدور فـــي فلكه، وتعمل على تحقيـــق رغباته أو علـــى الأقل عدم الاصطـــدام بها، تظهر الخطورة البالغة لذلك الفكر النســـوي الذي يلقى دعماً كبيراً من القوى العالمية المناوئة للإســـلام على أساس أنه: المطرقة العظيمة التي يمكن أن تتحطم بها مجتمعات المسلمين.

لقـــد بدأ الآن يطرق أســـماعنا بقـــوة الحديث عن حق المـــرأة في الإجهاض من غير أن يكـــون هناك مصلحة طبية مـــن وراء ذلك (بل حتى من حمل حصل من غير زواج)، وحق ممارســـة الجنس الآمن الذي يعطي المرأة الحق في إشـــباع حاجتها الجنســـية بالطريقة التي تقررها هي بمحض إرادتها لا بالطريقـــة التي تضبطها لها معايير أخرى ولو كانت دينية، وحتى يتحقق ذلك ينبغي تعليم المرأة الجنس حتى تحصل على المتعة دون مخاطر، وتوفير خدمات الصحة الإنجابية المتمثلة في موانع الحمل والواقيات الذكرية والأنثوية، ويشيرون أحياناً في هذا الصدد إلى أن السحاق أفضل وسيلة لتحقيق الجنس الآمـــن، مع توفير الدعاية الكافية والوســـائل اللازمة لذلك. وفي هذا كله مخالفة قاطعة للأحكام الشرعية، وأن استخدام هذه الألفاظ إنما هو من قبيل التمويه.

كما يدعون إلى إلغاء مفهوم الأسرة الذي درج عليه الناس منذ بداية الخليقة، إلى أسرة مكوَّنة من رجل ورجل آخر يقوم بدور المرأة، أو أسرة مكوَّنة من امرأة وامرأة أخرى تقوم بدور الرجل، إلى غير ذلك من تلك المهاوي والمهالك.

وتبذل الحركة النسوية الآن جهودها الحثيثة في محاولة تحقيـــق وتنفيذ القرارات الصادرة عن الأمم المتحدة، وخاصة مؤتمر بكـــين ٩٥ الذي يمثل نقطة فارقـــة في تاريخ الحركة النسوية؛ حتى إنه ليؤرَّخ به، فيقال: مؤتمر بكين، ومؤتمر بكين زائد خمســـة (بكين + ٥) وبكين زائد عشـــرة (بكين + ١٠)، وتطبيق اتفاقيـــة: (مكافحة كل أشـــكال التمييز ضد المرأة) التي تُعرَف اختصاراً بـ: (السيداو)، والتي تعني في حقيقتها: إلغاء الفروق التشريعية بين الرجل والمرأة، ومحاولة إلغاء آثار الفـــروق البيولوجية بينهما، وهو ما يعني في النهاية: القضاء على الصورة الشرعية والإنسانية للأسرة التي تتكون من زوج وزوجة وأولاد، وتكون فيها المرأة مقصورة على زوجها وراعية لأطفالها تلفُّهم بحنانها ومسؤوليتها، إضافة إلى تدبيرها لأمر بيتهـــا وطاعتها لزوجها في جو مـــن الأُلفة والمحبة والتعاون. وابتداع صور متعددة للأسرة التي تتكون فيها الأسرة من زوجة وعدة أزواج (الإباحة الجنســـية)، أو من رجل ورجل (اللواط)؛ حيث يقوم أحدهم بوظيفة المرأة حسب مفهوم الجندر، أو من امرأة وامرأة (الســـحاق)؛ حيث تقوم إحداهما بوظيفة الرجل

حسب مفهوم الجندر أيضاً.

لقد صار الفكر النسوي المنحرف في مجتمعاتنا الطريق المعبد للعمل على نشر الانحلال الخُلقي والدعوة إلى الحرية الجنسية عن طريق نشر ما يسمونه الثقافة الجنسية، والدعوة إلى تعلُّم الجنس (وهو الاسم المهذب للدعوة إلى الزنا)، ومحاربة الزواج المبكر (لتضييق منافذ الحلال)، ومنع شريعة ختان البنات وسنِّ القوانين لمعاقبة من يفعل ذلك، والترويج لممارسة الجنس بين المراهقين والمراهقات من غير زواج عن طريق توفير خدمات منع الحمل والإجهاض، واستهداف التراث الحضاري الإسلامي برفض كل ما يمتُّ إلى ذلك بصلة في محاولة للتذويب الحضاري ومسخ هوية أو دين المجتمع، إلى جانب العمل على نَشْر ثقافة الاستسلام والقبول بالأمر الواقع وكأنهم يقدِّمون بذلك هدية للطغاة المفسدين من اليهود والنصارى الذين يحتلون بلاد المسلمين في فلسطين وأفغانستان والعراق والشيشان وغيرها، اعترافاً بالجميل على دعمهم لهذه الأفكار ومساندتهم لمروِّجيها. ولَمَّا كانت هذه الدعوات تحتاج في إقناع الناس بباطلها إلى دعم مادي كبير، فقد انهالت التبرعات من الأموال الخارجية على تلك الجمعيات التي تقوم بتسويق الفكر النسوي فيما عُرِف بالتمويل الخارجي، ومما يؤسف له أن هذا التمويل يدخل مخترِقاً جميع الحجب والجُدُر جِهاراً نهاراً علانية من غير إسرار، من غير أن تستطيع الدول في ظل ضعفها وخوفها ورعبها من سوط المتسلط الصليبي أن تتخذ موقفاً يحفظ للبلد أمنها من أن تخترقها مثل هذه الجمعيات. ومع أن هذا التمويل الخارجي هو في حقيقته يخدم الدول المتبرعة به أكثر مما يخدم الدول المستفيدة منه ظاهرياً؛ إلا أنه مع ذلك يُستخدَم في إذلال تلك الدول وفي التدخل في شؤونها الداخلية فيما يسمونه بالسيادة الوطنية والتأثير في خِياراتها وقناعاتها حتى صارت القرارات في القضايا المصيرية لا يُبَت فيها إلا بعد الرجوع إلى ولاة الأمور (الحقيقيين)، وهم القوة الهمجية المتحكمة في العالم بالقهر؛ حتى صارت كثير من الدول التي يحكمها (حكام وطنيون!) تستحق أن يُطلَق عليها تعبير: «دول محتلة من الباطن».

لقد عمل الفكر النسوي المنحرف على تحريض النساء ضد المجتمع، وإذكاء روح التناحر والشقاق مع الأزواج، ووقوف المرأة في موقف المعاداة مع الرجل، ومعاداة الشريعة عن طريق تأويلها والخروج على أحكامها الواضحة، أو إعلان رفضها

وعندما نرصد الأصول الفكرية التي يرجع إليها الفكر النسوي الغربي والحركة النسوية القائمة عليه، نجد أنها تنطلق من زاوية أحادية تقوم على تمجيد الأنثى والتمركز حولها حتى يصل هذا الفكر في غلوائه إلى جعل الأنثى معبودةً (أي: جَعْلها إلهاً). ولما كانت اللغة لا تساعدهم على ذلك؛ إذ ليس في اللغات - على تعددها واختلافها - لفظ «إلهة»؛ فإنهم يسعون في تكوين قاموس نسوي؛ حتى يتمكنوا من إدخال مثل هذه الألفاظ.

صراحة وتنفيذ الأجندة الغربية بالتعاون مع النخبة المتغربة، واعتبار العَلمانية المرجع الذي يُحتَكم إليه.

ولنا أن نتساءل في النهاية: ما المردود الحقيقي لهذه الحركة النسوية في مجتمع المسلمين؟

بعيداً عن ضجيج الألفاظ الفخمة والصياح العالي، والنفقات المالية الضخمة، ما الذي تقدِّمه هذه الحركة حقاً للنساء؟ وما القضايا المحورية التي تريد تلك الحركة الوصول لتحقيقها بعيداً عن القضايا الفرعية الهامشية التي تُستخدَم لتسهيل ما بعدها أو لإغضاء الطَّرْف عنه؟

إنه باستثناء بعض القضايا الهامشية التي يلمع بريقها في أعين بعض النساء، والتي هي بمنزلة حبة القمح التي يضعها الصياد في شباكه ليصطاد بها ما أراد، لا نكاد نجد لهذه الحركة من مردود؛ سوى إثارة العداء بين مكونَي المجتمع (الرجل والمرأة) وتحويل العلاقة القائمة بينهما على التكامل والتعاضد إلى علاقة قائمة على التنافر ومحاولة إثبات الذات وقهر الآخر، وإفساد المجتمع بإباحة الحرية الجنسية ومخالفة الأحكام الشرعية في كل ما يتعلق بالمرأة حتى يصبح المرجع الذي يُرجَع إليه في ذلك هو قرارات الأمم المتحدة والمؤتمرات النسائية المنبثقة عنها وليس كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله ﷺ وما يترتب على ذلك من ضعف المجتمعات وخَوَرها؛ حتى تصير لقمة سائغة في أفواه الأعداء؛ فيتمكنوا من تغيير دينها كما هو مشاهَد اليوم من عمل محموم للتنصير في كثير من بلاد المسلمين، ومن ثَمَّ تغيير ثقافتها ونهب ثرواتها، وبذلك تُستخدَم قضايا المرأة ضد دينها وضد مجتمعها كحصان طروادة.

المرأة رأس حربة للحرب
(القديمة الجديدة)

خالد بن صالح الغيص
ksmksmg@hotmail.com

ولْيَحذر كل مسلم أن يكون عوناً للكافرين في حربهم هذه؛ فيُصدر القرارات أو يَسنُّ القوانين أو يبذل أي جهد ينتج عنه مخالفة هدي الله - تعالى - فيما شرعه للمرأة

منذ بداية الحرب التي أعلنها إبليس على آدم وذريته من بعده وبداية الصراع الأزلي بين الحق والباطل، ومنذ أن أُمر إبليس بالسجود لآدم فأبى واستكبر، برزت لنا وسيلة خبيثة من وسائل إبليس في إغواء بني آدم، ألا وهي: وسيلة هتك الستر ونزع اللباس وتكشُّف العورات؛ فالقارئ لأغلب آيات القرآن التي جاء فيها ذكر قصة خَلْق آدم وعداوة إبليس له، يجد ذكر بُدوِّ عورة آدم وزوجه عندما أكلا من الشجرة، وأن إبليس وسوس لهما؛ ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما كما في سورة الأعراف، مثلاً؛ حيث يقول - تعالى -: ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩ - ٢٧].

قال ابن كثير - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآيات: يقول - تعالى - محذراً بني آدم من إبليس وقَبيله، ومبيناً لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم - عليه السلام - في سعيه في إخراجه من الجنة التي هي دار النعيم، إلى دار التعب والعناء، والتسبب في هتك عورته بعدما كانت مستورة عنه، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة، وهذا كقوله - تعالى -: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ [الكهف: ٥٠] ا هـ.

ولقد استغل الشيطان ضعف الرجل تجاه المرأة؛ كما قال - تعالى -: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]؛ أي: لا يصبر عن النساء. وتسبب الشيطان في هتك الستر وتكشُّف العورات بعدما كانت مستورة، واستخدم العنصر النسائي في معركته ضد بني آدم.

لذلك حذَّر الله عباده المؤمنين (بعد ذِكْر قصة آدم وإبليس من غير فاصل) حذَّرهم مما يريده الشيطان منهم: من نَزْع اللباس وإظهار العري وتكشُّف العورات؛ ليوقعهم في الفتنة، كما قال - تعالى - في الآية السابقة: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وأمر المؤمنين بأخذ الزينة وسَتْر العورات بعد ذكره لقصة آدم وإبليس (تلا ذلك من غير فاصل)؛ فقال - جل وعلا -: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وحذَّرنا نبينا ﷺ من فتنة النساء كذلك، فقال في الحديث الذي في الصحيحين عن أسامة عن النبي ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء».

وبيَّن ﷺ أن الشيطان يستغل المرأة في حربه ضد بني آدم، فقال ﷺ: «المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان»[1]، وجاء في شرح الحديث: يعني: يرفع بصره إليها ليغويها أو يغوي بها فيوقع أحدهما أو كلاهما في الفتنة. ا هـ[2].

وشَرَع الله - تعالى - أحكاماً خاصة بالنساء: من وجوب الستر، وأَخْذ الحجاب، وتقييد خروج المرأة بالضرورة، ووجوب طاعة المرأة زوجها... وغيرها من أحكام؛ حتى لا تكون المرأة وسيلة وسلاحاً لشياطين الإنس والجن في إغوائهم لبني آدم عموماً وفي حربهم للمؤمنين خصوصاً، وحتى يُغلق على الشيطان باب الإغواء بالمرأة والفتنة بها.

وجعل الله أحكام النساء أحكاماً ملزمة لا يجوز الحيدة عنها، ويظهر ذلك جلياً في السُّوَر التي جاء فيها ذكر شيء من أحكام النساء؛ حيث نجد أن الله يفتتحها أو يختمها بما يدل على وجوب الأخذ بأحكامها، كما في سورة النور التي افتتحها الرب - عز وجل - بقوله: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ١]، وهذا يدل دون أدنى شك على وجوب الأخذ بأحكامها التي جُلُّها أحكام خاصة بالنساء، ثم اختتمها بالآيات التي تحذِّر من الإعراض عن أمر الله ورسوله، فقال - تعالى -: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣ - ٦٤]؛ كي يبدد أدنى شك في وجوب الأخذ بالتشريعات التي جاءت في ثناياها فيما يتعلق بأحكام النساء من الحجاب وغيره، وأنه لا مجال للرأي البشري في الأخذ بها أو عدم الأخذ بها.

وكذلك في سورة الطلاق نجد أن الله بعد أن ذكر بعضاً من أحكام الطلاق والعدة وغيرها ختمها محذِّراً من مخالفة تلك الأحكام بقوله - جل وعلا -: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ [الطلاق: ٨ - ١٠]، مدللاً على وجوب الأخذ بتلك الأحكام والوعيد الشديد لمن يُعرض عنها.

وكذلك الشأن في سورة النساء التي جاء فيها كثير من أحكام النساء؛ حيث نجد أن الله - تعالى - افتتحها بالآية العظيمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ثم عندما ذكر في ثناياها شيئاً من أحكام النساء ختمها بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣١ - ١٣٣]، وهذا يدل على وجوب الأخذ بالأحكام الخاصة بالنساء، وأن تلك الأحكام لها ارتباط عظيم بتقوى الله وأنه لا يتقي الله ويتقي عذابه من لا يلتزم بها.

ويظهر ذلك أيضاً من خلال الآيات المتعلقة بأحكام

(١) رواه الترمذي عن ابن مسعود وصححه الألباني.
(٢) فيض القدير للشوكاني.

النساء والأسرة التي جاءت في ثنايا سورة البقرة؛ إذ يختمها الله غالباً بالأمر بتقواه بقوله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣١ – ٢٣٣].

ولا يخفى أن الآيات التي يقول الله – تعالى – فيها: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ – ٣]، والآية التي يقول فيها: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]، وأيضاً الآية التي يقول فيها: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

لا يخفى أن كل هذه الآيات جاءت في ثنايا سورة الطلاق التي جُلُّها أحكام خاصة بالنساء؛ فأغلب الآيات القرآنية التي جاء في ثناياها الأمر بالتقوى وبطاعة الله ورسوله، هي آيات أحكام النساء والأسرة.

هذا الاستعراض السريع لهذه السور والآيات يدل دلالة قاطعة على أن الأحكام الشرعية الخاصة بالنساء: من وجوب السِّتر، وأَخْذ الحجاب، وطاعة الزوج... وغيرها من أحكام، هي ليست من قَبيل الأحكام المباحة التي يجوز التساهل بها، بل هي أحكام واجبة محكَمة لا يجوز التساهل بها أو التنازل أو الإعراض عنها بحجة مواكبة عصر الحرية والديمقراطية، وقد جاء الوعيد الشديد في التحذير من ذلك، كما في خاتمة سورة الطلاق.

فالمرأة المسلمة التي تظن أن تلك الأحكام هي أحكام مباحة أو مستحبة في الدين، وأنه لا يجب الالتزام بها، هي مخطئة في ظنِّها وعليها أن تتقي الله – تعالى – وتتدبر كتابه وتتفقَّه في دينها، وقد حرصتُ – قدر الاستطاعة – أن لا أستدل في بحثي هذا إلا بالآيات الصريحة والمحكَمَة من القرآن الكريم؛ حتى لا يكون هناك أدنى شك في قلب أي مؤمن أو مؤمنة؛ فلا تكن المرأة المسلمة بتبرجها وإبداء زينتها ونَزْعها لثوب الحياء عوناً وسلاحاً للشيطان على أخيها المسلم وهي لا تشعر.

أعود إلى ما بدأت به المقال، وهو: أن قضية هتك الستر ونزع اللباس وتكشُّف العورات، من القضايا التي يريدها إبليس (الشيطان الأكبر) من آدم وذريته مِنْ بعده منذ بدء الخليقة؛ ليستغل ذلك في حربه وإغوائه لبني آدم، وهذا الاستغلال يتجدد ويتطور في كل زمان ومكان، ويظهر جلياً في زماننا هذا؛ حيث أصبح شعار دول الكفر التي تعادي الإسلام والمسلمين وتحارب دين الله: «الحرب على الحجاب وإخراج المرأة من خِدْرها وسِترها وبيتها»، ورفعوا راية الانتصار للمرأة بزعمهم، وحرية إبداء زينتها ومفاتنها واختلاطها بالرجال، بل وصل بهم العناد إلى فرض ذلك على جميع أمم الأرض وفَرْض نظرياتهم وأفكارهم فيما يتعلق بقضية المرأة، بل يحاربون ويهدِّدون بالحرب على كل من لا يذعن لأفكارهم ونظرياتهم فيما يخص المرأة وهذا مصداق لقول الله – تعالى –: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦] الأنفال. وهذا لا يزيد المسلم الصادق إلا ثباتاً على دينه، كما قال – تعالى –: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]. وقال – جل وعلا –: ﴿وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

ولْيَحذر كل مسلم أن يكون عوناً للكافرين في حربهم هذه؛ فيُصدر القرارات أو يَسنُّ القوانين أو يبذل أي جهد ينتج عنه مخالفة هدي الله – تعالى – فيما شرعه للمرأة؛ فَشَرْع الله وهديه يريد للمرأة المسلمة الطهر والعفاف وأن تكون بعيدة كلَّ البعد عن الأسباب الداعية للفتنة والشر: من التبرج والسفور والاختلاط والابتذال والاستغلال، على الضد مما يريده منها أهل الأهواء والشهوات من شياطين

الإنس والجـــن، كما قال – تعالى – بعـــد أن ذكر جملة من الأحكام المتعلقة بالنساء والأسرة مبيناً الحكمة منها: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُـنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُـوا مَيْلاً عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَـانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٦ – ٢٨].

قال سيد قطب – رحمه الله – عند تفسيره لآيات سورة الأعـــرا ف التي بدأتُ بها المقال: المعركة مع الشـــيطان هي المعركة الرئيســـة... إنهـــا المعركة مع الهـــوى باتباع الهدى، والمعركة مع الشـــهوات باســـتعلاء الإرادة، وهو إنما يأتيهم مـــن ناحية نُقَطِ الضعف فيهم ومداخل الشـــهوة، ولا عاصم لهم منه؛ إلا بالتقوّي بالإيمـــان والذكر، والتقوّي على إغوائه ووسوسته، والاســـتعلاء على الشهوات وإخضاع الهوى لهدى اللـــه، وهكذا تتركز المعركـــة الكبرى الطويلـــة الضارية في المعركة مع الشـــيطان ذاته، ومع أوليائه، ويشـــعر المسلم وهو يخوض المعركة مع هواه وشـــهواته أنـــه يخوضها كذلك مع أولياء الشيطان من الطواغيت في الأرض وأتباعهم وأذنابهم؛ وهو يخوضها مع الشر والفساد والانحلال الذي ينشرونه في الأرض من حولهم... يشـــعر المسلم وهو يخوض هذه المعارك كلها، أنه: إنما يخـــوض معركة واحدة جدية صارمة ضارية؛ لأن عـــدوه فيها مصرٌّ ماضٍ في طريقه، وأن الجهاد – من ثَمَّ – ماضٍ إلى يوم القيامة، في كل صوره ومجالاته.

وأخيراً فإن القصة (وهي قصـــة خَلْق آدم) والتعقيبات عليها تشير إلى شيء مركوز في طبع الإنسان وفطرته، وهو: الحياء من التعري وانكشاف سوأته: ﴿فَوَسْـوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٠]

﴿فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّـجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَـوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]..

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًـا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٦]..

﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَـهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَـوْءَاتِهِمَا﴾ [الأعـراف: ٢٧] وكلها توحي بأهمية هذه المسألة، وعمقها في الفطرة البشرية؛ فاللباس وسَتر العورة، زينة للإنسان وستر لعوراته الجسدية، كما أن التقوى لباس وستر لعوراته النفسية.

والفطرة الســـليمة تنفر من انكشاف سوآتها الجسدية والنفســـية، وتحـــرص على سَـــترها ومواراتهـــا... والذين يحاولون تعرية الجسم من اللباس، وتعرية النفس من التقوى ومـــن الحياء من الله ومن الناس، والذين يطلقون ألســـنتهم وأقلامهـــم وأجهـــزة التوجيه والإعلام كلَّهـــا؛ لتأصيل هذه المحاولة في شتى الصور والأساليب الشيطانية الخبيثة، هم الذين يريدون سَلْب «الإنسان» خصائص فطرته، وخصائص «إنســـانيته» التي بها صار إنساناً، وهم الذين يريدون إسلام الإنسان لعدوه الشيطان وما يريده به: من نَزْع لباسه وكَشْف ســـوأته ! وهم الذين ينفِّذون المخططات الصهيونية الرهيبة لتدمير الإنســـانية وإشـــاعة الانحلال فيها؛ لتخضع لَـمُلك صهيون بلا مقاومة، وقد فقدت مقوماتها الإنسانية.

إن العري فطرة حيوانية، ولا يميل الإنسان إليه إلا وهو يرتكس إلى مرتبة أدنى من مرتبة الإنســـان. وإن رؤية العري جمالاً هو انتكاس في الذوق البشـــري قطعاً. والمتخلفون في أواسط الأدغال والغابات غالبيتهم شبه عراة. والإسلام حين يدخل بحضارته إلى هذه المناطق يكون أول مظاهر الحضارة اكتســـاء العراة؛ فأما في الجاهلية الحديثة «التقدمية»، فَهُم يرتكســـون في الوحل الذي ينتشل الإســـلام المتخلفين منه، وينقلهم إلى مســـتوى «الحضارة» بمفهومها الإسلامي الذي يستهدف استنقاذ خصائص الإنسان وإبرازها وتقويتها.

والعري النفســـي من الحياء والتقوى (وهو ما تجتهد فيه الأصوات والأقلام وجميع أجهزة التوجيه والإعلام)، هو النكسة والـــردة إلى الجاهلية. وليس هو التقـــدم والتحضر كما تريد هذه الأجهزة الشـــيطانية المدرَّبة الموجَّهة أن توسوس. وقصة الخلـــق في القرآن توحي بهذه القيم والموازين الأصيلة وتبيِّنها خير بيان. والحمد لله الذي هدانا إليه وأنقذنا من وسوســـة الشيطان ووحل الجاهلية. اهـ بتصرف يسير يناسب المقال.

وليتذكر كل مؤمن ومؤمنة دائماً قول الله – تعالى –: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وأخيـــراً: إن أصبـــت، فمن اللـــه وحده وله الحمد والمنة، وما كـــان فيـــه من خطـــأ؛ فمن نفسي ومن الشيطان والله ورسوله منه بريئان. وأستغفر الله – تعالى – وأتوب إليه، و أسأل الله ربي التوفيق والسداد لي ولجميع إخواني المسلمين.

الأسرة المسلمة وصيانتها من أخطار العولمة

د. عبد الله بن وكيّل الشيخ(*)

الأسرة هي الوحدة الاجتماعية الأولى التي يتكون منها المجتمع؛ فنواة هذه البشرية التي تصل المليارات، هي: تلك الخلية الأولى التي تكونت من الأم والأب اللذين ارتبطا برباط شرعي يقرُّه المجتمع، سواء كان ذلك الرباط مستمَداً من تعاليم الوحي؛ كما في مجتمعات المسلمين وأتباع الأديان السماوية الأخرى أو من أعراف المجتمعات.

وهي خلية اجتماعية تتكون في ظل شروط معينة وتستلزم منظومة من الواجبات والحقوق بين أطرافها، لكن أهمية الأسرة ليست منحصرة في التكاثر البشري، بل أهميتها تتجاوز ذلك إلى الضبط السلوكي وإقامة المعيار الأخلاقي في ظل تعاهد مستمر من ركنَي الأسرة للأبناء؛ حيث يشرب الأبناء الأخلاق والمبادئ ويغذوا بالثقافة التي توجههم في سلوكهم المستقبل حينما يتعاملون مع بقية أفراد المجتمع وربما كانت هذه المهمة الثانية للأسرة تفوق المهمة الأولى؛ فإن قلة الأفراد مع وجود التوجهات السلمية والأخلاق المنضبطة خير من كثرة منحرفة لا تظلِّلها الأبوة ولا ترعاها الأمومة؛ فتنشأ نشأة سيئة؛ فتكون مصدر شقاء وإفساد في المجتمعات، والمهمتان المذكورتان مركوزتان في الفطرة البشرية؛ ولذا لما جرَّبت المذاهب الإلحادية إلغاء كيان الأسرة في القرن الماضي لم يمضِ إلا زمن يسير حتى تراجعت عن هذا التجاوز المفرط لركائز الفطرة التي أودعها الله - سبحانه - النفس البشرية.

ولا غرو والحال ما ذُكِر أن تعتني الشريعة الإسلامية بالأسرة غاية العناية في تكوينها ورعايتها بعد ذلك التكوين من خلال منظومة تشريعية دقيقة؛ حتى إنك لترى آيات تنظيم الشأن الأسري في القرآن الكريم تفوق من حيث العدد آيات المعاملات المالية؛ مع كثرة تلك المعاملات وتنوعها، وفي ذلك أعمق دلالة على أن هذه الخلية البشرية تستحق كل هذه العناية والرعاية من الشريعة المطهرة، وإن شئت أن تلمح تلك العناية واضحة جلية، فاقرأها في قوله - تعالى -: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١] وكأن في وصف هذه الرابطة بأنها آية مزيد إغراء بتأمل جوانب النعمة في هذا الرباط وتلمُّس وجوه الأنس فيه وتدبر الثمرات الدينية والدنيوية، وكلما كان التأمل أعمق كان الاعتزاز بهذا الرباط أوثق والحرص على بقائه متيناً قوياً أشد، ثم يمتد هذا الاعتزاز والتقدير إلى محيط الأسرة الواسع؛ إذ الأسرة في الإسلام لا تقتصر على الزوجين والأولاد فقط، وإنما تمتد إلى شبكة واسعة من ذَوِي القُرْبى من الأجداد والجدات والأخوة والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات وغيرهم، ممن تجمعهم رابطة النسب أو المصاهرة أو الرضاع أينما كان مكانهم.

ومن لطائف الشريعة المباركة إغراء الأبناء بتقدير هذه العلاقة وتوقير هذه الأسرة من خلال الوعد بحصول البركة والخير في أغلى ما يملك الإنسان من متع الحياة الدنيا، وهما: متعة العمر والمال. يقول ﷺ: «من أحب أن يُبسَط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه»[1].

بيد أن هذه الأسرة أصبحت تتعرض في عصرنا الحاضر لهجمة شرسة من العولمة الغربية التي تعمد إلى تعميم النمط الحضاري الغربي والأمريكي بوجه أخص على كل مجالات الحياة في المجتمعات الإنسانية؛ لتُوجِد نسخة كربونية من المجتمع الغربي باتجاهاته الفكرية وممارساته السلوكية وعاداته في الحياة والعيش ممتدة إلى كل مناحي الحياة: (الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية)، وقد استغلت هذه الحضارة وبشكل غير أخلاقي الأجهزة الأممية؛ كما في جهاز الأمم المتحدة من خلال منظماته المتعددة، وهذه الثقافة المستعلية المتغطرسة لا تملك من مقوماتها الذاتية ما يغري باعتناقها أو يحفز على الانخراط في منظومتها؛ ولذا لجأت إلى هذه الأجهزة الأممية؛ لتفرض هذه الثقافة من خلال اتفاقيات ووثائق عالمية تصاغ من خلال مؤتمرات أممية عن الأسرة والمرأة والطفل والتنمية.

والبشرية بعمومها والأمة المسلمة بوجه أخص، مهدَّدة بسبب هذه العولمة التي سيكون من ثمراتها المُرة تمزيق النسيج الاجتماعي وتحطيم مفهوم الأسرة بمفاهيم العولمة الجديدة، كمفهوم الجندر الذي يتجاوز مبدأ الفطرة الأساسي في كينونة المجتمع من ذكر وأنثى، إلى إباحية لم تعرف البشرية مثيلاً لها في التاريخ؛ إذ هي خَلْق لنسيج اجتماعي جديد تُلْغى فيه كل الأدوار النمطية لكلٍّ من الرجل والمرأة في مصلحة أنماط جديدة يدعى فيها - زوراً وبهتاناً - بالمساواة بين الرجل والمرأة وحقيقتها خلق مجتمع أنثوي تقوده الحركة النسوية العالمية؛ وفي مثل هذا المجتمع التي تنشئه هذه الحركة تغيب العلاقة بين الآباء والأبناء؛ حيث لا يعرف حقيقة من هم الآباء، وتلغى فيه الأخلاق، وتتلاشى أو تضعف - على أحسن تقدير - دائرة المحرمات؛ لتفسح المجال للعبث الجنسي الذي لا ينتهي إلى نهاية، وستسود حينئذٍ النزعة الأنانية وتستحكم المادية الشرسة وتغيب الفضائل الإنسانية التي لا تعمر الحياة إلا بها ولا يطيب العيش إلا في ظلالها، وستشهد بعينيك أشباحاً بشرية أبعد ما تكون عن الإنسانية الكريمة، من مثل الحال في ولاية كاليفورنيا المتخمة اقتصادياً ولكنها في الوقت نفسه تنفق على السجون ما يفوق ميزانية التعليم، وينفق السكان على حراسهم المسلحين ضعف ما تنفقه الدولة على الشرطة[2]. وفي ظل

(*) الأستاذ المشارك في قسم السنَّة وعلومها - كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية.

(١) أخرجه البخاري.

(٢) العولمة الأخطار وكيفية المواجهة، غازي التوبة، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٥٣٠.

هذه العولمة سيزداد الفقراء فقراً والأغنياء تخمة من خلال مجتمع الخُمُس الغني، وأربعة الأخماس الفقراء. وللفقر سيئاته التي لا يجهلها أحد على الفرد والأسرة والمجتمع.

لا يصح والحالة هذه أن تعيش المجتمعات البشرية والمجتمعات المسلمة بوجه أخص حالة الانقياد لوحش العولمة الكاسر أو في أحسن الأحوال حالة عدم المبالاة؛ حتى يجرفنا التيار، بل يجب أن يستيقظ الإحساس وينمو الشعور بالواجب، فننهض بواجبنا الشرعي في إنقاذ مجتمعاتنا من هذا الطوفان المدمر بقوانا المتعددة وإمكاناتنا المتنوعة ومن خلال مواقعنا في مجتمعاتنا.

وأول من ينبغي أن يمسك بزمام المبادرة في صد هذه الهجمة العولمية الأسرة ذاتها، من خلال بنائها الأسري المتين الذي ينهض بالواجبات الشرعية المناطة به؛ فإن الدخول في عالم الأسرة دخول في مسؤوليات دينية واجتماعية تتعيَّن العناية بها والحرص على الوفاء بها بصورة تكفل لهذه الأسرة التماسك، والشريعة الإسلامية أفاضت في تحديد الواجبات الشرعية لعناصر هذه الأسرة التي تضبط إيقاعها وترسم حدود التعامل فيها؛ فهي مؤسسة ممتدة من حيث الزمن، ممتدة من حيث الأثر؛ حيث يشمل أثرها الأسرة ذاتها والمجتمع من حولها، ومن ثم فإن على الأسرة أن تُشيع في محيطها الودَّ والسلام؛ حتى تكون ظلاً وارفاً وعيشاً هنيئاً يَسْعَد أفرادها بالكينونة فيه ويحرصون كل الحرص على دوامه واستمراره، وأسوأ ما يكون في واقع الأسرة أن تكون طاردة للأبناء؛ فينشدون الاحترام والتقدير خارجها من خلال صداقات وزمالات قد تكون في بعض الأحيان هادمة لكثير من المعاني التربوية التي يسعى الأبوان لتحقيقها ولكنهما - بإهمالهما أو بممارساتهما - أتاحا لها الهدم على أيدي تلك الصداقات ثمرة تقلُّص الجو الأسري الذي كان ينبغي أن يجد الأبناء فيه من المعاني ما لا يجدونه خارجه.

وغني عن القول أن مما يسهم فيما ذُكِر نموُّ ثقافة الأبوين وتحصيلهما لمهارات قيادة الأسرة؛ خاصة في ظل النمو المعرفي المتزايد للطبقات الناشئة نظراً لتوفر المعرفة التي أوجدت منظومة جديدة من الاحتياجات العقلية والنفسية والمادية للأبناء، والتي قد لا يدركها الأبوان أو يجهلان مردودها، بل قد يتخوفان من عوائدها، وكل هذا وذاك يفرض نوعاً من التثقيف الذاتي للوالدين، ومتابعة واعية لمسيرة الحياة الاجتماعية الجديدة؛ ليتتحق للوالدين إيجابية التعامل مع الأسرة، وجميل جداً أن تتحق هذه الإيجابية بين قيادة الأسرة والأسرة نفسها؛ حينما تبلور الأسرة بكامل أفرادها استراتيجية مستقبلية لمؤسستهم الصغيرة، تستوعب الطموحات والآمال وترسم الأدوار المناطة بأفراد هذه الأسرة، وحينئذٍ يعيش عناصر هذه الأسرة مشروعاً يهم الجميع نجاحه؛ لأنه يحقق لكلٍّ منهم ذاته وينجز طموحاته ويساهم في نجاح يتمتع بالعيش فيه.

وللمجتمع بأجهزته المتعددة أدوار عديدة في نجاح الأسرة لا تقل أثراً عن دور الأسرة الذي سبق آنفاً بعض جوانبه، بل ربما تتجاوزها أحياناً نظراً إلى تعدد الإمكانات التي يمتلكها المجتمع وقد لا تملكها الأسرة؛ فضلاً عن كون الإنسان كائن اجتماعي يعيش أكثر وقته في المجتمع من حوله، ويأتي في أول قائمة واجبات المجتمع تجاه الأسرة، رَسْم استراتيجية عامة للأسرة نهوضاً بها وتحقيقاً لبنائها بناءً متيناً وحمايتها من المؤثرات الضارة التي بَلَت العولمة بها عالمنا اليوم، ترسم هذه الاستراتيجية من خلال تكاتف قوى المجتمع المتعددة التي يأتي في مقدمتها أجهزة التعليم والإعلام والشباب ومؤسسات الرعاية الاجتماعية، ويتنادى الجميع للنهوض بتكاليفها من خلال عدد من الأنشطة: كالتشجيع على الزواج وتيسيره، والتوعية بالأحكام الشرعية المتعلقة بالأسرة وبالدراسات الاجتماعية والنفسية المتعلقة بها، ورعاية الأمومة والطفولة والمسنِّين والزوجات في الخلافات الزوجية ومشكلات الشباب مع الآباء والأمهات، وإقامة مجالس الصلح بين أفراد الأسرة، والعناية بدور الحضانة والمدارس ووسائل الإعلام والمساجد التي تمثل التربية الخارجية التي تشكّل أفراد الأسرة من داخل نفوسهم[1].

وإذا كانت أجهزة المجتمع مطالبة بهذا التفعيل الأيجابي لهذه الاستراتيجية، فإن جهاز التعليم يتحمل من بين أجهزة المجتمع عبئاً أكبر في هذا النهوض؛ فهو الجهاز الذي يقضي فيه الفرد أغلى سنوات العمر، سنوات بناء المعاني والاتجاهات وتأسيس المعارف والأخلاق وإيجاد المهارات التي تؤسس لقدرة الفرد المستقبلية في تعامله مع نفسه أو الناس من حوله، وهو جهاز يحظى بإمكانات هائلة ولديه من البرامج والطاقات البشرية فضلاً عن الاعتراف الاجتماعي وربط الحركة في الحياة بواقع التعليم، وهو ما يؤهله لدور كبير تجاه بناء الأسرة. والمدرسة في عالم اليوم لم تعد مكاناً لتحصيل المعرفة الذهنية فقط، ولكنها - فوق ذلك - موئل لبناء الإنسان في جوانبه المتعددة (الذهنية والنفسية والاجتماعية)، وهذا يفرض مراجعة جادة لتأهيل المعلم وبناء المنهج وتهيئة البيئة المدرسية؛ لتكون مؤهَّلة حقاً؛ لتحقيق هذا الهدف المنشود.

ثم يلي هذا الجهاز جهاز الإعلام الذي بات وللأسف الشديد من أكبر المهددات للحياة الأسرية ومن أطول أذرعة العولمة التي تخطط لإحداث الآثار الضارة في المجتمعات؛ حيث تكاد تشك في انتماء هذا الجهاز بوسائطه المتعددة؛ المقروءة والمسموعة والمشاهدة - في كثير منه - إلى هذه المجتمعات؛ حيث لا تجد نسبة معقولة بين الهدم والبناء، ولا بين اللهو والجد، ولا بين روح الإنتاج وروح الاستهلاك، ولا بين الاعتزاز بالذات والذوبان في المجتمعات، بل هو في كل المجالات السلبية أكثر عناية وأبرع إنتاجاً وأغزر مخرجات، كما تجد هذا الإعلام مُعرِضاً عن السياسات العامة التي ترسمها المجتمعات من خلال أجهزتها القيادية فيها من أمثال: وثيقة الشرف الإعلامي التي أقرها وزراء الإعلام العرب بتاريخ ١٢ فبراير عام ٢٠٠٨م، والتي من بنودها:

(١) ينظر: المادة ٤٢ من ميثاق الأسرة في الإسلام.

العام	نوع الجريمة في الولايات المتحدة	عدد الحالات
٢٠٠٨	حالات الاغتصاب	٩٠٠٠٠ حالة معلنة ٧٥٠٠٠ حالة غير معلنة
٢٠٠٨	معدل الإجهاض	٢٢ ٪ من مجموع حالات الحمل
٢٠٠٧	حالات الولادة من علاقات غير شرعية	١,٧ مليون حالة من مجموع ٤,٣ مليون حالة (أي ٤٠ ٪)
٢٠٠٧	عدد حالات الاعتداء الجنسي المسجلة	٢٤٨٣٠٠ حالة (حالة كل دقيقتين). علماً بأن الحالات المسجلة تشكل فقط ٤٠ ٪.
٢٠٠٤-٢٠٠٥	حالات الحمل جراء الاغتصاب	٣٢٠٤ حالة تقريباً
٢٠٠٥	الشذوذ الجنسي	٨,٨ مليون. ازداد العدد بنسبة ٣٠ ٪ من عام ٢٠٠٠ - ٢٠٠٥.
١٩٧٣-٢٠٠٥	الإجهاض	أكثر من ٤٥ مليون حالة
٢٠٠٤	اغتصاب الأطفال	١٥ ٪ من ضحايا الاغتصاب دون الثانية عشرة
سنوياً	زنا المحارم	١٦٠٠٠ حالة سنوياً
١٩٩٧	جنس المغتصِب	٥٢ ٪ من الأمريكان البيض
-	عقوبة المغتصِب	فقط ٦ ٪ من مجرمي الاغتصاب يمكثون ولو يوماً في السجن!

تجارة الإباحية في الولايات المتحدة	العدد أو النسبة
حجم المواقع الإباحية	٢٤٤,٦ مليون صفحة (٨٩ ٪ من مجموع المواقع الإباحية)
عائدات مبيعات أشرطة الفيديو الإباحية	٣,٦٢ مليار دولار
عائدات المواقع الإباحية	٢,٨٤ مليار دولار
عدد الإصدارات الإباحية	١٣٥٨٨ إصدار

أعد هذا الجدول في مركز الدراسات والبحوث في البيان

١ - تدعو الوثيقة إلى حرية التعبير الواجب ممارستها وَفْق الوعي والمسؤولية بما من شأنه حماية المصالح العليا للدول العربية.

٢ - تطالب الوثيقة بضرورة احترام خصوصية الأفراد والامتناع عن انتهاكها بأي صورة من الصور، والامتناع عن التحريض على الكراهية، والامتناع عن بثّ كل شكل من أشكال التحريض على العنف أو الإرهاب والتفريق بينه وبين الحق في مقاومة الاحتلال.

٣ - تدعو الوثيقة إلى ضرورة الالتزام بالقيم الدينية الأخلاقية للمجتمع العربي، والامتناع عن بث كل ما يسيء إلى الذات الإلهية والأديان السماوية والرسل والمذاهب والرموز الدينية، والامتناع عن بث وبرمجة المواد التي تحتوي على مشاهد أو حوارات إباحية أو جنسية صريحة.

ربما يظن بعض القائمين على أجهزة الإعلام أنهم - لملكيتهم لأصولها المادية - يملكون حق توجيه المجتمعات من خلالها بما يشاؤون؛ فهم يملكون أفكار المجتمع كما يملكون أدواتهم الإعلامية، وهذا وَهْم كبير؛ إن لم يكن جرماً فاحشاً وإثماً مبيناً؛ فجهاز الإعلام يملكه في جوانبه المعنوية المجتمع وليس من حق أحد - كائناً من كان - أن يعبث بثوابت المجتمعات بدعوى الملكية الموهومة هذه، وهذا القدر من هذه الحقيقة تُجْمِع عليه البشرية كلها؛ ولذا يُرْسَم للإعلام السياسات العامة وتُسَن له التشريعات المحددة ويتنادى العقلاء في أنحاء المعمورة لمسائلة القائمين عليه؛ حسب أعراف تلك المجتمعات، وليس عنا ببعيد مشروع القانون الذي أقره الكونغرس الأميركي، والذي يطلب من الرئيس باراك أوباما تقديم تقرير للكونغرس حول «التحريض على العنف ضد الأميركيين» في القنوات الفضائية في الشرق الأوسط، وفَرْض عقوبات على الأقمار الاصطناعية التي تنقل بثاً لمحطات تلفزيونية تتهمها الولايات المتحدة بدعم الإرهاب والحض على العنف.

وهكذا تغرقنا العولمة بفسادها بدعوى حرية الإعلام، وفي الوقت نفسه تُصادَر هذه الحرية حينما يتكلم الآخرون خلاف ما تريد لهم أن ينطقوه، لكن هذا - على ما فيه من سياسة ازدواجية - يدل دلالة مؤكدة على أن الحرية الإعلامية يجب أن تكون محاطة بسياج الأمن الاجتماعي، والمجتمعات هي التي تحدد إطار هذا السياج.

وفي مجتمعات المسلمين يجب أن يكون سياج الشريعة هو الإطار التي يتحاكم إليه كل الناس؛ بما فيهم الموجِّهون من خلال الإعلام.

على أن الصورة المثلى التي نتمنى أن يكون عليها الإعلام في ديار الإسلام، هي: أن يكون جهاز توجيه يعوَّل عليه في محيط الأسرة في رسم الاتجاهات الإيجابية في الحياة الأسرية؛ فهو الذي يعزز القيم ويبني الفضائل ويقاوم الجريمة وينشر ثقافة الجد والعمل ويوجِد الروح التنافسية بين أفراد المجتمع في السعي لخير مجتمعاتهم، ويعظم الإيجابيات الموجودة ليغري بها الناس؛ فيرى المتلقي صوراً إيجابية لمن حققوا إنجازات في شتى ميادين الحياة في جوانبها الدينية والدنيوية.

وعلى الحكومات في ديار الإسلام واجب كبير في مقاومة هذه العولمة في جوانبها الضارة، من أمثال: التصدي للمواثيق الأممية التي تساق إليها المجتمعات بثقافة العولمة والاعتراض عليها، بل إسقاط موادها المخالفة للشريعة الإسلامية متى ما أمكن ذلك، والتفاعل بإيجابية في تقديم البديل الشرعي الذي سنَّته الشريعة؛ إذ هو الموافق للفطرة البشرية والمحقق للمصلحة الإنسانية والدفاع عن حوزة الإسلام (فكراً ومنهجاً) لا يقل عن الدفاع عن حوزته (أرضاً ووطناً)؛ فكلاهما من واجبات الدولة المسلمة وكلاهما من شرائط التمكين في الأرض واستجلاب التوفيق من الحق، سبحانه.